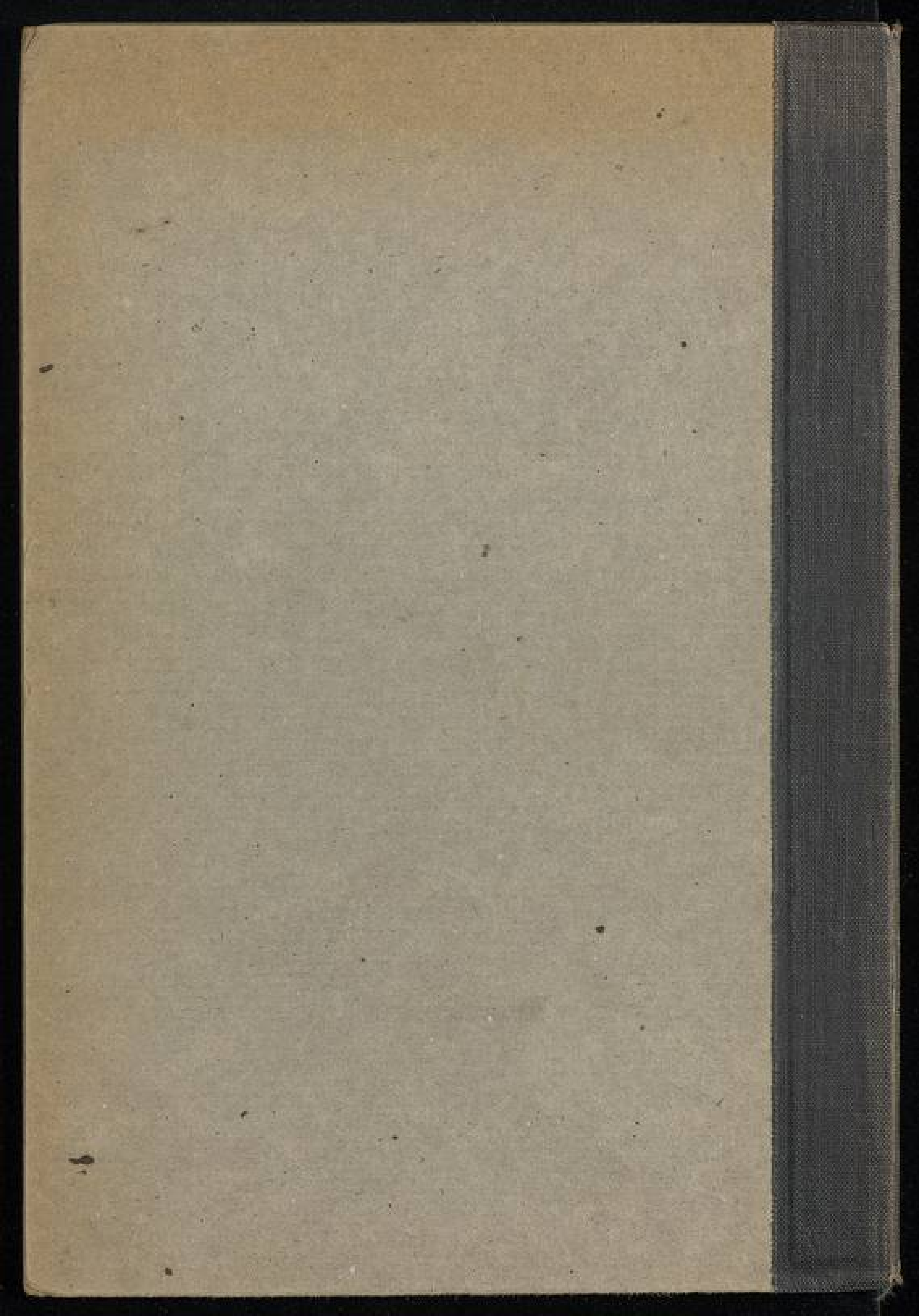
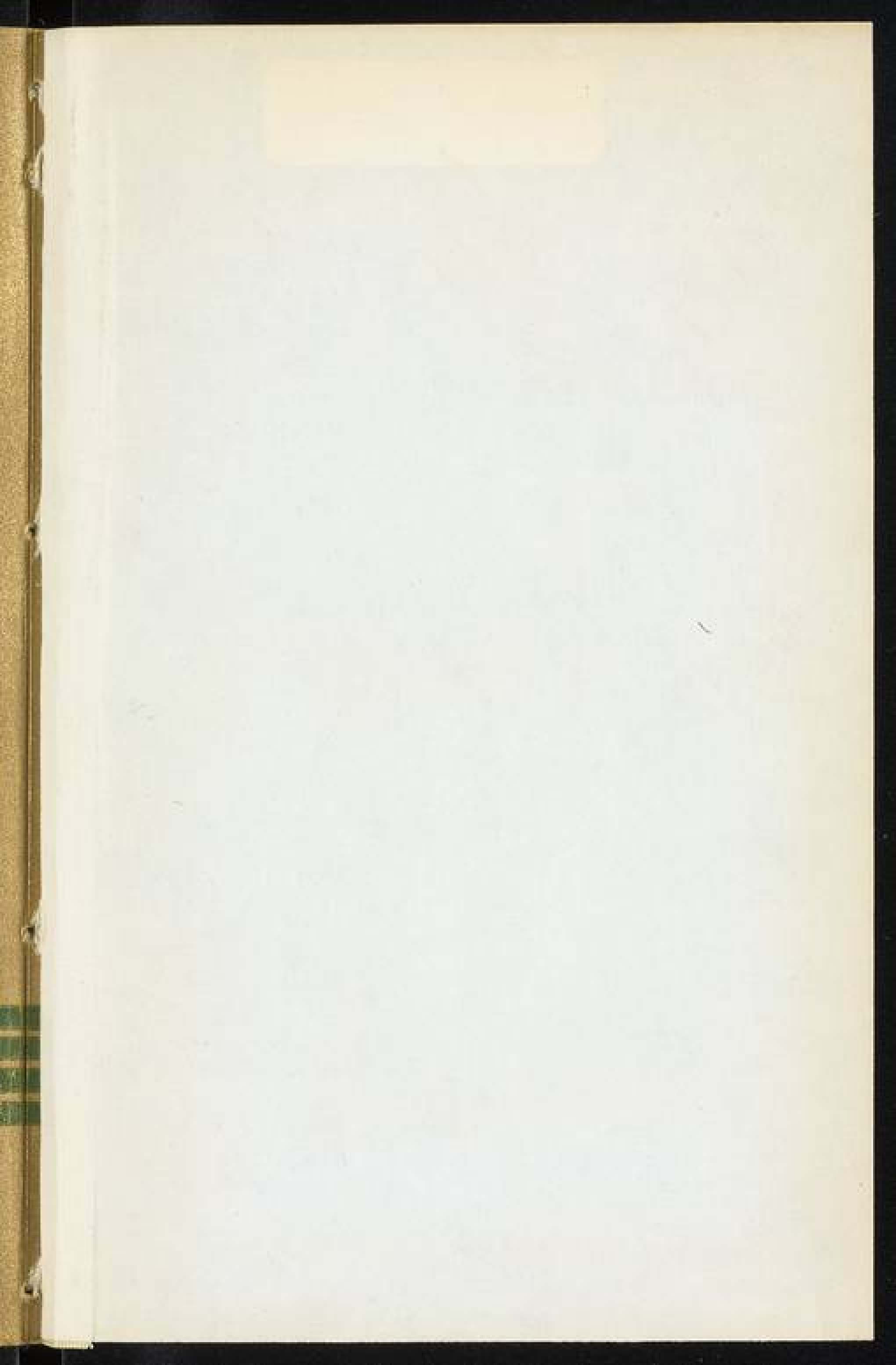
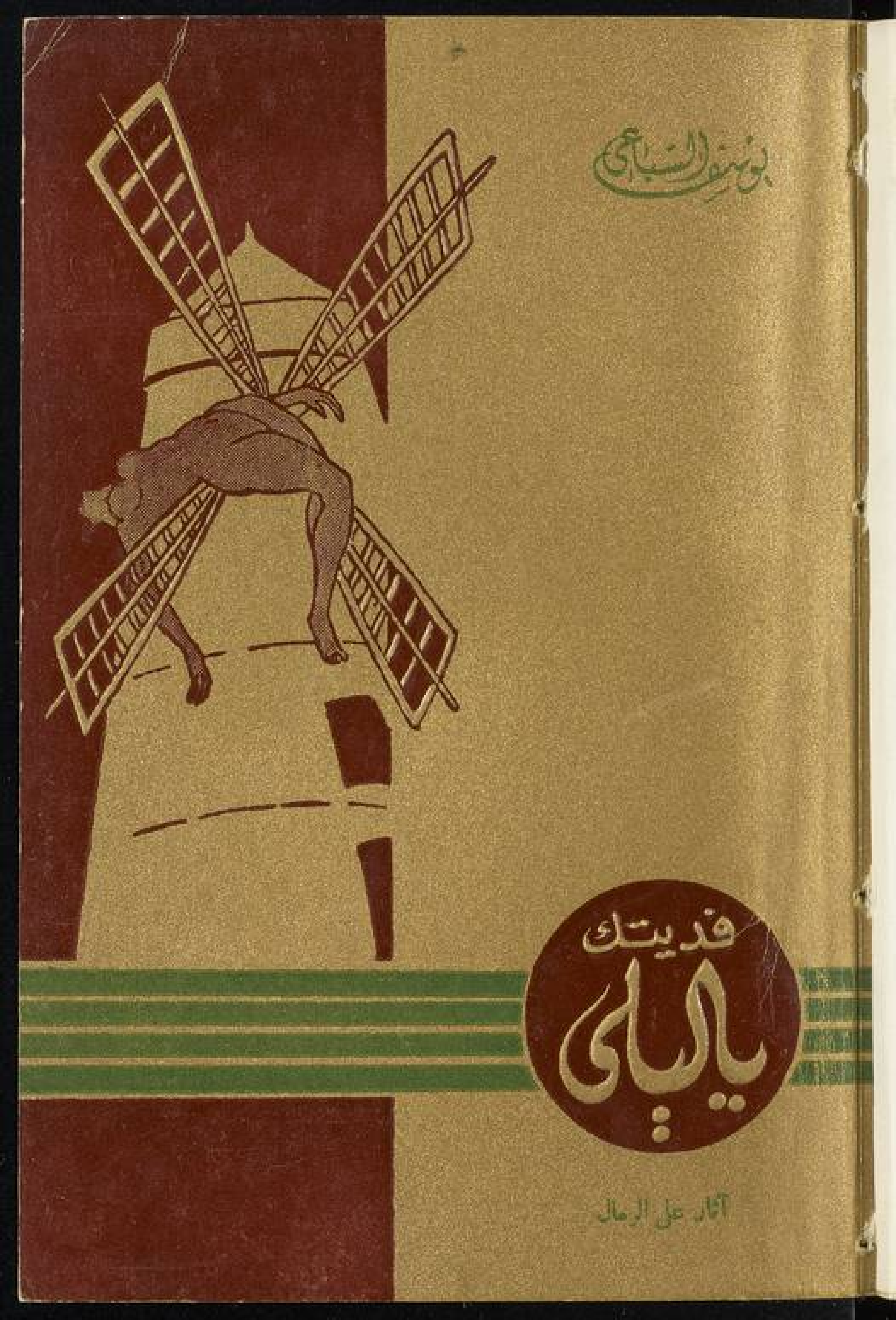
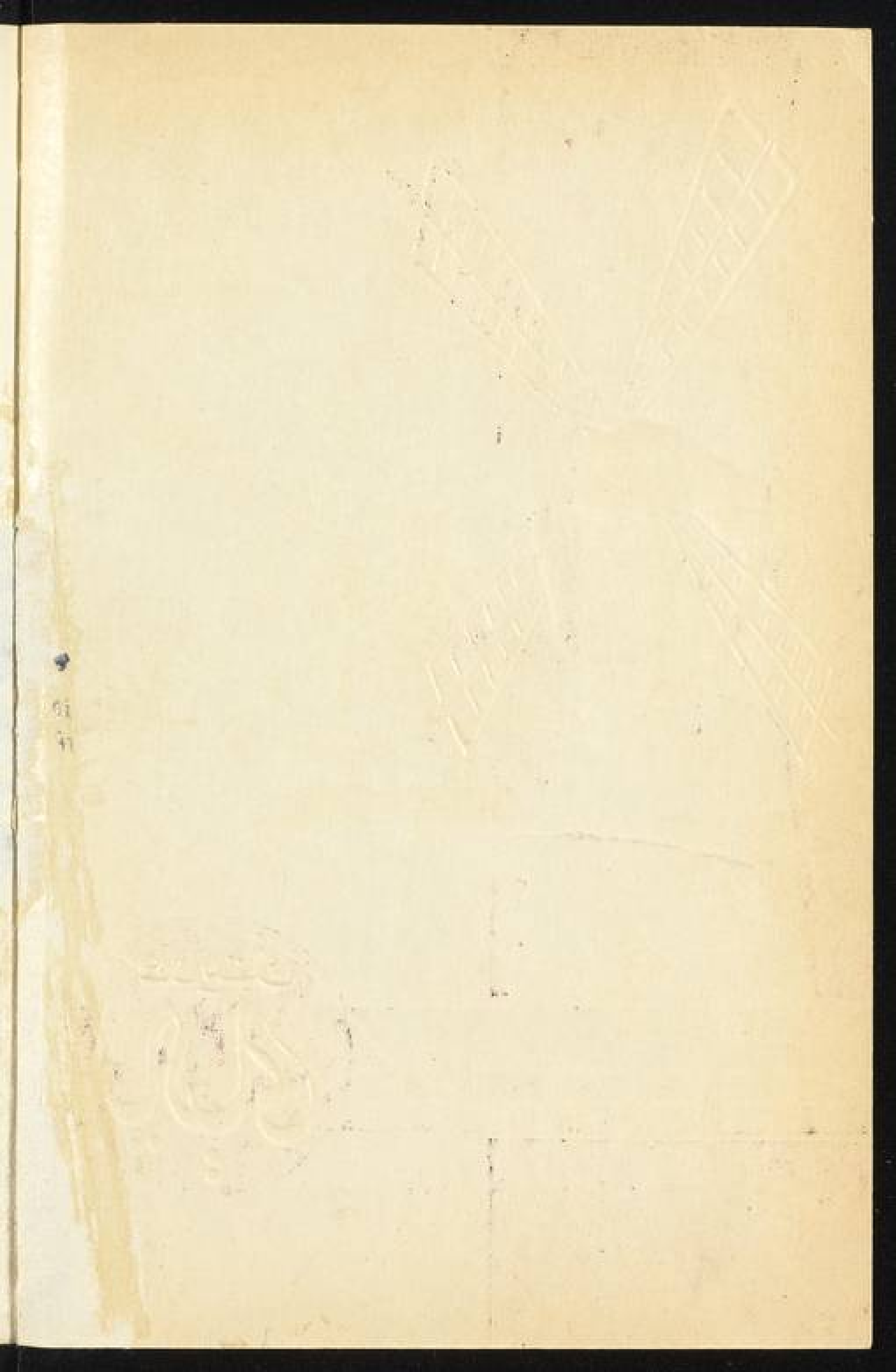








يوسف السباعي
فديتك يا ليلى
آثار على الرمال

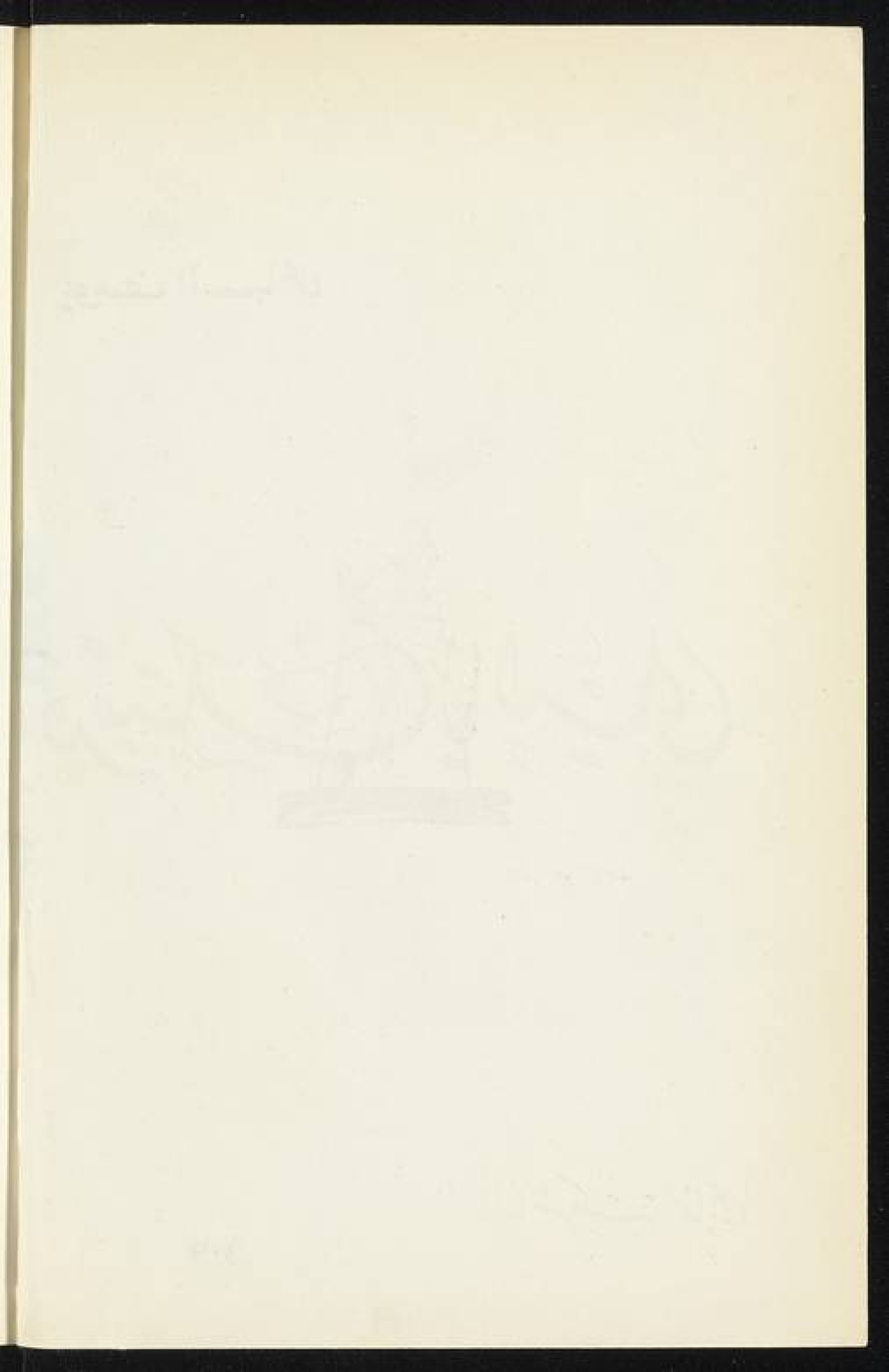






آثار على الرمال

الناشر مكتبة الخانجي



للمؤلف

أطياف ... ... الناشر مكتبة الخانجى

نائب عزرائيل ... ... » » »

اثنتا عشرة امرأة ... ... » » »

خبايا الصدور ... ... » » »

ياأمة ضحكت ... ... » » »

إثنا عشر رجلا ... ... » » »

أرض النفاق ... ... » مكتبة النهضة

فى موكب الهوى ... ... » دار الفكر العربى

من العالم المجهول ... ... » مكتبة الخانجى

هذه النفوس ... ... » دار الفكر العربى

إنى راحلة ... ... » مكتبة الخانجى

مبكى العشاق ... ... » دار الفكر العربى

بين أبو الريش وجنينة ناميش ... ... » مكتبة الخانجى

أغنيات ... ... » » »

أم رتيبة (تمثيلية) ... ... » » »

هذا هو الحب ... ... » دار الفكر العربى

صور طبق الأصل ... ... » مكتبة الخانجى

بين الأطلال ... ... » » »

السقامات... ... ... » » »

سمّار الليالى ... ... الناشر دار الفكر العربى

الشيخ زعرب ... ... » مكتبة الخانجى

نفحة من الإيمان ... ... » دار الفكر العربى

وراء الستار (تمثيلية) ... ... » نادى القصة

ست نساء وستة رجال ... ... » مكتبة الخانجى

هذه الحياة ... ... » دار الفكر العربى

البحث عن جسد ... ... » مكتبة الخانجى

جمعية قتل الزوجات (تمثيلية) ... ... » النهضة المصرية

فديتك ياليلى ... . » مكتبة الخانجى

ليلة خمر ... ... » نادى القصة

همسة غابرة ... ... » دار الفكر العربى

رد قلبى ... ... » مكتبة الخانجى

ليال ودموع ... ... » » »

الإهداء

إلى العزيز الذى لم أهد له بعد كتابا وهو أحق الأعزاء بالإهداء .

إلى قارئتى المجهولة ؛

وقارئى المجهول :

إلى صديقىْ الروح اللذينْ أوثقت الكتب عرى المحبة بيننا دون أن يرى أحدنا الآخر .

أهدى كتابى هذا .

رمز صداقة روحية خالصة .

يوسف السباعى



مقدمة

فى إحدى جلساتنا بنادى القصة جرى الحديث حول حجم الكتب وطرق الطباعة ... والمعروف أن الأستاذ توفيق الحكيم من أشد أنصار الكتب « النافشة » ذات الحروف الكبيرة والسطور القليلة والفراغ الكثير وقد قال توفيق الحكيم إن أحد أصدقائه قال له : أنت تسرقنا بهذه الحروف الكبيرة ، فقال له الحكيم : قد أسرق جيبك بالحروف الكبيرة ، ولكنى بالحروف الصغيرة سأسرق بصرك ... وسرقة الجيب قد تعوّض ولكن سرقة البصر لا تعوّض .

أذكر هذا الحديث لما أثاره بعض القراء فى رسائلهم عن ارتفاع سعر كتبى ... وهم يعترفون أن الكتب بإخراجها الحالى تستحق هذا الثمن أو أكثر ولكنهم يقولون : إنى أستطيع طبعها بحروف أصغر وعلى ورق أقل فيمكن بذلك خفض ثمنها .

أوافقهم على ذلك وأؤكد لهم أنى بهذه الطريقة لا أخفض سعرها فحسب بل أضاعف ربحى وربح الناشر ، وأن هذا الاعتراض قد أثاره وألح عليه الناشر « السيد نجيب الخانجى » قبل أن يثيروه هم ، ولكنى أصررت على طريقتى فى الطباعة والإخراج وعلى أن أضيع ربحى وربح الناشر ، وأن أرهق القارىء من أمره عسراً .

وأكبر دليل على ذلك ... هذا الكتاب الجديد الذى أقدمه إليه ... أهى سخافة ... أم عناد .. أم نوع من الجنون « وعلى قدر الهوى اختلف الجنون » لست أدرى السبب ... ولا أظن — لو كان أحد هذه الأسباب —

أنى سأعترف به بسهولة ... فما من سخيف اعترف بسخفه أو عنيد بعناده أو مجنون بجنونه .

ولكنى أجزم أنى لا أكره القارىء إلى الحد الذى يجعلنى أصرّ على إرهاقه بلا مبرر . . بل إنى على النقيض أحبه ولا أظننى رفضت إهداء كتاب من كتبي طلبه منى قارىء ما دمت أملك الكتاب ... وأجزم كذلك أنى لا أكره الناشر إلى الحد الذى أمنع عنه الربح ... وأجزم أيضا أنى لا أكره نفسى وأنى لست من السفاهة بحيث أرفض المزيد من المال .

كل ما فى الأمر أنى أحب الجمال أكثر مما أحب نفسى والقارىء والناشر.

إنى أستطيع أن أكون متواضع الخلق ، ديمقراطى التفكير والتصرف ؛ ولكنى لا أستطيع التنازل عن أرستقراطية الكتب ... ولا أستطيع أن أرى لى كتابا رث الطباعة هزيل الورق .

قولوا عنى عنيد أو سفيه أو مجنون .

وانصرفوا عن كتبي إذا أردتم . . أو إذا عجزتم عنهـــا ، ولكنى لن أخرجها أقل رونقا .

كل ما أستطيع أن أعزى به قارئى العزيز أن أعده ــ إذا أغنانى الله ــ أن أوزع كتبي مجانا ... بنفس الطباعة والورق والإخراج .

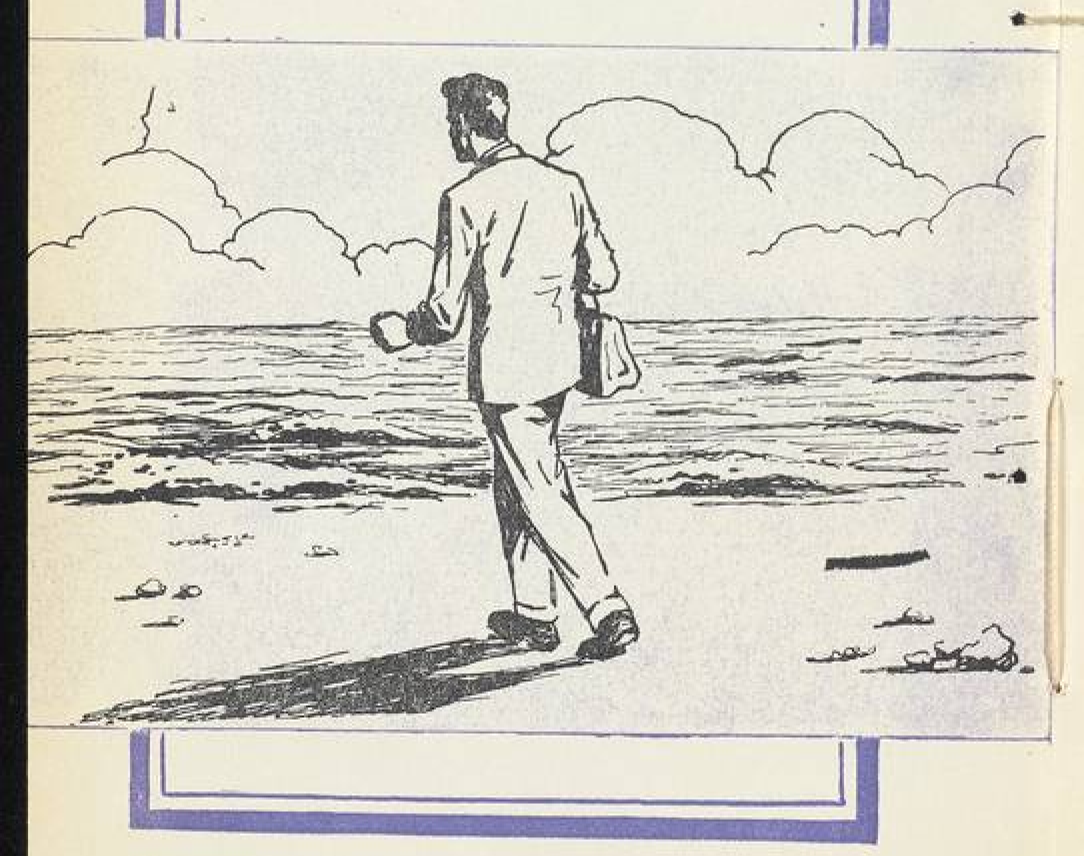
يوسف السباعى

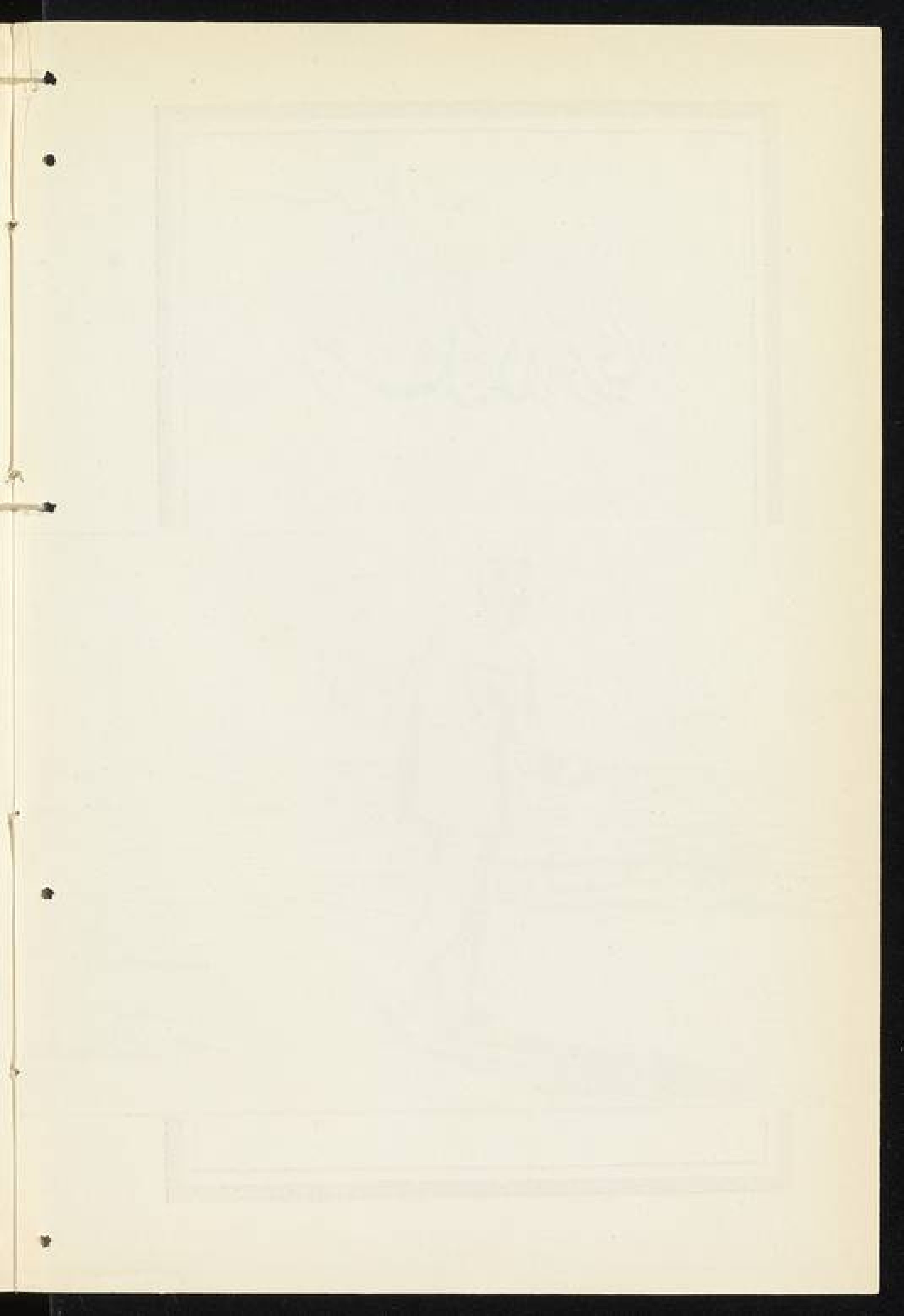
الصور بريشة الفنان

« جمال كامل »

الفصل الأول

رجل لا يدري





ضباب كثيف فى أخدود من الرمال . . كان يحاول دائماً أن يشق طريقه فيه . . وساقاه يحس بهما متثاقلتان كأنهما قد شدتا إلى الأرض بأثقال تجعل السير وئيداً عسيراً .

وهو يحاول أن يدفع نفسه إلى الأمام دفعاً لايكاد ينزع قدمه الغائصة فى الرمال الناعمة حتى يدفعها لكى تغوص فى الرمال مرة أخرى .

ورغم كل ذلك فقد كان يجاهد فى التقدم جهاد المستميت . . غير عابىء بثقل قدميه أو بلين الرمال . . كان يريد الخلاص من ذلك الضباب المتكاثف الذى يكاد يكتم أنفاسه . . وكانت به لهفة على أن يبصر ماوراء تلك الظلمات المعتمة .

إن هناك لاشك شيئاً فى نهاية ذلك الأخدود الضيق العميق . . شيئاً يريد الوصول إليه ولو بشق الأنفس . . شيئاً هاماً حيوياً يشعر أن حياته معلقة به .

ماهو ؟ . . وما كنهه ؟ . إن ذهنه لا يستطيع تحديده بالضبط . . هذه المشقة التى يعانيها وسط الرمال الثقيلة

والضباب المعتم تستغرق كل تفكيره وتستنفد كل جهده . . فتخلط عليه المرئيات ويروح منها ذهنه فى « دوامة » سريعة تمزج كل ما به وتتركه عاجزاً حائراً .

حسن . . ماعليه من بأس . . ليتقدم . . ويتقدم . . لا داعى للتفكير . . كل ما عليه هو أن يثابر على السير . . وينتزع أقدامه المثقلة بالحديد . . من الرمال المطبقة عليها فيخطو الخطوة تلو الخطوة . . فى جهد ومشقة . . وجلد واستماتة . . إنه لابد فى النهاية واصل .

ورفع يده فمسح بها قطرات تندى بها جبينه .

عرق ؟ ! ! . . أم رشاش ؟

ولكن من أين له الرشاش وسط هذه الرمال ؟ ! إنه عرق . . لشد ما أجهد نفسه فى السير . . ولكنه مع ذلك لن يتوقف .

وهكذا استمر فى السير . . . بخطا مجهدة متثاقلة . . بلا تفكير فى شىء سوى أن يبلغ النهاية ويصل إلى ذلك الشىء الذى يريد الوصول إليه .

وفجأة توقف فى مكانه .

ماهذا ؟ . . لقد سمع صرخة . . أجل . . صرخة حادة شقت مسامعه . . أتراه واهماً ؟ ! !

إنها تبدو وكأنها آتية من وراء الضباب . . مقبلة من نهاية الطريق . . وكأنه بها صادرة من ذلك الشيء الذى يجدّ فى الوصول إليه .

إنه إذاً إنسان . . بدليل أنه يصرخ . . إنه يريد الذهاب إلى إنسان .. أجل . . أجل . . رجل ؟! امرأة ؟ ! لا يذكر .

ولكن لماذا يصرخ هذا الشيء الذى فى نهاية الطريق ؟ لعله فى ضيق أو فى خطـــر ، وهو يريد أن يسعفه . إذاً فهو يعرف أنه قادم إليه . . لِمَ إذاً لا يكرر الصياح ؟ ! لِمَ لا يصيح مرة ثانية وثالثة حتى يبلغه ؟ ! أيكون عاجزاً عن الصياح ؟ ! ألا يحتمل أن يكون قد أطبق عليه الخطر ؟ ! أما يجب إذاً أن يحث الخطا إليه ؟ ! أجل . . يجب أن يسرع جاهداً . قاتل الله هذه الرمال المنهالة تحت قدميه . . إنها تعوقه عن العدو .

إلى متى هذا السـير ؟ ! وما بال الغمة لا تنقشع ، والضبـاب لا يتبدد ، والرمال لا تنقطع ! والطريق لا تبدو نهايته ؟ !

إلى متى كل هذا ؟ ! وماذا يجبره على السير . . أمن أجل صرخة فى الهواء ؟ ! وصرخة من ؟ لا يدرى ، بل ربما كانت مجرد وهم من صنع الذهن المجهد والنفس المكدودة .

أف لكل هذا ؟ يجب عليه أن يكف عن هذا السير المضنى . . يجب أن يتوقف أو يعود القهقرى . . ولكن إلى أين ؟ ! إنه لايعرف . . لايعرف شيئاً عن كل ماحوله . . لاشئ سوى هذا الأخدود الممتد من الرمال ، والضباب المحيط المتكاثف .

لا . . لا . . ليس أمامه سوى السير . . إن فيه على الأقل أملا فى شئ . . أى شئ .

آه من ذلك الشئ لو يستطيع بلوغه ! ! .

وعاود السير مرة أخرى ينقل قدميه فى أعياء ويبل شفتيه بطرف لسانه ، ويمسح بكفه قطرات العرق المتصببة من جبينه .

ومرة أخرى أحس بقدميه تتسمران فى الأرض هذه المرة لا لبس فيها ولا غموض . . . لم تكن صرخة مبهمة كالمرة السابقة . . بل كان نداء واضحاً مميزاً . . كان نداء باسمه عالياً حاداً يشق الفراغ المحيط به .

من أين أتى ؟ . . من أمامه ؟ أين نهاية الطريق ؟ .

ماذلك الشيء الذى يريد الوصول إليه ؟ . لا يستطيع أن يحدد بالضبط من أين أتى . . ولكنه مع ذلك يجزم

بسماعه . . قد يكون آتياً من أمامه . . أو . . من ورائه . .

من وراء ؟ ! !

إذاً فهناك من يناديه من وراء !

مَن ؟ . . ولمَ ؟ . . وماذا يريد منه ؟

أيطارده ؟ ربما . . إذاً فهو مطارد . . من إنسان يعدو وراءه ويلاحقه . . . إذاً فهذا الشيء كامن وراءه لا أمامه . . وهو مجد فى النأى عنه لا فى بلوغه . . فى الفرار منه لا فى اللحاق به .

ولكن لِمَ يطارده ؟ ! ماذا يبغى منه ؟

وهنا تذكر أن يده اليسرى غير خالية . . إنه يحمل بها حقيبة صغيرة . . آه . . تلك هى السبب . . إنها هى بغية المطارد . . وغرض الملاحق .

وشدّد عليها قبضته . . وأطبق عليها أصابعه . . حتى نفرت عروق يده .

لن يمكنهم منها . . لن يستطيع أحد أن يأخذها منه . . لن يجسر إنسان على الاستيلاء عليها أو فتحها . . أو معرفة ما بها .

ولكن ماذا بها ؟ لماذا يخشى عليها كل هذه الخشية ؟ .

ماذا بها ؟ . . ماذا بها ؟ ويحه ! ! إنه هو نفسه لا يعرف

ماذا بها . ليفتحها إذاً ويرى ماذا بها .

لا . . لا . . إنه لا يجسر . . إن ما بها مخيف ، مخيف جداً . . ماذا بها ؟ . إنه يعرف . . لعن الله هذا الذهن المضطرب والذاكرة المشوشة .

آه . . لقد تذكر .

اللئام . . السفلة . . إنهم يريدون ما بها . . لكى يودوا به . . ويقضوا عليه .

إن بها مستند أدانته . . بها أدلة جنايته . . أدلة حاسمة لا تقبل شكا ولا نقضاً . . بها آثار الجريمة . . وأكثر من هذا . . بها السلاح الذى قتل به ضحيته .

إنه قاتل . . هارب يمعن فى الابتعاد عن جريمته وعن مطارديه . . حاملا معه آثاره وسلاحه .

ولكن لِمَ لا يقذف بها ويتخلص منها ؟ ! لِمَ يلصقها بنفسه . . ويقيمها شاهداً على كل ما فعل ؟ !

ارمها بعيداً . . أيها الأحمق .

لا . . لا . . إنه لا يستطيع . . إن أصابعه تزداد بها تشبثاً وعليها إطباقاً . . أتراه يخشى أن يعثروا عليها ، ويعرفوا ما بها ؟ ! ربما . . ولكن هناك دافعاً أقوى من هذا يدفعه

إلى التشبث بها . . إنه يريدها لنفسه . . إنه يحس أنها جزء منه .

ولكن فيم وقوفه هكذا والمطارد لابد فى أعقابه ؟ ! اِجر . . اِجر . . تقدم . . تقدم . . انج بنفسك . . وفر من أمامه .

ومرة أخرى عاود السير فى استماتة واستيئاس .

كان يتحرك بالقوة الدافعة من خلفه . . قوة الخشية والخوف والرغبة فى الفرار ، بعد أن كان يتحرك بالقوة الجاذبة من أمامه . . قوة اللهفة والشوق والرغبة فى الوصول .

وعادت قدماه تدفعان فى الرمال وتنزعان منها . . وشمل الضباب المحيط ذهنه كما شمل جسده .. ولم يعد يفكر فى غير شئ واحد . . السير . . السير إلى الأمام . . السير قدماً .

وأخيراً بدا له أنه قد وصل .

وصل ؟ . . إلى أين ؟ أنسى أنه مطارد هارب ؟ ! وأن غرضه من هذا السير المنهك الشاق . . ليس الوصول إلى شئ . . بل الفرار من شئ ؟ !

ولكنه مع ذلك يعتقد أنه قد وصل . . إن هناك

أصواتاً تناديه .. أصواتاً رقيقة ناعمة .. والضباب يوشك أن ينقشع .. والرمال تزداد صـــلابة تحت قدميه .. وساقيه تشتدان والأثقال المعلقة بهما تخف شيئاً فشيئاً .. والرياح تهب حاملة فى طياتها نسمات رطبة ندية تبدد بها الضبـاب المخيم .

أجل .. إنه يوشك أن يصل .. إنه ليس بهارب ولا قاتل .. يجب أن يجد فى السير .. لا خوفاً مما وراءه .. بل رغبة فيما أمامه .

وانطلق يعدو .. والأصوات المنبعثة من نهاية الطريق تزداد وضوحاً .. إنهـا تهتف باسمه .. راجية مستعطفة .. ذائبة .

إنها تناديه فى شوق ولهفة .. وهو أيضاً يحس لها ذلك الشوق وتلك اللهفة .. لِيَعْدُ .. لِيَعْدُ .. إنه يوشك أن يبلغها .

إن الأصوات تزداد وضوحاً .. إنها تعلو .. تعلو .. ولم يعد هتافها رجاء واستعطافاً ، بل أضحى استغاثة واستنجاداً . اقترب .. اقترب .. إنها تريدك .. وإنها فى حاجة إليك .. أغثها .. أدركها .

إنه آت .. آت .. إنه يسابق الريح .. لحظة واحـدة

ويصل إليها . . إن قوة خارقة تدفعه . . إنه لم يعد يحس بالرمال ولا بقدميه على الرمال . . إنه لم يعد يجرى . . وإنما يطير . . ليس له أقدام ، بل أجنحة . . ولم يعد يحس إلا بالريح تلفح وجهه .

لحظات بعدها يصل . . ثوان . . بل أقل .

إنه آت . . آت .

وفجأة . . وبعد أن قارب الوصول . . وبعد أن كادت الرمال تنتهى والضباب ينقشع والنهاية تبدو . . أحس بموجة رملية جبارة عاتية تبرز له فجأة كالمارد فتنقض عليه . . وتصدمه صدمة عنيفة . . فيحاول المقاومة . . ولا تلبث موجة أخرى أن تتلوها . . ثانية وثالثة . . وإذا صراعه مع الرمال قد أضحى صراعاً مع الموج . . وثقل الساقين قد أصاب الجسد كله . . ولم يعد يفيده فى قهر الموجة ضرب ذراعيه ولا قرع ساقيه .. بل وجد نفسه يعلو بين براثن الموج فى عنف ويهبط فى شدة . . وأنفاسه تتلاحق . . حتى يوشك أن يختنق .

والأصوات ما زالت تصيح به . . مستنجدة مستغيثة . . وهى تتباعد وراء الموج . . ضائعة بين صخبه ، متبددة فى

ضجيجه . . وقد أخذت تخفت شيئاً فشيئـــاً . . حتى صمتت تماماً .

وأخيراً بدأت الأنواء تهبط وتنبسط . . وتوالت عليه بخفة الموجة تلو الموجة . . وتضاءل الصراع وهدأ . . وأضحت الرجات العنيفة من أسفل إلى أعلى بين طيـــات الأمواج العاتية . . هزّات خفيفة لينة . . وتملكه استرخاء المستلق فى راحة عقب جهد عنيف . . ولم يعد يحس من الصراع والضجة إلا بلمسات الموج المنتظمة تتوالى عليـه فى رقة بين آونة وأخرى وكـأنها جنـاح الطائر يمسه فى رفق .

ومضت برهة وهو من حاله تلك فى راحة تشبه الغيبوبة ، لا يكاد يحس إلا بالهزّة المنتظمة والمسة المتواترة .

أجل . . استمرت الهـزّة . . وتوالت المسة . . ولـكن لا من موج سائر ولا من جناح طائر . . بل من أشياء أثبت وأكثر صلابة . . أشياء ملموسة محدودة . . غير مبهمة ولا مشوشة ، ولا مضطربة ولا موهومة .

لقد أضحت هزّة الموج هزّة مقعد وثير جلس عليـه مسترخياً بجوار نافذة . . وأضحت مسة جناح الطائر المتوالية المنتظمة أشياء تمر من وراء زجاج النافذة مروراً خاطفاً

لاتكاد تقبل حتى تذهب ، ولا تكاد تظهر حتى تختفى .

إنها أشياء متحركة . . أشبه بالقوائم أو الأعمدة . . بل إنها أعمدة فعلا . . أعمدة « تلغراف » . . أو جذوع شجر . . أو خليط من هذا وذاك .

ولكن ما الذى يحركها ؟ !

ويحه ! ! ما أغباه ! ! إنه هو الذى يتحرك . . أو هو الذى يجلس فى شئ متحرك . . أجل . . أجل . . هذا الحيز المحدود والمقاعد المتراصة ، والنوافذ الزجاجية ، والرفوف الشبكية ذات الحقائب لا بد أن تكون فى عربة قطار .

وبدأ الصفير يتصاعد حاداً من القاطرة أشبه بصرخات الاستغاثة .

إذاً فهو على سفر . . وكل ما مر به لا يعدو أن يكون أضغاث أحلام . ولكن لماذا السفر ؟ إلى أين ؟ ومن أين ؟

أهو متجه إلى شئ . . أم هارب من شئ ؟ !

مرة ثانية لا يدرى . . تماماً كما كان لا يدرى وهو يعدو فى الرمال الثقيلة والضباب المعتم . . إلى أين ؟ ! ومن أين ؟

لايدرى . . لايدرى .

بل إنه لا يدرى الفاصل بين الحلم والحقيقة . . واليقظة والغفوة . . إن كل ما فى ذهنه مبهم مشوش مضطرب .

أين الأحلام من اليقظة ! وأين اليقظة من الأحلام ! ! متى يكون فى حلم ، ومتى يكون يقظانا ؟ ! من هو ؟ ! وماذا يريد ؟ إلى أين يذهب ؟ ! ومن أين أتى ؟

إنه لايدرى . . لايدرى .

كل ما يدريه عن نفسه . . هو أنه لايدرى شيئاً ، ولا يحس بشئ . . إلا ذلك الحزن المبهم والخوف الغامض .

وبحركة لا إرادية أطبق قبضته اليسرى بشدة وعنف .

وأحس بشئ من الطمأنينة وهو يجد الشئ الذى أطبق عليه بيده مازال موجوداً . . أجل . . كانت الحقيبة ما زالت فى موضعها .

حمداً لله . . لن يستطيعوا أخذها منه . . ولن يستطيعوا رؤية ما بها . . إنه يريدها . . ويخشى مما بها .

إن بها حياته . . وفيها حتفه .

أهو قاتل حقاً ؟ ! من قتل ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ . . يجب

عليه أن يهرب . . يجب أن يعدو . . يعدو . . بدل أن يجلس هكذا مسترخياً متخاذلا .

ومرة أخرى أحس أنه يوشك أن يخوض أخدود الرمال . . ويغرق فى أمواج الضباب . . عند ما وجد يداً تربت ساقه برفق . . وسمع صوتاً رقيقاً بجواره يقول له :

ـ لقد وصلنا . . إن القطار يدخل المحطة . . . هيا بنا .

وجذبه الصوت مما أوشك أن يهوى إليه . . وتلفت إلى مصدره فوجد رجلا يجلس بجواره . . ميّز فيه ذلك الوجه الباسم اللطيف الذى رافقه من أول السفر . . والذى رافقه أيضاً قبل هذا . . بل يذكر أنه يرافقه دائماً أينما حل .

إنه مطمئن إليه . . فوجهه يوحى بالثقة والطمأنينة . . وقد تذكر أنه قال له أنه صاحبه . . صاحبه ؟ ! مَن ؟ ! . . لقد نسى الاسم . . كما نسى كل شىء . . ولقد حاول أن يذكره بأشياء لم يستطع أن يذكرها .

لايهم كل هذا . . المهم . . هو أن هذا الرفيق . . مبعث أمن وطمأنينة . . ولا يبدو منه ضير ولا خطر . . وليس

هناك ضرر فى أن يستمع إليه ويتبعه ما دام هو نفسه لايدرى . . إلى أين يذهب . . ولا ماذا يفعل .

فقط . . يجب أن يحرص على شىء واحد . . وهو الحقيبة !

يجب أن يطبق عليها جيداً . . يجب ألا يغفل عنها أبداً . . يجب ألا يسمح لأحد — أياً كان — أن يمسها أو يحاول فتحها أو الاستيلاء عليها .

وعاد يشدد القبض عليها وهو ينهض متبعاً صاحبه . . وخرجا من باب الديوان الذى كانا يجلسان فيه والذى قد خلا إلا منهما . . ودلفا من الممر الضيق حتى وصلا إلى باب العربة ثم هبطا إلى الرصيف وسارا بين الجموع المتحركة إلى خارج المحطة . . وعبرا الباب الذى وقف عليه عامل التذاكر . وفى الخارج دلفا إلى إحدى عربات الأجرة . . وصاح صاحبه بالسائق :

— شارع ماسبيرو .

تحركت العربة ومال هو إلى الوراء متكئاً بظهره على ظهر المقعد وأطلق تنهيدة تحمل بعض الراحة والطمأنينة . . لقد كان فعلا يحس أنه أكثر طمأنينة وهو فى العربة منه وهو سائر فى فناء المحطة وسط الجموع المتحركة وبين صياح

باعة الصحف والحمالين . لقد كان المنظر مألوفاً لديه ، ولكنه مع ذلك كان يشعر منه بكثير من قلق وخشية .

هذا الزحام ، وتلك الصيحات والنداءات كانت تخيفه وتقلقه . . كان يخشى أن يتسلل نحوه أحد هؤلاء المحيطين به فيخطف الحقيبة ويعدو بين الناس فاضحاً أمره . . ولكن ماشأن الناس به ؟ وبحقيبته ؟

من يدرى . . ربما كان أحدهم يعرف .

يعرف ماذا ؟

يعرف أنه قاتل .

قاتل ؟ . . أهو قاتل حقاً ؟

أجل . . أجل . . إنه قاتل . . إنه يحس بعبء جريمته يثقل على روحه ويطبق على أنفاسه .

ولكن ليس هناك من يعرف جريمته غيره . . أو على الأقل هذا هو مايخيل إليه . . ليس هناك من يتهمه بشئ . . كل من حوله ينظرون إليه نظرة طبيعية جداً . . أو على الأقل هذا هو مايبدو منهم .

صاحبه مثلا . . هذا المخلوق الرقيق الجالس بجواره . . إنه يعامله معاملة إنسان شريف مهذب . . وليس بمجرم ولا قاتل .

إنه قطعاً . . لايدرى .

أم هو نفسه الذى لايدرى ؟

من يدرى ؟ ! .

يدرى ! ! لا يدرى ! ! تلك هى مصيبته . . هـذا الذهن المشوش المضطرب . . والنفس الضالة الحائرة . . الخائضة فى أخدود الرمال . . التائهة وسط الضباب . . الغريقة بين الأمواج . . المثقلة بالشعور بالوزر . . المذعورة . . الخائفة الوجلة . . التى لا يقر لها قرار . . والتى لا تفتأ تعدو أبداً . . هاربة من مجهول . . متلهفة على مجهول .

أنَّى له أن يدرى شيئاً . . بعد كل هذا ! ؟

ولكن أخير له أن يدرى . . أم يظل متخبطاً فى دياجيره تلك ؟ ! لا . . لايجب أن يدرى شيئاً .

هذا الشخص الجالس بجواره مثلا قد أنبأه أنه صاحب قديم له ، عزيز عليه . . ومع ذلك هو لا يذكره . . أبداً . . ولقد أنبأه باسمه . . فنسيه . . كيف يخاطبه الآن ؟ !

لاضرورة لمخاطبته . . إن أفضل شئ له أن يلوذ بأهداب الصمت . . هذا هو آمن الطرق . . إن خير ما يستر به حاله . . هو ألا يتكلم . . لا داعى لأن يدرى شيئاً . .

يكفى أنه جالس فى أمان ، ويكفى أن تكون قبضته مشددة على الحقيبة .

وعاد يضم الحقيبة إليه جيداً ، ويشدد عليها قبضته .

وكانت السيارة تشق طريقها فى شارع الملكة . . وكان الوقت قبيل الغروب ووقفها المرور عند تقاطع شارع فؤاد بجوار مبنى الاسعاف .

وتلفت حوله يستطلع جلية الأمر . . فيم وقفها ؟ . . وما هذه العربات المتكاثرة حولها ؟ ! لماذا لايسيرون ؟ ! هل هناك شيئاً ؟ !

وعاودت العربة سيرها . . هذا الطريق يعرفه جيداً . . لقد سبق له أن مرّ به فيما مضى . . متى ؟ . . لايذكر . . ولكنه يعرف هذه المبانى ، وهذه الحوانيت . . هذا الجامع القائم على يمينه ليس بغريب عليه . . لا . . ولا هذه المدخنة السوداء العالية . . ودارت العربة جهة اليمين فى طريق أفضى إلى ساحة واسعة تشقها بضعة خطوط ترام وتقوم فى زاوية منها كنيسة ضخمة تعلوها القباب والأبراج . . هبطت الشمس من ورائها فصبغت قممها بلون الأرجوان .

هذا المنظر أيضاً ليس بغريب على ناظريه . . إنه يستطيع

أن يجزم بأنها ليست المرة الأولى التي يمر فيها بهذا المكان . . ولكن متى كانت المرة الأولى . . منذ بعيد . . أم قريب ؟ ! لا شك منـــذ بعيد جداً . . فالصورة فى ذهنه شاحبة باهتة .

وزاد انحراف السيارة يميناً وعبرت الساحة سائرة فى طريق قامت المبانى على يمينه ، وعلى يساره امتد سور حجرى منخفض حجز الطريق عن شاطىء النهر ، ومن ورائه من خلال الأشجار المتدلية فروعها . . بدت مياه النهر تترقرق متألقة فى أشعة الشمس الهابطة .

واستراحت نفسه إلى المنظر الجميل المرسوم أمامه . . واستغرق فى تأمله ، ولكنه لم يلبث حتى أفاق على صوت رفيقه يصيح بالسائق :

— يمينك . . عند الباب القادم .

ووقفت العربة وهبط صاحبه فنقد السائق أجره ، ولم يجد بداً من الهبوط وراءه ، وسارت العربة ، ووقف الاثنان فى مدخل عمارة ، ورفع صاحبه بصره إلى أعلى ، ثم تلفت حوله كمن يبحث عن شئ .

عمن يبحث صاحبه ؟ . إنه لا يبدو على معرفة جيدة بالمكان فهو يتلفت تلفت الباحث الحائر .

ترى إلى أين هما ذاهبان ؟

إنه بالطبع لا يدرى . . كما لا يدرى دائماً أى شىء عن كل شىء .

ولكن هذه المرة . . أليس من حقه أن يدرى ؟ !

إذا كان لم يدر فيما سبق . . أليس من الواجب أن يدرى الآن ؟ !

أجل . . أجل . . لا بد أن يعرف إلى أين يذهب به صاحبه . . هذا أقل ما يجب معرفته .

وتقدم من صاحبه وقد رسم على شفتيه بسمة هادئة وسأله متأدباً :

– إلى أين نحن ذاهبان ؟

ومدّ صاحبه يده متأبطاً بها ذراعه فى ود وصداقة ، وقال كأنما يذكره :

– إلى الدكتور محمود . . محمود توفيق .

الدكتور ؟ ! ! الدكتور محمود توفيق ؟ ! ! من هو ؟

إن صاحبه يذكره كأنما هو شخص معروف لديه . . وكأن حضورهما إليه كان أمراً معروفاً سبق الاتفاق عليه .

ليس أمامه سوى الموافقة . . لا داعى للمناقشة البتة . .

هذه أشياء تبدو كأنه يجب أن يعرفها .. ومصيبته أنه لا يعرف ما يجب أن يعرفه مما لا غبار على عدم معرفته .. إنه لا يعرف شيئاً أبداً .. ولذا فمن الخير أن يوافق فى هدوء ويسر .. وأن يقنع من الفهم والمعرفة بالصمت والسكوت .

وفى تلك اللحظة بدا « بواب » نوبى بجلباب أبيض ولفافة رأس بيضاء ، فأشار إليه صاحبه متسائلا :

— الدكتور توفيق فى أى دور ؟

— الدور الخامس شقة نمرة ٢٧ .

وتقدم البواب إلى المصعد ففتحه وتبعه الإثنان فدخلا المصعد .

الدكتور توفيق ؟ .. من هو ؟ ولماذا يذهبان إليه ؟ لعل بصاحبه علة .. لأنه هو نفسه لا يشكو من شىء .

وماله هو يتجشم كل هذه المشقة .. ما دام الأمر لا يعنيه ؟ إنها مسألة صداقة .. على أية حال لا ضير عليه من مرافقة صاحبه .

ووقف المصعد ، وفتح صاحبه الباب .. ثم عبرا ممراً ضيقاً إلى باب مفتوح علقت عليه لافتة صغيرة زجاجية كتب

عليها « دكتور محمود توفيق أخصائى الأمراض النفسانية » وفى صمت دلف صاحبه إلى الداخل .

أمراض نفسانية ؟ !

ويحه . . من منهما المصاب ؟ ! هو أم صاحبه ؟ !

هو الغريق التائه الشارد الذاهل الذى لا يذكر ولا يدرى ! أم صاحبه الذى قاده وتولى أمره حتى الآن ؟ ! حمداً لله . . إنه لم يسأله شيئاً حتى لا يفضح نفسه .

إنه يذكر الآن أنهما قد قاما برحلتهما هذه فى سبيل الذهاب إلى هذا الطبيب . . من أجله هو . . هو الضائع أبداً فى غيبوبة من الرمال والأمواج . . هو الذى لا ينام ولا يستيقظ . . الذى لا يفرق بين السبات والصحو ، بل يحيا فى خليط من هـذا وذاك . . شىء واحد هو الذى يجده ملموساً مجسداً فى سباته ويقظته . . هو هذه الحقيبة التى يشدد عليها قبضته ، والذى يشعر أن فيها حتفه ، ومنها حياته .

واستقبلهما رجل يرتدى معطفاً أبيض قادهما إلى صالة رصت بها بعض المقاعد والأرائك ، وبدا فى مواجهتها باب متسع يفضى إلى شرفة تطل على شارع « ماسبيرو » الموصل بين طريق الملكة و « كوبرى أبو العلا » .

وسألهما الرجل الانتظار حتى ينتهى الطبيب من زائر لديه .

ووقفا برهة يدوران ببصريهما بين الصور المعلقة فى الحائط ثم سأله صاحبه :

— أننتظر هنا أم فى الشرفة ؟

وتجاوز ببصره باب الشرفة ورنا إلى الأفق البعيد حيث الماء المنبسط فى رجرجة خفيفة متألقة وقد اختلط لونه البنى بلون الشمس الهابطة الذهبية الأرجوانية ، ولم يكن هناك وجه للموازنة بعد هذا بين الصالة والشرفة ، فقد أخذ المنظر بألبابه ، وأجاب صاحبه فى شبه رجاء :

— الشرفة أفضل .

وتقدما إلى الشرفة وجلس كل منهما فى مقعد مريح من القش . . وعند ما اطمأن إلى سلامة الحقيبة فى يده رنا ببصره وراء سور الشرفة الحديدى مطلقاً تنهيدة راحة .

كان المنظر رائعاً حتماً . . الطريق لا يبدو منه إلا حافة ضيقة من الرصيف العريض الأقرب للشاطىء وقد صفت عليه أشجار الفيكس العريضة الورق ، الداكنة الخضرة ، المطلقة الفروع ، بلا تشذيب حتى لتكاد تتشابك وتتعانق . وقد بدا وراء جذوعها السور الحجرى المنتظم الواطىء .

ويلى الشجر والسور صفحة النهر العريض المنساب فى رفق . . المنبسط فى عنفوان وتؤدة . . وفى الناحية اليسرى بدت الكنيسة ذات القباب التى ينتهى عندها امتداد الطريق بجوار النهر ويبدأ انحرافه حولها . . وعلى النهر نفسه بدا كوبرى قصر النيل ، وعلى وجه أدق ، طرفه البعيد . . إذ حجب الطرف القريب الثكنات الحمراء والكنيسة البيضاء ، وفى الناحية اليمنى بدا «كوبرى أبو العلا» تنساب العربات والترام أسفل الهيكل الحديدى الممتد فوقه . . وفى الناحية الأخرى من الشاطىء بدا خليط من الفيكس والبانسيانس والجوكوراندا قامت وراءها فى الناحية اليمنى العمارات العالية على الجانب الآخر من الطريق . . وفى الوسط انبسطت ساحة السباق وملاعب البولو فى نادى الجزيرة ، وبعض الأبنية الصغيرة المشيدة فيه ، وفى الناحية اليسرى بدا المتنزه القائم على حافة النيل وفى وسطه الجامع بمئذنته العالية الشماء .

وظل يقلب بصره بين الأشجار والمساحات الخضر ومئذنة الجامع وقباب الكنيسة ، حتى استقر أخيراً فوق صفحة الماء المنبسطة إلا من تجعدات خفيفة تحدثها هبات النسيم .

وتعلق بصره فى التجعدات التى بدت كأمواج رقيقة ناعمة، وبدأ يحس أن التجعدات البادية على صفحة الماء قد أخذت تزداد شيئاً فشيئاً ، وأن النسمة الرقيقة التى كانت تهب على صفحة الماء أخذت تشتد وتقوى .

وبدأ النسيم يصفر حتى أضحى ريحاً . . والتجعدات تعلو فتصبح موجاً . . والصياح يتعالى من وراء الموج حتى صار هديراً وزئيراً .

وزادت قبضته ضغطاً على يد الحقيبة .

مرة أخرى بدأ الصراع . . إنهم لا شك يريدون الحقيبة ، يريدون أن يعرفوا ما بها ليوقعوا به . . وارتفعت موجة عاتية فلطمته لطمة شديدة . . كان عليه فى هذه المرة أن يفر إلى الشاطئ . . إن المسألة ليست بالهينة ، بل تحتاج إلى جهد شديد . . هيا . . لا تنى ولا تكل . . ضع قدميك على الشاطئ . . أجل . . هكذا . . أمسك الرمال بكلتا يديك . . لا . . لا بل بيد واحدة . . إياك أن تفلت الحقيبة ! ها قد وصلت . . الرمال ثقيلة . . والضباب على الشاطئ معتم . ولكن عليك أن تسير ، عليك أن تعدو . . اعد . . أسرع . . لاتقف . . انزع قدميك .

☆ ☆ ☆

ودخل الممرّض « التومرجى » إلى الشرفة وقال داعياً الزائرين :

ـ تفضلا .

وتلفت صاحبه إليه وقال فى رقة وفى شبه اعتذار :

ـ أظن من الأفضل أن تنتظرنى . . سأحدثه برهة ثم أدعوك .

لم يجبه بكلمة ، فقد كان منهمكا فى العدو ، كان يعدو فى الرمال والضباب هارباً من شىء ، متلهفاً على شىء . . كان لا يكاد يشعر بما حوله ، لا يرغب فى أكثر من أن يتركوه وصمت لا يحدث أحد ، ولا يحدثه أحد .

وتبع صاحبه « التومرجى » إلى حجرة الطبيب ، فعبرا الصالة إلى ممر ضيق أفضى بهما إلى باب على يمينه طرقه « التومرجى » وسمع نداء رقيقاً يعلو من ورائه :

ـ تفضل .

ودفع « التومرجى » الباب وأدخل الرجل ، ثم أغلق الباب وراءه .

ومن خلف مكتب صغير نهض الطبيب يستقبله مرحباً وهزّ يده فى حرارة قائلا :

ـ أهلا وسهلا دكتور زكى .

ـــ أهلا بك . . كيف الحال ؟ ! مضت مدة لم نتقابل ؟

ـــ سنتان على الأقل .

ـــ كانت آخر مرة رأيتك فيها فى محاضرة الدكتور نصيف فى دار الحكمة .

ـــ أجل . . أجل . . وأظننا تقابلنا بعـــد ذلك فى الأوبرا .

ـــ كانت مقابلة خاطفة لا تحتسب .

ـــ تفضل . . اجلس . . خيراً إن شاء الله . . أى ريح طيبة دفعت بك إلينا ؟ !

ـــ ليست طيبة تماماً . . إنها عاصفة بعض الشيء ، هذه أول مرة أحضر لك هنا . . عيادة لطيفة ، أنيقة ، وواجهة تشرف على منظر لطيف . . ولكن يبدو أن موقعها ليس « سقع » .

ـــ لا ضرورة للموقع « السقع » . . المهم . . الزبون « السقع » . . نحن لنا زبائننا الذين يبحثون عنا يا سيد زكى .

ـــ الحال رائجة إذاً ؟ !

ـــ جداً . . رزق الهبل ـــ كما يقولون ـــ على المجانين . . إنى لم أحاول من قبل . . الاعتراف بطب النفس ، ولم

يخطر لى على بال قط . . أن أطلب من أحد أخصائيه معونة جدية .

– على كل حال نحن فى الخدمة . . وعلى استعداد لتقديم كل معونة .

– متشكر جداً . . هذا ما كنت أنتظره .

– خير إن شاء الله . . ماذا بك ؟

– بى أنا ؟ !

ولم يتمالك نفسه أن أطلق ضحكة خافتة قصيرة :

– لست أنا هذه المرة . . قد أحتاج إليك فى المرة القادمة .

ثم صمت برهة وأردف قائلا :

– إنه صديق عزيز لدىّ . . عزيز كأخ . . أو أكثر من أخ .

– وأين هو ؟

– إنه يجلس فى الشرفة . . لقد بدا لى من الخير أن أراك أولا على حدة ، وأن أحدثك عن كل ما أعرف ، مما أجد حرجاً فى سرده أمامه ، وأحذرك من بعض مايجب الحذر منه ، حتى لاتضايقه عن غير قصد .

وضحك الدكتور توفيق وأجاب مطمئناً :

— نحن لانضايق هنا أحداً . . إن عملنا هو أن نذهب الضيق ، وأن نريح المريض .

— أنا أعرف ذلك . . ولقد قلت إنك قد تفعل مايضايقه عن غير قصد .

— لا عن قصد ، ولا عن غير قصد .

— الظاهر أنك تريد أن تضايقنى أنا عن قصد .

وضحك توفيق وأجاب :

— أتمم حديثك ، لن أضايقك بعد هذا .

— قلت إنى فضلت أن أراك على حدة حتى أسرد لك المسألة برمتها ، وأذكر رأيى كطبيب باطنى حاولت علاجه وأجريت عليه كشفاً تاماً ، وفحصته فحصاً دقيقاً .

— وماذا وجدت به ؟

— لا شيء . . لا شيء أبداً . . سليم أربعة وعشرون قيراطاً ، النبض منتظم ، والحرارة طبيعية . . والضغط عادى والقلب سليم . . و . . . و . . الخ .

— إذاً مم يشكو ؟

— هو نفسه لا يشكو من شيء . . ولا يتحدث عن شيء .

ـ إذاً ماذا به ؟

ـ ماذا به ؟

وأطرق برأسه برهة ثم أردف قائلا :

ـ إنه دائم الذهول والشرود . . دائم الصمت والفكر يبدو كأنه يهبط فى أغوار عميقة بين آونة وأخرى . . أو يظل فى غيبوبة تنأى به بعيداً عنا وعلى وجهه سيماء . . . . !

وقاطعه توفيق متسائلا :

ـ هل تعوّد تعاطى أى نوع من أنواع المخدرات ؟

ونفى زكى السؤال بشدة وبطريقة جازمة :

ـ لا . . لا . . ليس هو ذلك الشخص . . إنه لم يدخن فى حياته سيجارة واحدة . . إنه مخلوق مثالى . . إنى أعرفه تماماً كما أعرف نفسى . . ولا شك أنك تعرفه أنت أيضاً . . أو على الأقل تعرف اسمه . . إنه إبراهيم محسن الموسيقار المعروف .

ـ إبراهيم محسن ؟ ! طبعاً أعرفه . . إنى معجب جداً بموسيقاه . . بل إنى لا أكاد أقدر أحداً من الموسيقيين الشرقيين سواه . . إنى أعتقد أنه مخلوق مرهف حساس . .

ولا شك أنه قد أصيب بصدمة عنيفة .

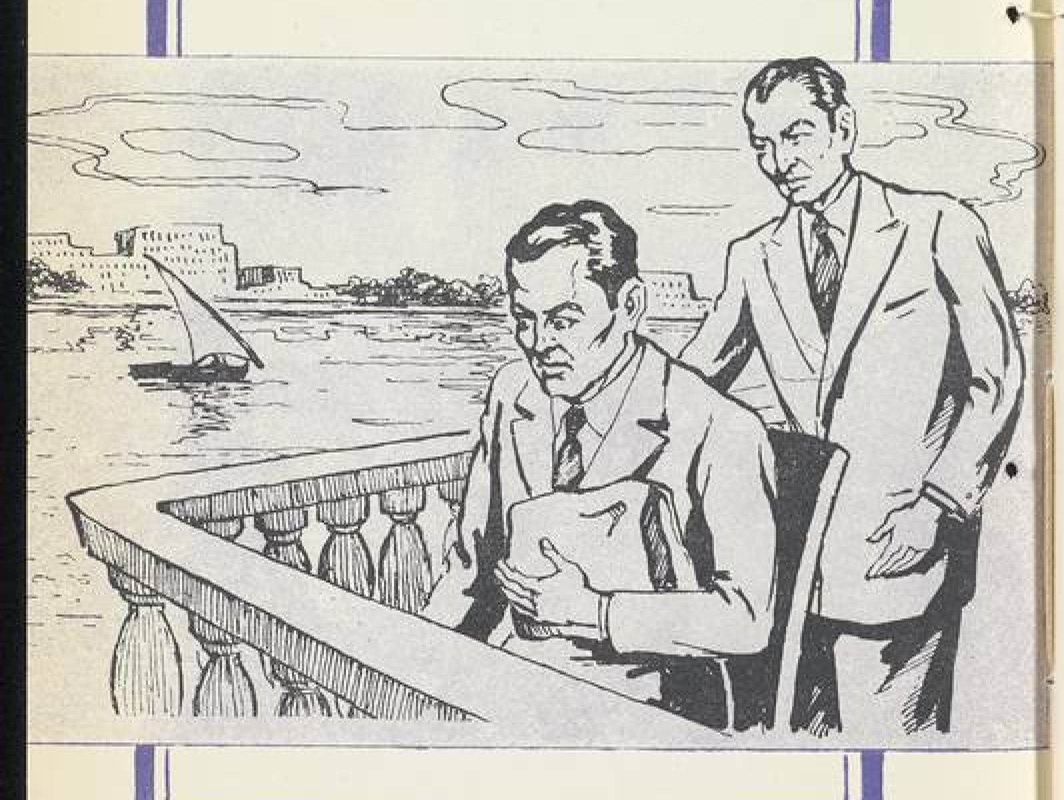
– ربما . . ولكن لا أحد يدرى عنها شيئاً إلا هو . . وهو ذاهل شارد لا يعى ولا يذكر ولا يتكلم . . أظن من الخير أن أقص عليك ما أعرفه عنه . . وما استطعت أن أحصل عليه من معلومات مما أدى إلى حالته تلك .

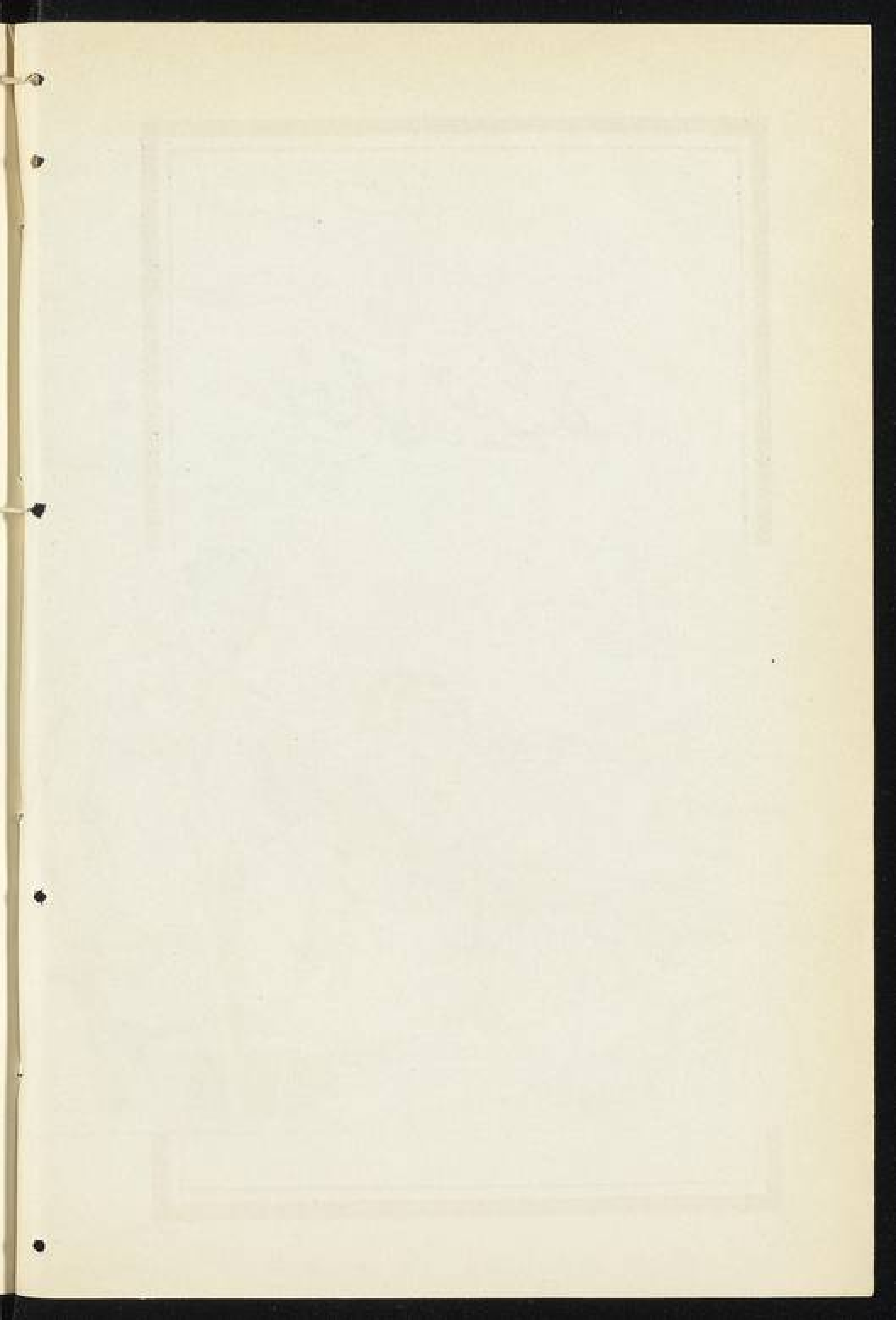
وبدأ زكى يسرد حديثه قائلا :



الفصل الثانى

روح فى حقيبة





عرفته ونحن طالبان في مدرسة الخديوى اسماعيل وكان اسمها وقتذاك كما تعرف « التانوية الملكية » .

وكانت المعرفة عقب معركة حامية دارت بيننا فى « حارة اليهود » وهى إحدى دروب المدرسة ، وفى ركن قصى منها بجوار « أولى تالت » ، وراء معامل الطبيعة والكيمياء . . وضربته جيداً . . وضربنى جيداً . . وبعدها . . ومنذ ذلك اليوم نشأت بيننا صداقة يحسدنا عليها أحب الأخوة وأعز الأقرباء .

لقد أحببته جيداً . . ولى العذر . . فهو مخلوق . . لا يملك إنسان ، أياً كان ، إلا أن يحبه .

كان . . من يومه . . كما سمعته أنت فى موسيقاه . . رقيق النفس ، مرهف الحس ، ولم أكن كذلك بل كنت على نقيضه عدّاء كثير الحركة لا يستقر لى قرار . . ومع ذلك فقد علمنى كيف أستقر ، وكيف أجلس فى الفسح بجواره على أحد المقاعد لنتحدث ، أو كيف أسير دون أن أعدو أو أقفز .

ولست أريد أن أسرد عليك تاريخ حياته فلا أظن لدينا من الوقت مايسمح لنا بسرد تفاصيله . . ثم إنى لا أجد فى ماضيه الشيء غير الطبيعى الذى قد تجد فيه ما يمكن أن

تستند إليه فى تشخيص حالته . . فقد كان نموذجاً للإنسان المستقيم الناجح المحظوظ .

ولكنى مع ذلك أحب أن أشغل من وقتك بضع لحظات فى وصف شخصيته ونفسيته وخلقه ، وهو ما قد تحتاج إليه أنت وما سيتعذر عليك الحصول عليه إلا منى . . أنا أقرب الناس إليه والذى أعرفه خيراً من نفسه .

كان أكثر مايميزه عنا ونحن صبية هو إحساسه الدائم بالذنب . . والعجيب أنه لم يكن هناك ما يدعوه أبداً لهذا الإحساس . . فذنوب « التلمذة » بطبيعتها من التفاهة بحيث لايكاد يحس الإنسان بحملها . . وهو بالذات كان أقلنا ارتكاباً لهذه الذنوب . . إن لم يكن عديم الذنوب . . ومع ذلك كنت لا أفتأ أرى القلق ينتابه بين آونة وأخرى . . لأشياء لا أظنها — لو كنت فاعلها — بتاركة فى نفسى أى أثر ، أو قل إنى ما كنت أستشعر فعلها قط .

مثلا . . أذكر ذات مرة أنه خرج من أحد الامتحانات حزيناً مقطب الجبين ، فظننته قد أخطأ الإجابة ، وقلت له مازحاً :

— لا تكتئب . . فى الملحق متسع للجميع . . دعنا نشترك فيه معاً .

— أى ملحق ؟

— ملحق اللغة الفرنسية .

— لمن ؟

— لك .

— أنا ؟ . . لقد أجبت عن جميع الأسئلة .

— إذاً فما بالك حزيناً ؟

— حزين من أجلك .

— من أجلى أنا ؟

— أجل .

— لِمَ ؟ !

— لقد خمنت ثلاثة أرباع الأسئلة التى أتت فى الامتحان وذاكرتها قبل الدخول بنصف ساعة . . ولو أننى قلتها لك لضمنت الإجابة الصائبة عنها .

ورغم إحساسى بشىء من الخذلان لم أملك إلا أن أجيبه ضاحكا :

— لا تحمل لى هماً . . لقد أجبت إجابة . . أظننى أستطيع بها أن أنجح .

— كنت أستطيع مساعدتك . . ولكننى لم أفعل . .

لأنى انهمكت فى استذكارها ولأنى خفت ألا تصدقنى وتضحك علىّ .

وهكذا دائماً كان يستشعر الذنب . . لا لأنه ارتكب شيئاً بل لأنه قصر فى فعل شىء . . فقد كان يتهم نفسه دائماً بأنه يستطيع أن يفعل . . ولم يفعل .

ومثل آخر . . أذكره الآن جيداً كأنما حصل بالأمس ، كنا قد تأخرنا فى الخروج من المدرسة ذات يوم . . حيث كنا نشاهد بعض الألعاب التى يقوم بها فريق « الجمناستيك » على الأجهزة ، وعند خروجنا من البوابة وجدنا ازدحاماً فى الشارع وشاهدنا عربة الإسعاف وقد تكأكأ حولها الناس ووجدنا الشيخ فضل البواب يصرخ باكياً وعلمنا أن ابنه كان جالساً أمام باب المدرسة ، وتركه الرجل بضع دقائق ليقضى حاجة فعدا الطفل إلى الشارع لاهياً عندما تصادف مرور عربة مسرعة صدمته صدمة كسرت ساقه .

ومن الطبيعى أن تترك أمثال هذه الحوادث ألماً فى النفوس ، ولكن من غير الطبيعى أن يروح الإنسان محملا نفسه بلا أدنى مناسبة عبء مسئوليتها وذنب وقوعها .

لقد تأثرت أنا . . وحزنت بعض الحزن على عمى فضل وابن فضل . . وهكذا فعل كل من شاهد الحادثة . . ولكن

إبراهيم لم يكن ليأخذها كما أخذناها بمثل هذه السهولة ، بل كان لابد له أن يحشر نفسه بين أبطالها ويزج بشخصيته بين مرتكبيها والمسئولين عنها .

وعلمت فى اليوم السابق أنه لم ينم فى ليلته إلا لماماً وأنه بكى بكاء حاراً ، وسألته فى شىء من الغيظ :

ـ ومالك أنت ؟

ـ مالى أنا ؟ لقد كنت أستطيع منع الحوادث .

ـ كيف ؟

ـ لو لم أقف لمشاهدة اللعب . . وخرجت فى موعدى لرأيت الطفل وهو يعدو فى الشارع ولاستطعت إنقاذه .

ـ كانا إذن مسئولون عن الحادثة . . بل كل إنسان لابد أن يكون مسئولا عن حادثة ما . . فما من حادثة تقع إلا كان يستطيع منعها إنسان . . كن عاقلا وكف عن هذا السخف .

وغيره . . وغيره . . لقد كان دائماً يحس أنه مقصر فى حق سواه وأنه كان يستطيع أن يفعل خيراً . . ولو فعله ، فإنه نادم لأنه كان يستطيع أن يفعل خيراً منه .

ذلك هو الشىء الذى يمكن أن أعتبره فيه غير طبيعى . .

والذى أعتقده أنه لازمه فى كل أدوار حياته بعـــد ذلك .
وأنا نفسى أستطيع إرجاعه إلى تجسد الخير فى نفسه وإلى يقظة شديدة فى ضميره تجعله شديد الحساسية بمتاعب الناس وآلامهم . . شديد الرغبة فى مشاركتهم إياها ، أو رفع حملها عنهم .

ولا شك أنى عندما أصفه بأنه شىء غير طبيعى . . أقصد أنه غير طبيعى بالنسبة للناس .

ولكنه قد يكون طبيعياً بالنسبة له وبالنسبة لطريقة تكوين نفسه وخلقه .

فقد كان ذا نفس رقيقة مرهفة . . نفس فنان مفرط فى الحساسية .

كان فناناً موهوباً ذا أذن موسيقية سريعة الالتقاط ، وكنت أعجب له كيف يقف فى الطريق فجأة ليلتقط نغمة عابرة ويبدو لى أنه يترنح من فرط النشوة ، وكنا إذا ما خرجنا فى المظاهرات أجده قد تسلل من بيننا ، ليذهب إلى أحد محال الأسطوانات فيسترق السمع . . مجاناً . . أو إلى معهد الموسيقى حيث يقبع فى أحد أركانه ليسمع دون أن يحس به أحد .

كانت الموسيقى تجرى فى دمه . . ولم تجد المحاولات التى

بذلها أهله فى إبعاده عنها ، وفى فرضهم رقابة شديدة عليه تجعله يسير فى طريق التلمذة المحدود . . لينتهى به الأمر إلى مهنة محترمة . . طبيب مثلا . . أو محام . . أو مدرس أو . . الخ .

وقد سار فى الطريق المرسوم . . سار بجسده وليس بروحه . . ولم يكن فى دروسه بالمفرط فى الذكاء ولا بالمفرط فى الغباء . . كان طالباً ممتازاً فى بعض العلوم أذكر منها العربية . . لا سيما الإنشاء والمحفوظات التى كان يجيد إلقاءها وكان ضعيفاً فى بعض آخر ، وأذكر منها الإنجليزية ، والميكانيكا .

أقول إنه سار فى طريق الدراسة بجسده . . أما روحه فقد كانت هائمة فى الموسيقى والألحان والغناء . . وأذكر أنه بدأ ينتج ألحانه سراً وهو ما زال طالباً .

ولم يكن فى خلقه على طيبته واستقامته ، نبياً . . بل كان مثلنا يكذب أحياناً ويقصر فى واجباته أحياناً . . وكان مثلنا أيضاً . . يحب : الأكل . . واللهو . . والمزاح . . والفتيات . وكانت له مغامراته التى قد تخفى على الجميع إلا علىّ . . وكانت له . . ماذا أيضاً ؟ كل شىء . . كبقية البشر العاديين .

ولكنه كان معتدلا . . معتدلا فى كل شىء . . طبعاً عدا

ذلك الشيء الذى قلت لك عنه فى أول الأمر وهو معاونة غيره . . وحب الموسيقى ، ولم يكن يدخن ولا يشرب الخمر ولا يتعاطى أى نوع من المخدرات . . ولم يحاول أن يرجع ذلك إلى طبيعة خيرة . . بل إلى رغبته عن فعل مالا لزوم لفعله ، وعمل يجد فى نفسه حاجة ملحة إليه .

وبمثل هذا التركيب فى خلقه والتكوين فى نفسه جرت حياته : تلميذ فى الظاهر ، وفنان فى الباطن . . لا تخل من نجاح وسقوط وأفراح وأتراح ، حتى حصلنا على « البكالوريا » معاً ، وكان تخرجه من القسم الأدبى وتخرجى من القسم العلمى .

وفى ذلك الصيف الذى حصلنا فيه على الشهادة التى كانت لدينا بمثابة جواز مرور إلى طبقة الرجال . . والتى كانت تنقلنا من تلميذ ثانوى إلى طالب فى الجامعة بينه وبين الوظيفة « فركة كعب » . . فى ذلك الصيف نفسه توفيت والدته .

ولا شك أنها كانت صدمة قاسية عليه . . فقد حزن على فقدها حزناً شديداً . . وأحس وأبوه لغيبتها لوعة أليمة . . فقد خلفت وراءها فراغاً لم يستطع أحد بعدها أن يشغله .

ومع ذلك فقد مرّت الوفاة كما تمر كل وفاة . . فما أظنها كانت بالحدث الفريد فى نوعه . . برغم أنه تلقاها وقتذاك على أنها كذلك .

مرّت ليلة المأتم وهو محطم منهار متداع .. ولم يخل الأمر طبعاً كعادته من أن يستشعر من موتها نوعاً من التقصير برغم أنه لم يفارقها خلال مرضها لحظة واحدة .. وأنه سهر على تمريضها ، فلم يغمض له جفن خلال الليالى الثلاث السابقة للوفاة .. ولكنه مع ذلك لم يعدم مبرراً لاتهام نفسه بالتقصير .. ولم يعدم سبباً يعلل به مسئوليته فى وفاتها .

وعاونته ما استطعت على الصبر والتجلد .. وتوالت الأسابيع والأشهر وهى تقرض بأنياب النسيان كتل الحزن الجاثمة التى بدت فى أول الأمر جامدة لا تتفتت .. خالدة لا تتبدد .. حتى أضحت فى النهاية ذكرى نصيبها استمطار الرحمة واستنزال الغفران .

والتحق بكلية الآداب والتحقت بكلية الطب .. وسار كل منا فى طريقه ولكن الصداقة بيننا لم تهن ، والرابطة القوية من الحب والإخاء لم تضعف .. بل بقى كل منا على وفائه لصاحبه ولهفته عليه برغم تباعد فرص اللقاء ولا سيما فى أوقات الشدة المدرسية ... أعنى قبيل الامتحانات .

وعاش مع أبيه (الذى كان وقتذاك يشغل وظيفة كبيرة

قارب الخروج منها بحكم السن) وثالثهما فى الدار « مدبولى » الطباخ . . أو ثالثهما كلبهما . . فقد كان به من الكلاب شبه كبير . . من ناحية الوفاء والأمانة . وفى تلك الفترة بدأ تحرره من قيود « التلمذة » ولم يعد يأبه كثيراً لإخفاء ميوله ، وبدأ نبوغه يظهر للملأ واحتل فى عالم الموسيق مكاناً مرموقاً .

ومرّت دراسته العليا دون حادث يذكر . . أعنى حادثاً له أثر عميق يتصل بموضوعنا . . فما أظن حياته فترة ذاك قد شابها غير الشوائب العادية التى تشوب حياة فنان فى طريقه إلى المجد .

أظنه أحب بضع مرّات . . ففتاة من الجامعة أحبها بحق الزمالة ، وفتاة بجوار مسكنه أحبها بحق الجيرة . . وفتاة معجبة أحبته ثم هجرته فوضع لها بضعة ألحان . . وأذكر أنها لوعته وأقضت مضجعه فترة من الزمن لا بأس بها . . ولكنه ما لبث أن أفاق .

وغير هذا لا أذكر شيئاً ذا بال . . اللهم إلا إحالة والده على المعاش وقضاء وقته ما بين الدار فى القاهرة

وبضعة الأفدنة التى يملكها فى القليوبية والتى تولى زراعتها لحسابه منذ أن أحيل إلى المعاش .

وتخرج بعد أربع سنوات لم يرسب فيها سنة واحدة ، بل كان تفوقه فى دراسته العليا — رغم اشتغاله بالموسيقى — واضحاً ، ووجد نفسه أخيراً قد ألقى من فوق كتفه حمل الدراسة الذى طالما أثقل كاهله ، وأضحى كما يريده والده .. رجلا محترماً ذا شهـــادة عالية .. وبدأ بعد ذلك يفرغ تماماً .. لألحانه وموسيقاه .. أو على حد قوله .. يعيش لنفسه .

ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى فقد والده . وكانت صدمته هذه المرة أخف بعض الشيء من صدمته الأولى بوفاة والدته .. أولا لأن الوفاة حدثت بعد مرض طال بضعة أشهر حتى باتت متوقعة بين آونة وأخرى ، وفقدت وقع المفاجأة التى كانت لوفاة الوالدة ، وثانياً — كما يبدو لى — أنه كان يحب والدته أكثر من والده .. فقد كان بالأخير نوع من الأنانية والانطواء ... أضعفت من قوة الصلة التى كانت يجب أن تكون بين الاثنين .

ولست أعنى بقولى هذا طبعاً أنه لم يحزن أو أنه لم يحاول كعادته أن يدخل فى روع نفسه وفى روعنا مدى

تقصيره فى العناية به ومدى مسئوليته فى وفاته ، وأنه لو لم يفشل فى الحصول على دواء معين لما حانت منية أبيه بتلك السرعة ولاستطاع أن يمد فى أجله .

ولم أناقشه كثيراً فى أوهامه تلك . . فقد تعوّدتها منه فى كل تافهة تمر بنا فما بالك بوفاة والده ! ؟

ومرت الوفاة ، دون أن تحدث فى حياته تغييراً يذكر . . فقد كان بطبيعته أميل إلى الاستقرار ، عزوفاً عن التغير والتنقل . . فاستمر قاطناً نفس الدار وهى « فيلا » متوسطة كائنة فى حدائق القبة . . مشرفة على المزارع القائمة على أطرافها . كان أباه قد تولى بناءها على قطعة أرض يملكها ، واستمر محتفظاً بالخدم ولا سيما « مدبولى » الطباخ العجوز ، الذى احتل فى الدار مركز المسئول الأول وكان له بمثابة الأب والأم وولى الأمر .

وعاد إبراهيم إلى تأجير الأرض التى ورثها عن أبيه بعد أن كان أباه قد تولى زراعتها لحسابه إذ لم يكن لديه وقت ولا دراية لمثل هذه المشاكل واكتفى من الأرض ببضع مئات من الجنيهات تدرها عليه فى كل موسم زراعى يبددها فى معاونة نفسه على الحياة للتفرغ للموسيقى والألحان ومعاونة الناس ومعاونة ضميره على الاستراحة من خوفه

الدائم من التقصير فى معاونة الناس .

وأظن هذا كل ما يمكن ذكره باختصار عن حياته وعن خلقه . . وأظننى استطعت أن أرسم لك الإطار الذى أستطيع أن أضع فيه الحادثة المباشرة التى نتجت عنها حالته تلك .

بقيت مسألة هامة وهى الناحية النسائية فى حياته سواء أكانت عاطفية أم جنسية ، إنه لم يتزوج حتى الآن ، وأنا أعرف أن رأيه كان دائماً ألا يتزوج بمحض إرادته . . أو على حد قوله . . إنه لن يلقى بنفسه إلى التهلكة بيديه . . أما إذا دفعته يد أخرى فليس أمامه إلا أن يتقبلها صاغراً .

ولست أشك أن مبعث إعراضه عن التقيد بالزواج هو أنه لم يشعر قط بالحاجة إليه ، فهو لم يحس بنقص فى أى مطلب له سواء أكان لقلبه أم لجسده . . فهو ما يسمونه بالرجل الحسن المنظر . فإذا أضفنا إلى حسن منظره لطف معشره وخفة ظله ودماثة خلقه وشهرته كموسيقار وجدنا أنه لم يكن من المستغرب أن تكون حياته دائماً مليئة بأنثى تقدم له فى يسر وبلا مقابل وبلا قيد ما يغنيه تماماً عن زوجة تقيده وتطبق على أنفاسه .

ولا أظنه ارتبط بإحداهن ارتباطاً طويلا . . بل كان

يبدو لى فى بعض الأحيان أنه يحب فى وقت واحد ثلاثة أو أكثر ، ولا أظنه كذلك خدع إحداهن أو خذلها ، بل كان — حتى بعد انتهاء العلاقة الوثيقة التى قد تربطه بإحداهن — يستمر على علاقة طيبة معها .

مفهوم ؟ . . هل استطعت أن أصفه جيداً من هذه الناحية ؟ أخشى لا . . وأخاف أن أكون أبديته فى صورة زير نساء . . وهو لا شك يتناقض تمام التناقض مع الصورة التى رسمتها له قبل أن أتحدث عنه فى هذه الناحية .

ولاشك أيضاً أنك قد تتساءل عن موقف ضميره الوخاز اليقظ الكاره لشقاء غيره ، التوّاق إلى إسعاده ومعاونته .

ألم يكن أنسب لهذا الضمير أن يهدأ إلى واحدة وينطوى وإياها فى حياة هادئة يستطيع خلالها أن يقدم يد العون والسعادة للزوجة والأولاد ؟ !

حسن . . قد يكون هذا صحيحاً . . ولكن تذكر أنى قلت أنه لم يخدع إحداهن أو يخذلها ، بل كان معهن دائماً صريحاً قويماً . . وكان يقول إنه يبادلهن المتعة ، وأنه يسعدهن جميعاً ، وأنه يعاونهن بطريقته الخاصة على الحصول على أكبر قدر من الهناء ، ولن يسىء إلى غرضه أنه هو نفسه يفيد المتعة ويحصل على السعادة .

ذلك كان تعليله .. وقد يكون غير مقبول .. ككل تعليل لذنب لا يعدم أن يجد فيه صاحبه ما يبرر به ذنبه .

ولكن لمَ نسمه ذنباً ، وتلك هى طبيعة الرجال ؟. ورفقة النساء دائماً أشد شيوعاً وأكثر متعة من زواجهن .. ولا سيما لفنان قد يعتبر نفسه ملكاً مشاعاً أكثر منه ملكا خاصاً لمخلوق معين ، ويجد أن حريته ووقته أثمن من أن يضيعهما تحت رحمة زوجة . وأنه يجب أن يعيش كالعصفور حراً طليقاً يهتف على كل غصن ويغرد على كل فنن .

وهو - كما قلت لك - ليس نبياً .. بل هو مثلنا تماماً .. ميال إلى المعصيات .. يكذب ويهمل ويفسق .. ولكن الفارق بيننا وبينه أننا نرتكب تلك الأشياء فى سهولة وبغير أن نعبأ كثيراً بوقعها على غيرنا ما دام وقعها علينا طيباً .. أما هو فلم يكن يقدم عليها قبل أن يعرف وقعها على غيره ، وقبل أن يتأكد تماماً من أنها إذا لم تفد غيره فهى على الأقل لن تضره .. وبعد ذلك كله لا يجد هناك ما يمنع ضميره من الوخز والتحرك .

وثمة مبررات أخرى - غير الرغبة فى التحرر من القيود - لاستساغته الحياة الحرية تلك .. واكتفائه من الزوجة بالحبيبات والرفيقات .. وهو استقرار فى حياته

المنزلية وراحة هيأها له العم « مدبولى » الطيب ، المحنك ، الماهر ، الذى أقام له من نفسه أماً وأباً وجعله لا يشعر قط بالمضايقات التى يقاسيها الأعزب ؛ بل كان يجد كل مطالبه فى الحياة من مأكل طيب ، وملبس نظيف ، ومضجع هادىء مريح ، بلا أى جهد بل بغير إحساس بأن هذه الأشياء تتطلب جهداً ، فقد كان يجدها معدة متوفرة بلا سؤال ولا تفكير .

ومبرر آخر هو انهماكه فى الدراسة الموسيقية ومحاولته إنجاز عمل ضخم كان ينوى — على حد قوله — أن يحدث به عند ظهوره ضجة كبرى .

وأخيراً .. وهو أقوى المبررات وأشدها .. والذى أعتقد قطعاً أنه هو السبب الحقيق .. ما يسميه هو ويقول عنه .. الافتقار إلى اليد الدافعة ... أى إلى المرأة التى يشغف بها حباً .. والتى تطير لبه .. وتذهب عنه صوابه .. والتى تقذف به إلى التهلكة بدفعة من أصبعها .. والتى كان يدعو الله من قلبه .. ألا تصادفه قط .. حتى يظل متمتعاً بحريته .

☆ ☆ ☆

أظننى أستطيع أن أبدأ بعد ذلك بسرد الحادثة المباشرة .. وأنا واثق أنك تعرفه جيداً ، وتفهم أى نوع

من الناس هو ، وأنك تستطيع أن تؤول تصرفاته وأعماله التأويل الصحيح .

بدأت الواقعة فى أواخر الشتـاء من شهر أو شهرين ونصف شهر .

عندما التقيت بابراهيم . . لقاء مصادفة . . لم يكن أحداً منا يتوقعه . . وكان قد مضى علىّ ما يقرب من شهرين لم ألقه . . فلقيته على وحشة وشوق ، وعلمت منه أنه قد عزم على أن يعتكف فى مكان ناء لا يرى فيه أحداً ولا يراه أحد حتى يتمكن من وضع « أوبرا » جديدة . . فقلت له :

ـ ولِمَ لا تعتكف فى بيتك ؟

ـ لا . . لا . . لا فائدة . . حاولت أن أقبع فيه فلم أستطع . . أنا أعرف نفسى جيداً . . إنى أريد مكاناً خالياً غير مطروق أسجن نفسى فيه .

ـ أظن « قره ميدان » . . هو خير ما يصلح لك ؟

ـ قره ميدان . . حَر .

ـ إذاً طره . . أظنه « طراوة » . . ويمكنك أن تحجز فيه حجرة بحرية .

ـ لا داعى للتعجل . . فأنا واثق أنهم سيضعوننى فيه بعد إخراج الأوبرا .

ـ إذاً إلى أين تنوى الذهاب . أيها المعتكف الكبير ؟

– قد أذهب إلى مطروح .. أو الغردقة .. أو أى منفى مشابه .

وهنـــا خطر لى خاطر وجدت فيه خير حل له فقلت هاتفاً :

– اسمع .. مالك تذهب بعيداً .. المنفى أمامك معد جاهز .. لن يكلفك مليما واحداً .

– ماذا تقصد ؟

– اقصد بيتى فى الإسكندرية .

– بيت السيوف ؟

– أجل .. إنه خال الآن ولن أذهب إليه قبـــل ثلاثة شهور .

– والله فكرة .. ولـكن ... ؟

– لـكن ماذا ؟ ! لن تجد مكاناً نائياً منعزلا مثله .. تستطيع أن تمـكث فيه كأهل الـكهف .. وأؤكد لك أنه لن يسأل عنك إنسان . وسيمنحك ما شئت من هدوء وخلو بال وشـاعرية .. إنه أصلح مكان لنزول الوحى على أمثالك . أظنك لن تجد معتـكفاً خير منه . ألديك اعتراض؟

– لدىّ اعتراض واحد .. أنت تعرفه .

– ما هو ؟

— البعوض .. أتذكر الليلة التى قضيتها عندك فى الصيف الماضى .. إنى لم أنم لحظة واحدة .

— طبعاً لأنه لم يكن هناك استعداد لنومك .. لقد نمت بلا ناموسية .. لأنه لم تكن هناك واحدة خالية .

— والبيت حَرّ .

— حَرّ ؟! لا تكن أحمق .. لقد نمت فى العام الماضى فى حجرة الاستقبال القبلية . وكان الوقت عز الصيف .. أما هذا العام فالوقت ربيع وتستطيع أن ترتع فى حجرات البيت كما تشاء .. أؤكد لك أنك ستحتاج إلى التدثر بالأغطية .

وهكذا استطعت إقناعه بالاعتكاف فى بيتى الخالى . والواقع أنى كنت محقاً فى إصرارى على إقناعه بالذهاب . فقد كان البيت نموذجاً له . فأنا أعرفه جيداً .. وأعرف ولعه بمثل ذلك المكان الكائن فيه البيت وبالمناظر المحيطة به .

سأصف لك البيت وصفاً سريعاً عاجلا . أنت تعرف السيوف ؟ لا تعرفها ؟ . إنها النقطة الكائنة فى مدخل الإسكندرية من ناحية الطريق الزراعى قبل فيكتوريا مباشرة .. أتعرف طريق أبو قير الذى تقوم على جانبه النخيلات ويسير موازياً للترعة المتفرعة من المحمودية إلى الرأس الأسود .. قبل أن تصل إلى تقاطع طريق أبو قير

والطريق الواصل إلى فيكتوريا القائمة عنده نقطة المرور الكائنة بجوار الكوبرى . . قبل أن تصل إلى هذه النقطة وأنت سائر على الطريق الزراعى القادم من القاهرة . . تجد مصرفاً موازياً للترعة ولطريق أبو قير ولا يبعد عنهما أكثر من مائتى ياردة . . حيث تقع بين الاثنين أرض الأوقاف الزراعية الممتدة حتى الرأس الأسود . إذا اتجهت يمينك بحذاء المصرف ورأيت طريقاً غير مرصوف يسمى طريق النخيل قام على جوانبه بعض النخيل الذابل وأشجار الكافور الجافة ، فإذا سرت فى الطريق بجوار المصرف مخلفاً بضعة بيوت متفرقة على الطريق ، وجدت بيتاً فخماً أنيقاً لمستشار ثرى متقاعد يجاوره بيت هو آخر البيوت القائمة فى الطريق ، ولا يبدو بعده سوى أرض فضاء مقسمة للبناء تنتهى بأراض زراعية تبدو فى أفقها بضعة دور صغيرة .

هذا البيت الذى يجاور البيت الكبير هو البيت المقصود . . أو بلغة العرب بيت القصيد . ومن العبث أن تحاول رؤيته من الخارج فقد تكاثفت أشجار الجازورينا والكافور المحيطة به وتشابكت فروعها وتلاحمت أوراقها حتى أخفته تماماً عن الأبصار وأقامت من نفسها غطاء أشبه

« بالمكبة » لم تترك خارجها غير السور الخشبي والجاراج ، فإذا تجاوزت باب الحديقة الخشبي فى شارع جانبي وجدت البيت قائماً أمامك وسط حديقة متكاثفة معشوشية أشبه بالقلاع الخشنة رمادى اللون قاتم النوافذ قد أحيطت نوافذه السفلية بحواجز ذات قضبان حديدية غليظة ، ويبدو فى مدخله المواجه لباب الحديقة بضع درجات تفضى إلى الباب ، وفى الناحية الأخرى تبدو شرفة كبيرة ذات حاجز حجرى واطىء وقد دس أسفلها كوم من حطب الكافور الجاف وأصص مكسورة وأحجار وأتربة لم يحاول أحد إزالتها منذ أن غادرته قاطنته الأولى وهى إنجليزية عجوز .

والبيت من الداخل يبدأ بدهليز ضيق يفضى إلى « صالة » صغيرة تطل على الشرفة السابق وصفها ، وقد وضع على يمين الداخل بيانو ضخم قديم وعلى يساره بضعة مقاعد . . وفى المواجهة سلم رخامى يتجه إلى اليسار يؤدى إلى الدور الثانى الذى احتوى على غرف النوم والحمام ، وعلى اليمين غرفة الاستقبال ، ثم حجرة الطعام ذات المدفأة الكبيرة ، ثم المطبخ .

ذلك هو ما يحضر فى ذهنى من تفاصيل البيت ، ويبدو

لى أن التفاصيل نفسها ليست بذات أهمية بقدر منظر البيت والجو المحيط به .

إن البيت أشبه بقلعة فى غابة . . والعين لا تبصر حوله إلا أراضى واسعة تتناثر فيها بضع دور مميزة بالحدائق المحيطة بها والنباتات المتسلقة على جدرانها وأسقفها الحمراء المائلة الجمالون .

وأسفل البيت يجرى المصرف الذى يحد الحقول الخضراء المترامية الأطراف الزاخرة بأعواد القصب التى تماوج أطرافها فى مهب الريح ، ووراء كل ذلك حشد قائم من النخيلات كأنها حراس الأفق .

ذلك هو البيت الذى استقر به صاحبنا ليغرق فى موسيقاه ويضع مجموعة من ألحانه الجديدة ، نموذجاً لمعتكف ومثلا لمهبط وحى ، لا يكاد يزعجه فيه طارىء ولا عابر ، ولا يؤنس وحدته رفيق ولا سامر . . اللهم إلا خادمه الأمين وولى أمره وطباخه « مدبولى » .

ولست أدرى كيف مرّت به الأيام وقتذاك . . ولكنى أعرف بصفة عامة من بضعة رسائل قصيرة تبادلناها ، أنه كان راضياً عن البيت وعن حياته فيه كل الرضاه ، وأنه لم تشب صفو أوقاته شائبة كدر ولا ضيق ، وكنت أعتقد

أنه مستغرق فى وحدته ، منهمك فى ألحانه ، وأنه يعيش فى البيت النائى أشبه بناسك فى صومعة .. حتى وصلتنى منه رسالة ذات يوم تنبئنى بطريقة يسيرة عابرة .. بأنه خطب .

ولا أكتمك القول أن دهشتى من النبأ كانت شديدة ، فقد كانت خطبته ، وهو فى وحدته تلك ، آخر ما يخطر لى على بال ، ومع ذلك فقد أخذت الدهشة تتبدد تدريجاً ، بعد شىء من التفكير استطعت أن أستنبط به الطريقة التى يحتمل أن تكون قد تمت بها الخطبة .

كانت الخطيبة ابنة الجار الذى يقطن البيت الكبير المجاور لبيتى .. ولست أشك — برغم أنه لم يحدثنى عن شىء من التفاصيل — أن المسألة ، اتخذت صورة حب سريع جارف ملتهب أشعلته الجيرة والوحدة وفرط الحساسية ، فأقدم فى غمرة حبه على خطبتها .

على أية حال لم يكن فى الخطبة شىء يسبب الانزعاج ، بل على النقيض ، كانت — بعد زوال الدهشة المفاجئة — أبعث على الرضاء والغبطة .. فقد كانت الفتاة — فيما أعتقد — فتاة طيبة الأصل والخلق ، وكان جدّها الذى تقطن معه وجلا طيباً موفور الثراء ، ذا مركز محترم ، إذ كان كما قلت مستشاراً سابقاً .

وأرسلت إليه أهنئه وأعتب عليه مفاجأته لى وإتمامه الخطبة بهذه الطريقة الخاطفة التى لم تتح لى مشاركتى فرحته وقلت له إنى محتفظ بحق فى الاحتفال بها عند ما نلتق .

ومرت بعد ذلك أيام أخر شغلتنى عنه مشاغل الحياة ، حتى وصلتنى منذ بضعة أيام برقية من خادمه يسألنى الحضور حالا .

وكان للبرقية وقع شديد الأثر على نفسى ، وذهبت بى الظنون أسوأ المذاهب ، وأوجست منها أشد المخاوف ، ولم أملك سوى الإسراع لأعرف جلية الأمر .

وبعد نصف ساعة كنت أجلس فى أول قطار يذهب إلى الاسكندرية . وكنت شارد الذهن خلال الطريق وأخذت أوطن النفس على قبول شر النتائج ، ولكنى لم أكد أصل إلى البيت وأقترب من الحديقة حتى بلغت مسامعى أصوات موسيقى لا تخطىء مصدرها أذناى .

لقد كانت موسيقاه . . هو .

وأحسست بالطمأنينة تعاودنى ، والسكينة تملأ نفسى . . وحثثت الخطا متجهاً إلى الشرفة المطلة على الحديقة والتى لم يكن بابها مغلقاً ، ودفعته فانفتح أمامى ، ووجدت إبراهيم جالساً أمام البيانو منهمكا فى العزف .

وأحسست من رؤيته سليما بفرحة لقاء الغائب الميئوس من لقائه . . فما شككت لحظة من البرقية التى وصلتنى أنى قد فقدته أو أوشك أن أفقده .

وإلا . . فما الداعى لتلك البرقية المبكرة التى تدعونى إلى الحضور العاجل ؟

أجل . . لعنة الله على الطباخ الغبي . . ماذا تراه يقصد بعمله هذا ؟

أى مس دفعه إلى إهداء تلك البرقية المزعجة لى ؟ !

ووقفت خلف ابراهيم ووضعت يدى على كتفه محاولا مفاجأته .

وبدا لى أنه قد فوجىء فعلا ، بل كانت مفاجأته أشد كثيراً مما كنت أتوقع حتى أضحى الحال مفاجأة لى أنا .

لقد أحسست به ينتفض تحت يدى ، ثم يلتفت بحذر وخشية كأنه مجرم هارب وقع فجأة تحت قبضة مطارديه .

وأدهشتنى نظرات عينيه عندما وقعت علىّ . فقد كانت نظرات ذعر وخيفة . . لم يكن بها أقل ترحيب أو ابتهاج بل إدراك ومعرفة .

كان ينظر إلىّ من فوق كتفه نظرة شاردة ذاهلة وجلة خائفة . وما لبث أن انتفض كعصفور بلله القطر ، وأخذ

يتسلل من تحت يدى مغادراً مقعده أمام البيانو وهو ينظر إلىّ نفس النظر وقد أطبق بإحدى يديه على حقيبة صغيرة حتى اختفى فى الحجرة المقابلة .

ووقفت أرقبه وهو يختفى عن ناظرى فاغراً فاه ، مشدوه النظرات ، معقود اللسان ، وأنا مطبق الشفتين . . لا أكاد أجسر على النطق .

لم أحاول تحيته أو الاستفسار عما به . . فقد كانت نظرته وفراره منى صدمة شديدة الوقع علىّ . . ووقفت برهة حائراً أرقب الباب الذى اختفى وراءه . . محاولا أن أتمالك نفسى وأستعيد ثبات أعصابى . . وهممت باللحاق به لكى أعرف منه حقيقة الأمر عندما بدا « الطباخ » على باب الممر المؤدى إلى المطبخ .

ولم يكد يبصرنى الرجل حتى اندفع إلىّ وفى وجهه ما يشبه البكاء والاستغاثة . . وتشبث بى تشبث غريق فى عجلة نجاة وهتف بى :

— الحقنا يا سيدى .

— ماذا حدث ؟

— سيدى ابراهيم .

— ماله ؟

ـ لا أعرف . . ولا هو يعرف . . ولا أحد يعرف أبداً .

ـ أخبرنى بالضبط عما حدث .

ـ لا شيء أبداً . . لقد كان سليما أربعة وعشرين قيراطاً . . لم يشك من شيء مطلقاً . . وفى صباح الأمس عاد من الخارج مطبقاً على الحقيبة التى رأيته يطبق عليها ، وقد بدت عليه حالة الذهول والشرود . . وهو لا يميز أحداً . . ولا يرى أحداً ولا يفعل إلا الصمت والحملقة والشرود . . وبين آونة وأخرى تصيبه نوبات تجعله فى أزمة شديدة يبدو عليه خلالها الألم والإجهاد . وقد ظننت ما به عارضاً طارئاً نتيجة إجهاد وحاولت أن أهدئه وأريحه ، وأروّح عنه بالمزاح كما تعوّدت أن أفعل ، ولكنه لم يلتفت إلىّ ولم يسمعنى . . بل كان ينظر إلىّ كأنه لا يرانى . . وخشيت أن يكون قد أصيب بالجنون ، ولم أدر ماذا أفعل . . وأخيراً لم أرى بداً من الاستغاثة بك . . فأنا أعلم حبك له ، ومعزّته فى نفسك ، أرجوك يا سيدى أن تنقذه مما به . . إنها « عين أصابته » .

وهكذا ظل الرجل يكرر أنها عين أصابته . . وعبثاً

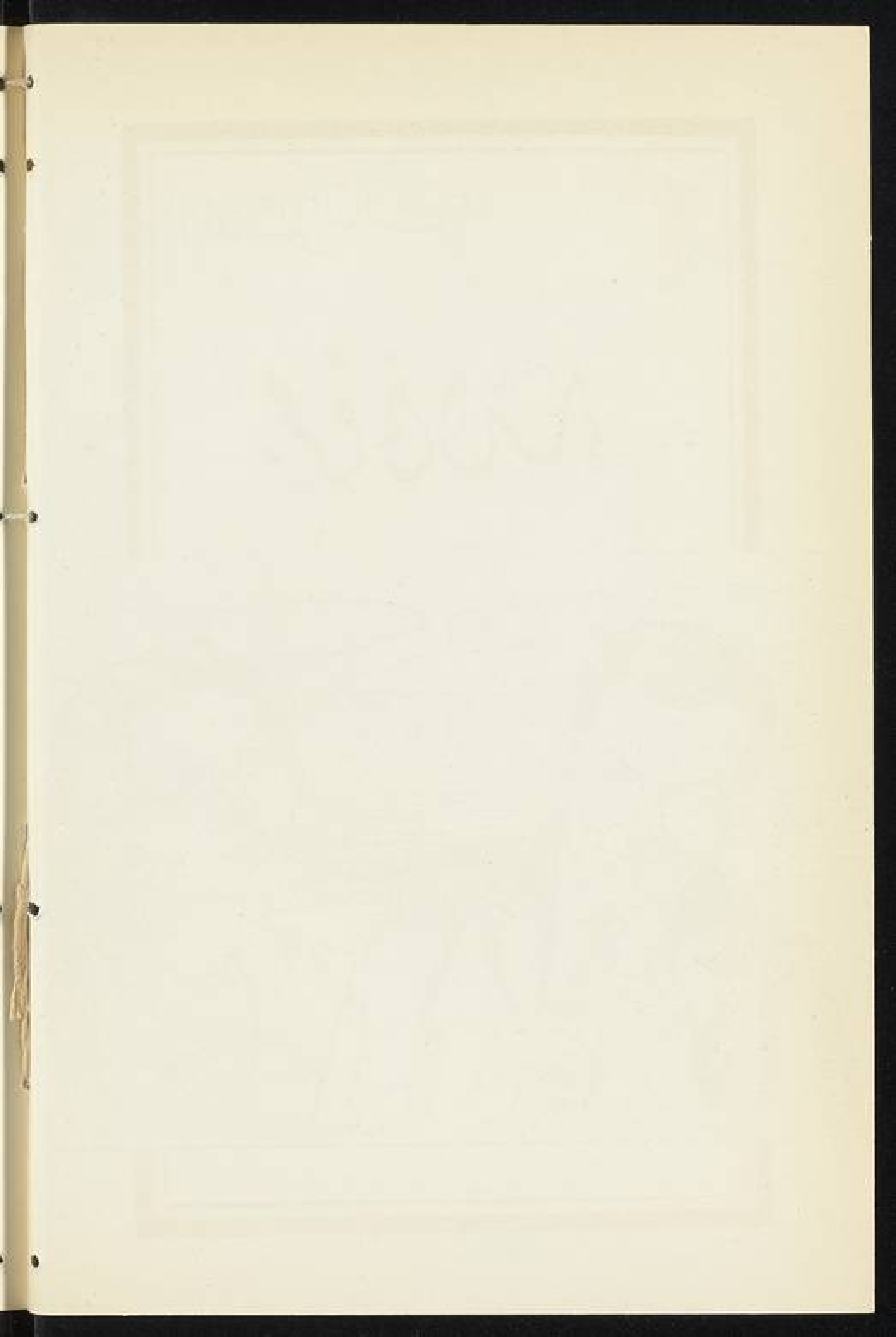
حاولت أن أعرف منه أكثر من ذلك ، وعبثاً أيضاً حاولت أن أعرف من إبراهيم نفسه شيئاً ، فما رأيت منه أكثر مما رأيت منه أول ما أبصرته ، ولا عرفت منه أكثر مما عرفت من خادمه .. شرود وذهول وأزمة عصبية تصيبه بين آونة وأخرى تجعله يذهب بعيداً فى أغوار سحيقة ويبدو كأنه يقاوم ويقاوم حتى يصيبه الكلال . . وخلال كل ذلك . . لا تخف وطأة يده على الحقيبة قيد أنملة . . بل هو يقبض عليها كأن بها روحه .



الفصل الثالث

جمرة في الماء





وصمت زكى ، وأطرق توفيق برأسه وأخذ ينقر بقلم فى يده نقرات منتظمة على زجاج المكتب . . وطال الصمت وبدا كأن كلا منهما ينتظر أن يبدأ صاحبه الحديث ، وأخيراً تحدث توفيق قائلا :

ــ وبعد ؟

ــ هذا كل ما فى الأمر . . وكل ما وسعنى أن أفعله بعد أن يئست من إدراك علته وفهم ما به ، هو أن آتى به إليك . . ولقد قصصت كل ما يعيه ذهنى عنه لأنى واثق أنك لن تستطيع أن تعرف منه أو من سواه أكثر مما قلت لك .

ــ لقد قلت الكثير . . إنى لأكاد أعرفه الآن معرفتك له . . ولكن أخشى أن تكون قد تركته ينتظر طويلا . . كان يجب علينا أن نرجىء شرحك إلى فرصة أخرى . . حتى لا تدعه بضيق بوحدته .

ــ لا عليك . . ليس أحب إليه من الوحدة . . إنه لا يكاد يشعر بما حوله . . بل إنه فى وحدته أكثر أمناً وطمأنينة . . مادامت الحقيبة مستقرة تحت إبطه أو فى يده .

ـ عجيب أمر هذه الحقيبة .. أليست هناك أقل فكرة عما بها ؟

ـ أبداً .

ـ ولا الخادم ؟

ـ ولا الخادم .. وأرجو ألا تحاول أنت مجرد مسها أو إعارتها أدنى اهتمام . لا تلق إليها بالا قط .. فهى أكثر ما به حساسية .. تجاهلها تماماً كأنك لا تراها .

ـ مفهوم .. مفهوم .. دعه يدخل .. فليس من الحكمة أو الذوق أن نطيل انتظاره أكثر من هذا ، دعه يتفضل .

☆ ☆ ☆

وكان ابراهيم مستنداً بظهره إلى المقعد .. وقد مدّ ساقيه وأخذ ينعم بشئ من الاسترخاء المريح .. كان يحس بفرط حاجته إليه عقب تلك الأشواط المتلاحقة من العدو بين الرمال الثقيلة والأمواج المتلاطمة .. والهروب واللحاق والإغاثة والصراع .

لقد أحب جلسته تلك ... بخضرتها المترامية ونخيلها المتناثر ، وأشجارها المتكاثفة ، وأبنيتها الشامخة ، ومائها المنبسط العريض .. وزرقة سمائها المشوبة بنتف من السحب البيضاء المتلاحقة .. وترك عينيه الشاردتين تستقران

فى هدوء على حافة الأفق بين أطراف النخيل ومداخن الدور ، وأرخى أعصابه المكدودة المتوترة . . وبسط أعضاءه المنهكة المشدودة . . عدا ذراعاً تركه يشد الحقيبة كأنه عين الثعلب الساهرة .

وانطلقت من صدره زفرة . . أعلن بها رضاءه النسبي عن جلسته تلك . . وأبدى بها اطمئنانه إلى راحته .

ونعم براحته فترة . . ليس يدرى أقصرت أم طالت . . عندما أحس بكف توضع برفق على كتفه . . فكانت بمثابة الإنذار بانتهاء حالة الاسترخاء . . فتوترت الأعصاب ، وشدّت العضلات .. وزاد ذراع الحقيبة إطباقاً عليها ، ورفع بصره إلى صاحب الكف المنذرة فأبصر وجه صاحبه .

أين كان ؟ . . لقد كاد ينساه . . بل لقد نسى أنه هو الذى أتى به إلى هنا . هنا ؟ ! ! ما هنا ؟

أف لهذه الذاكرة المعتمة التى لا يبصر من خلالها قيد شعرة ؟

أيسأل ؟ . لا . لا داعى أبداً . ليس هناك خير من الصمت والانتظار . . لابد أن صاحبه سيقول شيئاً ، يعلم منه شيئاً . . يمنحه بصيصاً من ضوء يكشف له هذه الظلمات المتكاثفة .

وتحدث صاحبه فعلا . . ولكن ليس كثيراً . . لقد قال : « هيا » .

هيا . . هيا ! ليس عليه سوى الاستجابة .

ونهض فى صمت يتبع صاحبه ، ولم يطل بهما السير كثيراً .

بضعة خطوات فقط ثم عبرا باباً أدى إلى حجرة صغيرة أسدلت على نوافذها الستائر واستبدل فيها نور النهار بمصباح كهربائى هادىء الضوء وضع فى ركن الحجرة .

وبنظرة سريعة عابرة حذرة استطاع أن يلم بمحتويات الغرفة .

لم يكن بها شىء غير عادى . . بضعة مقاعد جلدية وبضع صور زيتية صغيرة معلقة على الحائط بها أشجار وبحر وسماء وأشياء أخرى من التى ترسم دائماً فى هذه الصور الزيتية ، ودولاب وضعت به بضعة كتب ضخمة ومنضدة رصت الأزهار فى إناء فوقها ، وأريكة أو فراش لا يدرى .

هذا ما قد وقع عليه بصره عند أول خطوة خطاها فى داخل الحجرة ، ولكنه لم يكد يخطو خطوة أخرى حتى لمح على يساره مكتباً نهض من وراءه رجل دقيق التقاطيع أميل إلى القصر والنحافة ، وقد وضع على عينيه منظاراً ،

وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة ، ومدّ يده وهو يقول مرحباً :

ـــ أهلا . . أهلا . . تفضل يا أستاذ .

وأخذ فى أول وهلة بمرأى الرجل . فتوقف وشد ذراعه فوق الحقيبة ، ولكن سيماء الرجل المطمئنة وابتسامته العذبة الرقيقة . . بددت حذره وأضاعت مخاوفه ، وجعلته يشعر أنه ليس هناك ما يوجب الخشيـــة ويدعو إلى الحذر .

ومدّ يده فشد بها على اليد الممدودة فوق المكتب . وعاد الرجل الرقيق الحاشية يرحب به :

ـــ أهلا . . وسهلا . . تفضل يا أستاذ ابراهيم .

إذاً فهو يعرفه . . ويعرف أن اسمه ابراهيم . . . ولكن هل هو حتماً ابراهيم ؟ . طبعاً . . لا بد أن يكون كذلك ، وإلا لما دعاه الرجل كذلك !

إبراهيم . . أم غير ابراهيم ! ! ليس عليه إلا أن يكون كذلك . . وليس أمامه إلا أن يجلس على هذا المقعد المريح الذى يعرضه عليه الرجل .

وهبط إلى المقعد الجلدى الكبير وقد رسم على شفتيه

ابتسامة يردّ بها على ابتسامة الرجل الرقيق . . وأمامه جلس صاحبه .

واستمر الرجل فى حديثه :

— فرصة سعيدة جداً يا أستاذ ابراهيم . . . لقد كنت أتوق إلى لقائك من قبل . . . حتى أعبر لك عن إعجابى المتناهى بألحانك الرائعة . . أنا أحب الموسيقى من صغرى . . ولى أذن موسيقية حساسة صادقة الحكم أستطيع بها أن أميز اللحن الطيب الأصيل من اللحن الزائف الردىء . ولقد أحسست وأنا أسمع لك أول ألحانك .. وأظن ذلك منذ خمس سنوات . . إنك فنان موهوب عبقرى . . وأنه سيكون لك شأن كبير فى عالم الموسيقى . . ولقد تتبعت ألحانك دائماً . وكنت فى كل مرة أود أن أنقل لك رأيى . . ولكن الظروف لم تتح لى الفرصة ، وأظنك تستطيع أن تقدر بعد كل هذا مدى السعادة التى أشعر بها وأنا ألقاك أخيراً .

كل هذا له هو ؟ لقد ارتاح للرجل من أول نظرة . . ولكنه لم يتوقع قط أن يكون له فى نفسه مثل هذا القدر . . والرجل يبدو فى قوله مخلصاً غير منافق .

ولم يعرف بماذا يجيب . . لقد تملكه ارتباك واضطراب مشوب بالرضاء والغبطة . ولم يملك رداً على ذلك سوى أن

يطأطيء رأسه ويتمتم كلاماً غير مفهوم لأحد . . ولا له هو نفسه .

ولم يكد ينتهي من هذه التمتمة غير المفهومة حتى وجد صاحبه ينهض قائلا :

— عن إذنكم دقيقة واحدة .

ثم يتحرك مغادراً الغرفة .

وأحس بشيء من الخوف وهو يجد صاحبه قد خلفه وحده مع الرجل الغريب ، وهمّ بالنهوض وراءه ، ولكن ابتسامة رقيقة من الرجل ألزمته مقعده ، ولم يملك سوى أن يمنحه ابتسامة مشابهة رداً له على ابتسامته .

ووضع الرجل يده على جرس أمامه بالمكتب وهو يقول :

— أظن ليس هناك مايمنع من مشاركتي فى فنجان من القهوة ؟ !

ودخل رجل يرتدى « مريلة » بيضاء ، ولم يجب هو بشيء . . أو لم يحس فى نفسه الرغبة أو القدرة على المعارضة فى شيء . . إن خير ما يفعل هو الموافقة والاستسلام .

وأمر الرجل بالقهوة ، وانطلق الآخر ليحضرها . ثم عرض عليه علبة سجائر فهز رأسه رافضاً . . وبعد أن أشعل سيجارة لنفسه عاود حديثه :

ـ كان يجب أن نلتق قبل الآن . . إنى أعشق الموسيقى . أحس أنها جزء من غذاء الإنسان كالماء والهواء . . أليس كذلك ؟

هذا كلام طيب . . إنه هو أيضاً يعتقد ذلك . ولكن ليس به رغبة كبيرة فى الحديث . . إن عقدة لسانه لم تفك بعد .

ولم يملك سوى أن أشار برأسه موافقة منه على السؤال .

واستمر الرجل فى حديثه دون أن يثقل عليه بطلب الإجابة :

ـ كنت أمس الأول فى الأوبرا . . أشاهد الفرقة الإيطالية التى تعمل بها . . لقد سمعت بضع قطع رائعة . . ألم تسمعها؟

هذه لم يذكر أنه سمعها ، ولا سمع غيرها ، وبهزة من رأسه يمنة ويسرة أجاب عن السؤال .

وعاود الرجل الحديث :

ـ يجب أن تسمعها ، ستعجبك جداً . . وشىء آخر أنصحك أن تشاهده . . « فيلم » عن حياة شوبان يعرض الآن فى سينما . . سينما . . لست أذكر الآن .

وهو أيضاً لايذكر ، ولكن الفارق بينهما أن الرجل

لا يذكر السينما فقط . . أما هو فلا يذكر شيئاً أبداً .

وتجاوز الرجل عن السينما التى لا تذكر ، كما يتجاوز هو عن كل شىء لا يذكره . . وعاود الحديث :

ــ كنت بالأمس أسمع الإذاعة فسمعت مصادفة إحدى السمفونيات لبيتهوفن وعلمت أنهم يذيعون سمفونية لأعلام الموسيقى يوم الأربعاء من كل أسبوع فصممت ألا تفوتنى بعد ذلك ولم تكد تنتهى السمفونية حتى تبعها دور من موسيقانا الشرقية القديمة لزكى مراد هو « ياللى جرحت القلب داويه » . . وأؤكد لك أنه أطربنى جداً . . إنى أحب كل أنواع الموسيقى . . مادام اللحن جيداً . . وأن مقياس جودة اللحن هو الأثر الذى يتركه فى النفس . . وهو نفس مقياس جودة أى عمل فنى . . ولذلك فإنى لا أجد هناك معنى لتقديم العمل الفنى لنفس لا تملك وعياً فنياً . . ولذا يجب تنمية الوعى الفنى فى النفوس حتى يجد العمل الفنى التربة الخصبة التى ينتج فيها ثمرته . . ويبدو لى أن خير ما فعلت أنت هو تنمية هذا الوعى . . إنى لا أعتبرك مجرد موسيقى ، بل أعتبرك صاحب رسالة . . لقد غرست فى نفوس العامة القدرة على استساغة نوع من الموسيقى العالمية كانت تنفر منه لأنها لا تدرك قيمته . . لأن وعيها الفنى كان محدوداً . .

وإدراكها كان لا يتعدى الموسيقى المتكررة المعادة ذات الليالى والآهات . . وهو شئ قد يكون له قيمته الفنية كلون من ألوان الموسيقى ووجه من وجوهها ولكنه ليس كل شيء . . ومن الخطأ أن يقصر إدراكها الفنى إلا عن فهم واستساغة هذا اللون بالذات . . ويبدو لى أنك قد أدركت هذا النقص وبدأت تعمل على علاجـــه . . فعندما أتتبع موسيقاك أستطيع أن أجد بها نوعاً من تربية الوعى الفنى لعامتنا ، وأجد انتقالا تدريجياً بموسيقانا من المحيط الشرقى الضيق إلى الأفق العالمى المتسع .

عجيب هذا الكلام !

وأحس ابراهيم بأنه ينصت إلى الرجل فى لهفة . . ويتبع حديثه تتبع المشوق المدرك الواعى . . الصافى الذهن ، السريع الفهم ، الحاضر الذاكرة .

هذا الكلام قد بدد الكثير من السحب التى كانت تحيط به وأذهب الكثير من الخوف والحذر مما حوله .

وبدأت أعصابه المشدودة . . تهدأ وتسترخى . وابتسم للرجل وهو يحس بوثاق من الصداقة والثقة يقرب بين أحدهما والآخر .

وابتسم الرجل وهو يتمم حديثه فى لهجة تشعر السامع بصدق صاحبها :

– كان آخر ما سمعت لك ، هو لحنك « ساعة غروب » ولقد ترك بنفسى أثراً عجيباً . . عجيباً جداً . . لاأظن لحناً ترك بها نفس الأثر . . كان له شىء يجعلنى أميل إلى ذرف الدمع . . لست أدرى لِمَ ولا علامَ ! ولكنى كنت أحس وأنا أسمعه كأن شيئاً عزيزاً يتسرّب من يدى ولا أملك حفظه أو منع تسرّبه . . كنت أحس كأن شيئاً مضيئاً فى حياتنا تهب عليه وعلينا ريح توشك أن تخمد ذبالته ونحن لا نستطيع لها صداً . . كنت أحس . . بحياة تنتزع وروحاً تخمد . . كنت أكاد أبصر أمامى الشمس الغاربة .

وهنا تحدث إبراهيم . . لأول مرة . . بلا جهد . . ولا مشقة ولا تكلف . . وانفرجت أساريره وانبسطت عقدة لسانه . . وأحس كأنما قد خلف وراءه أكواماً من القيود والأثقال والسحب والآكام والرمال والأمواج ، وأنه بات وحده حراً طليقاً . . . قال ببساطة وحرارة :

– أنا أيضاً كنت أحس ساعة وضعه بنفس إحساسك

وليس أحب إلى نفسى من أن أعرف أنه استطاع أن ينقل إليك مشاعرى نقلا صادقاً خالصاً . . لقد صدر اللحن من قلبي ، فليس عجيباً أن يستقر فى قلبك ، وإذا كنت قد أبصرت من خلال أنغامه شمساً غاربة . . فأنا أيضاً قد وضعته وأمامى الشمس تهبط وراء الأفق . . كان الوقت ساعة غروب . . . والشمس قد صبغت البحر بلون الدماء . . وأخذ قرصها الأحمر يتوارى وراء الأفق كأنه جمرة تنطفىء فى الماء مخلفة وراءها رماداً من السحب .

أجل . . أجل . إنه يذكر المنظر جيداً . . يذكره بكل تفاصيله ودقائقه بغير غموض ولا إبهام . . وبغير تلك السحب المعتمة التى تعوّد أن يراها تتكاثف فى ذاكرته وتلفها فى ظلمة غاشية تحجب كل ما بها .

وسادت فترة صمت استعاد خلالها تلك الفترة إلى ذاكرته ، وقد أطرق برأسه وأطلق من صدره زفرة هادئة مريحة .

وأخذ الدكتور يلقى عليه نظرة فاحصة وبودّه لو يستشف مافى ذهنه ، وانتظر أن يعاود الحديث ليلقى بكلماته بعض الضوء على المتاهة التى يضرب فيها .

وطال الصمت ، واضطر توفيق أن يقول شيئاً يخرجه

به من تخيلاته فسأله فى رقة :

ـ لابد أن المنظر أرهف مشاعرك ؟

ورفع إبراهيم رأسه وأجاب فى يسر :

ـ جداً . . لقد كان منظراً عجيباً .

ـ أتذكر أين ؟

ـ فى الشاطىء . . على صخرة نائية فى سيدى بشر . . كنت أجلس وحيداً فى المرة الأولى .

ـ والمرة الثانية ؟

ـ الثانية ! !

ولم يدم صمته أكثر من ثوان ، ثم انطلق فى الحديث كأنما يناجى نفسه :

ـ كانت معى ، كنا نجلس متجاورين على صخرة مشابهة ، والمنظر الرائع قد امتد أمامنا ، والنسيم قد رق ، والموج قد انبسط ، والجمرة القانية تنزلق فى الماء ، وهى قد استندت برأسها إلى كتفى ، وهمست فى أذنى : « وددت لو أسمعتنى شيئاً » ، وكنت أحمل فى جيبى ناياً صغيراً ، وجذبته ببطء من جيبى ، ثم أخذت أنشدها « ساعةغروب » ، وعندما انتهيت ، التفت إليها فإذا بالدموع تنساب من مآقيها ، وإذا بها تخفى وجهها فى صدرى ، وسألتها وقلبى من دموعها

متفتت : « ما بك » ؟ وهمست ، وكأنما العبرات تنساب فى همساتها : « أخشى أن أفقدك ، كنت أحس وأنا أسمعك أنك تذهب بعيداً ، بعيداً ، وأنى أناديك فلا تجيبنى إلا صدى صرخاتى تتردد بين الصخور » ، وضحكت وقلت لها : « لا تخشى شيئاً ، إنه تأثير اللحن الذى وضعته فى ساعة يأس ووحدة ، ولو كنت معى وقتذاك ، لكان شيئاً آخر ، ولسميته ساعة شروق ، لشمس لا مغرب لها ، شمس باقية إلى الأبد ، كما سأبقى إلى جوارك » وأفعمها حديثى بالأمل ، فغاضت عبرتها وفاضت بسماتها ، ولقد كنت فى حديثى ساعتذاك مخلصاً لها مؤمناً بحبها ، ولم أكن أظن أنى سأتخلى عنها قط ، كنت واثقاً أن شمس حبنا ، لا مغرب لها . ولكن يبدو لى أن كل شمس مآلها إلى الغروب .

ومرّة أخرى عاود صمته ، وخشى توفيق أن يجمح بعيداً ولم يجد بداً من أن يجذب عنانه بكلمتين ليعيده إلى الطريق فقال :

— وكل غروب مآله إلى شروق جديد .

— إلا هذا ، فهو غروب بلا شروق .

— أى شىء يدعوك إلى هذا اليأس ؟ ما من ظلمة يأس إلا وراءها بارقة أمل .

ـ لقد أطفأت بيدى كل البوارق ، لقد انتهى كل شىء ، لا فائدة هناك .

أجل ، لا فائدة ، إنه يذكر الآن ، أنه قطع كل حبال الرجاء ، يذكر ساعة أن ذهب اليها وأنبأها أن كل شىء بينهما قد انتهى .

وعاد يردد :

ـ أجل . . لقد قطعت بيدى كل علاقة بيننا .

وأحس توفيق أنه قد وضع يده على شىء ، وأنه قد أمسك بطرف الخيط ، وتركه برهة ليتمالك أنفاسه ، ثم عاد يستحثه :

ـ كيف قطعتها ؟ ! ماذا حدث بينكما ؟ ! لقد خيل الىّ من حديثك أنكما كنتما خطيبين سعيدين ؟ !

ـ أجل كنا كذلك ، ولكن . . . .

وفجأة فتح الباب وأطل الخادم برأسه حاملا بين يديه فنجانين القهوة .

وفوجىء ابراهيم بدفعة الباب وراءه فتوترت أعصابه وشدّت عضلاته وأطبق بذراعه على الحقيبة ، وتلاحقت أنفاسه وهو ينظر بحذر الى القادم خلفه .

ماذا يريد ؟ لماذا استدرجوه الى هنا ؟ ومن هذا

الجالس أمامه ذو العوينات ، ما له يحملق به هكذا ؟!
وتدفقت السحب فى ذهنه ، وبدأت المطاردة ، وبدأ العدو فى الرمال ، وضل الذهن وضاعت الذاكرة ، وأخذ العرق يتصبب من جبينه .

وأدرك توفيق أن طرف الخيط قد ضاع مرّة أخرى ، واعتصر جبينه بيده ثم نظر إلى الخادم فى يأس وقال :

— إنها غلطتى أنا ، كان يجب أن أذكر مسألة القهوة هذه . . على أية حال . . اذهب الآن وادع الدكتور زكى .

وبعد لحظة عاد زكى فأشار إليه توفيق بالجلوس ، فاتخذ مجلسه على المقعد الجلدى الآخر .

ثم حوّل بصره إلى إبراهيم وسأل :

— ماذا به ؟

وأجاب توفيق بهدوء وقد تمالك نفسه :

— لا شىء . أصابته النوبة التى حدثتنى عنها .

— ولكن . . هل عرفت منه شىء ؟

— بعض الشىء . . لقد جلوت عن ذهنه بعض صدئه . وانطلق يتحدث بطلاقة واطمئنان ، حتى دخل ذلك الأحمق يحمل القهوة .

— خسارة . . ولكن لِمَ لا تحاول مرة أخرى ؟

ـ لا أظن هناك فائدة . . يجب عليه أن يستريح الآن .
على أية حال لقد عرفت شيئاً هاماً ، أعتقد أنه يضع لنـــا
أساساً لحالته تلك ، ويمنحنا سبباً طبيعياً لما أصابه .

ـ ما هو ؟

ونظر توفيق إلى إبراهيم فإذا به ما زال بعيداً ، وقد بدا
عليه الإرهاق والتوتر ، ثم حوّل بصره إلى زكى قائلا :

ـ لقد فك خطبته ، لقد أنهى هو كل شىء على حد قوله
إن المسألة صدمة عاطفية أعقبها انهيار فى الأعصاب .

ـ ولـكن ما السبب ؟

ـ السبب ! إنه لا شك مختبىء فى ذهنه الشارد وذاكرته
المعتمة ، إنه أمامك ، ابحث عنه إذا شئت .

ـ ولـكن ، ألا يمـكنك معرفته ؟

ـ بل يجب علينا معرفته ، وبغير معرفته لن نستطيع
علاجه ، لابد من جلسة أخرى وثالثة ورابعة ، حتى نجلو
خبيئة نفسه . . المسألة تحتاج الى وقت . . هذه ليست عملية
جراحية يا أستاذ زكى .

ـ أجل ! أجل ! ولـكن مع ذلك أخشى ألا أستطيع . .
أخشى أن تزداد حالته سوءاً .

ـ اطمئن ، لا أظن هنـاك ما يدعو لمخاوفك ، ثم إنه

ليس أمامنا سوى ذلك ، ان حالته تحتم عدم إرهاقه .

وأطرق زكى برهة ثم رفع رأسه فجأة قائلا :

ــ ألا تظن أن خطيبته تستطيع معاونتنا فى شيء ؟

ــ يتوقف ذلك على رغبتها فى المعاونة ، وعلى نوع مشاعرها نحوه الآن ، وعلى طبيعة ما حدث بينهما ، وعلى أية حال لست أرى ضرراً من سماعها على حدة اذا استطعت إحضارها .

ــ سأحاول ، سأبذل كل جهدى ، وأعتقد أنها لن تخيب رجاءنا ، فمهما يكن قد أساء اليهما فلا أظنها ترفض معاونتنا فى شفائه ، إنها مسألة انسانية ، إنها . . . .

ولم يتم حديثه فقد قطعه زفرة من ابراهيم أحس فيها كأنه ينفض عبئاً يجثم على صدره ، والتفت الإثنان اليه فإذا به قد عاد من رحلته الشاقة المضنية ، ومد زكى يده فربت بها ذراعه وقال مخاطباً توفيق :

ــ أظننا نستطيع الانصراف الآن ، لقد أضعنا الكثير من وقتك .

ــ أبداً ، لقد أتحت لى فرصة كنت أحلم بها ، وما أعظم سرورى لو استطعت أن أقضى مع الأستاذ وقتاً أطول .

ونهض زكى وهو يقول :

ـ إن شاء الله نكرر الزيارة . . إن ابراهيم لا شك سعيد بمعرفتك .

ولم يكن يبدو على ابراهيم شئ من السعادة . . كان منهكا مكدوداً عقب المطاردة والصراع الذى انتهى منهما . ونظر إلى الإثنين فى حيرة . . ولم يملك سوى النهوض والشد على اليد التى امتدت لمصافحته والتمتمة بالكلمات غير المفهومة التى تعوّد أن ينتقذ بها نفسه كلما أصابه حرج ، وكلما أعياه الفهم .

وقال زكى وهو يحيي الرجل الآخر :

ـ سأتصل بك تليفونياً لأنبئك بالنتيجة . . السلام عليكم .

ودلف الإثنان من الباب . . وبعد لحظة كانت إحدى عربات الأجرة تعود بهما إلى مسكن ابراهيم فى الحدائق .

كان ابراهيم ما زال مطبقاً على الحقيبة وصور الطريق تتتابع على بصره من وراء نافذة العربة .

وكان زكى قد استغرق بدوره فى التفكير . . لقد بدا له إحضار الخطيبة مسألة هينة فى مبدأ الأمر . . كأنما لم يكن عليه إلا أن يشير إليها بالحضور فتندفع إليه . . ولكنه عندما استغرق فى التفكير وقلب الأمر على وجوهه وجد أن المسألة متعذرة ان لم تكن مستحيلة .

إنه لا يعرفها ولا تشرّف بمعرفة جدها . . ومن العسير عليه أن يذهب لدعوة فتاة لم يسبق له معرفتها للحضور إلى طبيب لكى تعترف له بما لا يمكن أن يسمى بأقل من مأساة حب هى أحد طرفيها .

إنها قطعاً غير ملزمة بذلك . . ثم من يدرى أنها ليست فى مثل حاله من الضيق واليأس . . أو من يدرى أنها ليست غاضبة لا تطيق ذكر اسمه . . إن الأسوأ لا بد أن يكون فى الإنتظار . . فالقطيعة واقعة . . وهى لا بد أن تكون ناتجة عن خطأ من أحد الطرفين : إما هو وإما هى . فإذا كانت هى فمعنى ذلك أنها لا تريده مع سبق الإصرار . . وإذا كان هو فقد أصابها بصدمة جعلته يفقد الكثير من موقعه فى نفسها .

وهكذا ظلت الإفتراضات تلف فى رأسه وتدور . . حتى جعلته يندم على هذا العرض ويتهم نفسه بالسخف لمجرد التفكير فيه . . ويقدر سعة صدر الدكتور توفيق لأنه تقبله منه دون أن يسفه آراؤه .

على أية حال . . المسألة « ملحوقة » إنه لم يتورط فى شىء بعد . . ليس عليه سوى الإنتظار حتى الغد ، ثم يدق التليفون لتوفيق لينبئه أنه لم يستطع إحضارها . . هذا كل ما فى الأمر .

ولكن لِمَ لا يحاول ؟ . . ماذا يخشى ؟ .. هبها صدته . . هبها ثارت وغضبت . . أى ضرر فى ذلك ؟ ! إن النتيجة لن تسوء فى حالة الرفض أكثر مما هو كائن . . وإذا قبلت وإذا ذهبت . . وقالت شيئاً . . فربما يكون ذا فائدة . . مهما ضؤلت فهى خير من لا شىء .

ووقفت العربة أمام باب البيت وهبط الاثنان ، وتقدم ابراهيم بسهولة واطمئنان . . إن المكان محبب إلى نفسه ليس عليه منه خوف ولا حرج .

وكان مدبولى فى الانتظار فقد تركهما فى المحطة واتجه لإعداد البيت وكانت على سيمائه الطيبة علائم التساؤل واللهفة وتقدم يقود سيده إلى حجرته . . ثم تركه وأقبل على زكى متسائلا :

— خير ياسيدى ؟

— خير يامدبولى . . لقد استطاع الدكتور أن يحدثه .

— الحمد لله . . وماذا قال له ؟

— قال إنه فك الخطبة ، وأنهى كل شىء .

— لا حول ولا قوة إلا بالله . إذاً فهذا هو السبب . . كان يجب أن أخمنه . . ولكن لم يخطر ببالى مطلقا أنه يمكن أن يفك الخطبة . . الله يسامحك ياست راجية . . الله

يسامحك . . ولكن فك الخطبة يحدث كل هذا ؟

— لابد أن تكون قد حدثت أشياء قبل فك الخطبة . . مشاكل أدت اليه .

— عجيبة ؟ ! !

— أى شيء عجيب فى ذلك ؟ !

— المسألة كلها عجيبة . . أنا أعرف أنه يحب الست راجية وأعرف أنها تحبه . . وأنها ليست من صاحبات المشاكل . . إنها طيبة جداً . . وتحبه جداً .

— متأكد ؟

— متأكد فقط . . أستطيع أن أقسم على هذه النعمة ، (ورفع رغيفاً إلى جبينه) .

ولكن زكى قاطعه :

— لاداعى للقسم . . على أية حال هذا شئ فى مصلحتنا هذا يسهل المسألة كثيراً .

— أى مسألة ؟

ولم يجب زكى . . بل أخذ يحدق فى مدبولى وقد شرد ذهنه .

أجل ! ! لماذا لا يستعين بمدبولى ؟ ! إنه يبدو من حديثه أنه على معرفة بها ، وهو لا شك قد رآها وحدثها

كثيراً . وهو رجل طيب محبوب . وستقبل « راجية » رجاءه قبولا حسناً .

ولكن هل يستطيع إفهامها ؟ . . إنه على شيء من الغباوة . . ولكن لو ألح زكى فى إفهامه فلا شك أنه سيفهم وسيحاول إفهامها .

ثم . . ليس هناك سواه . . إنه الوسيلة الوحيدة . . ولا بد من تجربتها .

— اسمع . . يا . .

— خادمك مدبولى .

— اسمع يا مدبولى . . هناك مسألة هامة . . يتوقف عليها شفاء سيدك إلى حد كبير . . وأعتقد أنك خير من يستطيع أداءها .

— أنا ؟ !

— أجل أنت .

— أنا يا سيدى لا أفهم كثيراً فى الطب . . إن والدتى كانت « داية » . . وأبى كان « حلاق صحة » . . ولكن أؤكد لك أنهما لم يورثانى — عليهما رحمة الله — أى شئ من معلوماتهما الطبية .

— لسنا نريد منك خدمة طبية . . كل ما نريده منك هو

أن تقنع « راجية » بالحضور إلى الطبيب للتحدث معه .

ـــ أنا ؟ . . أحضر راجية ؟ ! . . لا . . لا . . بعد ما حدث لا أجرؤ على الدخول .

ـــ ما هذا الصياح ؟ ! . . أمجنون أنت ؟ ! . . أهذا هو الإخلاص لسيدك ؟ ! أتخاف من فتاة ؟

ـــ أنا لا أخاف منها . . إذا كان عليها هى فإنى على استعداد لكى أطير إليها حالا . . إنها طيبة جداً ، كالسكرة .

ـــ إذاً ممن تخاف ؟

ـــ جدّها ـــ يا سيدى ـــ أعوذ بالله .

ـــ ماذا سيفعل بك ؟

ـــ لو ذهبت قبل الغداء . . قد يأكلنى .

ـــ إلى هذا الحد ؟

ـــ وأكثر .

ـــ إذاً اذهب إليها بعد الغداء .

ـــ إسمع ياسيدى . . ليس هذا وقت مزاح .

ـــ أنا لا أمزح . . لا بد لك أن تذهب . . إن المسألة حقيقة ذات فائدة كبيرة فى علاج سيدك .

ـــ إذاً أذهب والأمر لله . . ولكنى سأبلغ الأمر

أولا إلى « سيدة » .

ــ سيدة ؟ . . من تكون سيدة ؟

ــ خادمة راجية .

ــ لا . . لا . . يامدبولى أريد أن تبلغها شخصيا . . أريد منك أن تحاول التأثير عليها بنفسك .

ــ إنى أستطيع التأثير على « سيدة » أكثر مما أوثر عليها . . إن بيننا علاقات طيبة . . وسيدة بدورها تستطيع التأثير على سيدتها أكثر مما يؤثر عليها أى شخص آخر . . ثم هى تحب سيدى ابراهيم وهى ليست مجرد خادمة . . انها فى حكم المربية .

ــ إذا كنت واثقا من هذا . . فافعله . . المهم هو أن تقنع راجية بالحضور الى الطبيب . . وعندما تصل الى القاهرة دعها تحدثنى فى التليفون حتى أصطحبها الى هناك .

ــ ان شاء الله . . ربنا يسهل .

وهمّ مدبولى بالانصراف ، ولكنه التفت فجأة وسأل متداركا :

ــ ولكن . . من سيمكث مع سيدى ؟

ــ سأمكث معه أنا . . وسأرسل فى احضار خادمى

محمود حتى تحضر . . لاتحمل له هما . . كل ما عليك هو أن تحقق مهمتك وتسرع بالعودة .

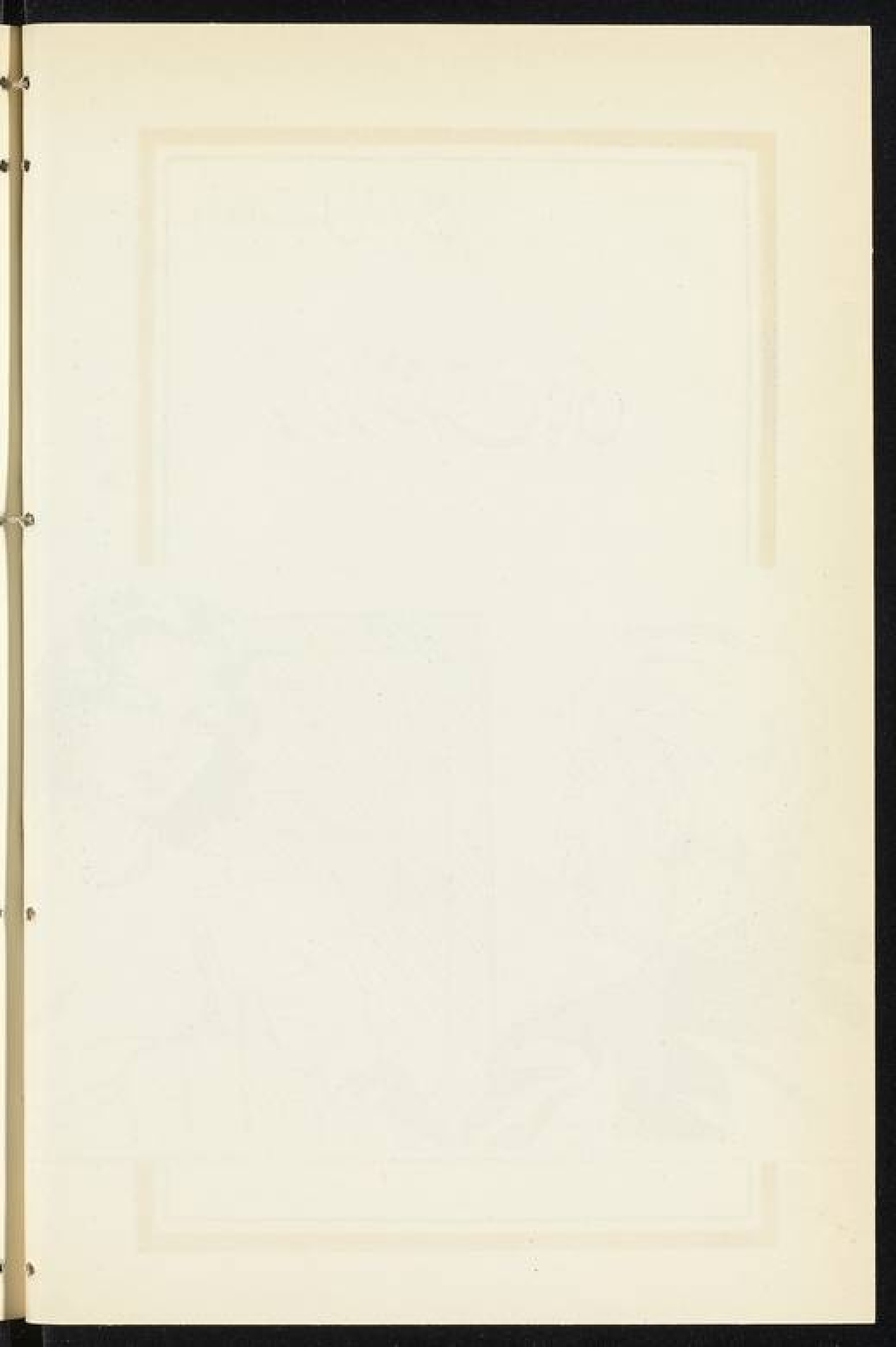
— حاضر . . حالا . . حالا . . سأحاول أن ألحق بأول قطار .



الفصل الرابع

ما في القلب باق





واندفع الرجل الطيب الأمين إلى مطبخه يهرول بجسده الممتلىء وبطنه البارز وأمسك بمعطف أبيض علق فوق مشجب فى المطبخ فدس فيه جسده ثم قذف بالطربوش على رأسه ، وأخذ يتلفت حوله فى حيرة كأن هناك شيئاً هاماً يحاول تذكره . . وأخيراً اندفع إلى الباب ورفع يده إلى أعلى وجذب عصاه المعلقة خلفه وانطلق إلى الخارج .

وفى أول قطار إلى الاسكندرية ألقى الرجل نفسه فوق المقعد وتنفس الصعداء ، ولم يكد جسده يحس الراحة والاستقرار حتى انطلق ذهنه يفكر فيما هو مقدم عليه .

من كان يصدق أن سيده العاقل الرزين يحدث له هذا ؟ حقيقة أنه كان أحياناً يأتى بتصرفات لا تعجبه كثيراً . . وحقيقة أنه كان كثير الشرود والذهول . . دءوباً على الوحدة والتنتنة والدندنة .. ولكن هذا لم يكن قط ليودى به إلى ذلك المصير .

أكان يخطر له ببال أن إبراهيم . . الذى رباه كابنه . . بعد عشرة الأعوام الطوال . . لايعرفه . . سبحان الله !

وما سر هذه الحقيبة التى يحتضنها ليل نهار ؟ ! لابد أن بها شيئاً هاماً . . لو استطاع أن يعرف ما بها !! ولكنه

لا يمكنه منها . . إنه يحتضنها ليل نهار . . حتى فى نومه لا يتركها لحظة .

ومسألة فك خطبته هذه . . عجيبة جداً . . إنها لا شك كانت مفاجأة . . فهو يعرف أن العلاقات كانت على أطيبها ويعتقد أن الزواج كان يوشك أن يتم قريباً .

ما ذا حدث ياترى ؟ هل فعلت راجية شيئاً ؟ لا يظن مطلقاً . . انها فتاة طيبة كاملة . . . ولكن من يدرى . . . « ياما تحت السواهى دواهى » ، وسبحان علام الغيوب .

ترى هل ستقبل المجيء الى القاهرة ؟ . كيف ستلقاه بعد ما حدث ؟ ! وهل علمت ما حدث لإبراهيم ؟ !

أجل . لا شك أن « سيدة » أنبأتها . . فقد استطاع هو أن يخبر « سيدة » بالنبأ فى كلمات خاطفة قبل العودة الى مصر ، ولكن لم تخبره « سيدة » عن نبأ فك الخطبة .

ربما لم تكن لديها فرصة ، أو ربما لم تخبرها « راجية » . ولكن هل تخفى « راجية » عنها نبأ كهذا ؟

هذه كلها أحاجى وألغاز . . أعيا ذهنه التفكير فيها والخبط فى معمياتها .

يجب أن يريح ذهنه ، بعد لحظات سيلتقى بسيدة ، وسيعرف منها الكثير .

وأغمض الرجل عينيه ، ولم يدر أنام أم لم ينم ، ولكنه فتح عينيه على حركة فى القطار وأبصر ملامح الاسكندرية تقترب فى بطء بمزارع الموز والبرج العالى فى يمينه والأبنية تزداد وضوحاً فى خط الأفق .

وفى طريقه إلى السيوف ، كان يحس ، فوق كل مشاعر القلق والضيق والخوف التى تتنازع نفسه ، شعوراً باالرحة قد يصل إلى حد النشوة .

عجباً ! ! لِمَ كل هذا ؟ أمن أجل سيدة ؟

ولِمَ لا ؟ إنها لطيفة طيبة ، بنت حلال ، وبها كل مايعجبه؛ حقيقة أن بها شيئاً من سلاطة اللسان ، وقلة الأدب ، ولكنها سلاطة بخفة دم ، وقلة أدب بظرف ولطف ، أم ترى المسألة كلها لا تزيد على « عين الرضا » .

على أية حال ، هو يحبها ، ويظن أنها تحبه ، أو على الأقل تحب شتمه ومضايقته ، وهو نوع من الحب على أية حال .

ولكن ما هذا السخف الذى يشغل ذهنه به ؟ ! أهذا وقته ؟ ! أفى مثل هذه المآزق والأزمات يفكر عجوز مثله فى هذا العبث ؟ !

إنه سيلقاها جاداً عابساً .

ولكن أهى سترد له جِدّه وعبوسه ؟ ! أم يستطيع هو أن يحتفظ أمامها بجده وعبوسه ، وهى المهزار الضاحكة حتى فى أشد أوقات الضيق والحرج ؟ !

على أية حال ، سيؤدى هو واجبه ، فيجد ويعبس ، ولتفعل هى ما تشاء ، لا بد أن يلبس ثوب الوقار حتى تنتزعه هى عنه .

ووصل إلى البيت . وبدأت أولى المشاكل .

كيف يتصل بـ « سيدة » ؟ !

إن لديه الطريقة العادية التى يتصل بها دائماً وهى قرع نافذة مطبخها بالحصى من نافذة مطبخه .

ولكن مثل هذه الطريقة كانت تستعمل فى أيام السراء عند ما كان المزاح مستحباً واللهو مرغوبا .

أما الآن ، فالمسألة جد ، والوسيلة لا بد أن تكون جداً ، إذاً يذهب إلى الباب ويدق الجرس ، ثم يقول إنه يريد أن يقابل سيدة .

وإذا أطل الجد ؟

يا ساتر يا رب . فال الله ولا فالك يا مدبولى !

ماذا يقول له ؟ . يقول إنه أتى لمقابلة سيدة ؟ لمه ؟ للمغازلة ؟ أم لكى تقنع سيدتها بالحضور إلى القاهرة ؟

من أجل ماذا ؟ هل يعرف الجدّ فك الخطبة ؟ وهل يعرف ما أصاب ابراهيم ؟

كل هذه مشكلات تواجهه إذا ما ذهب بالطريق الطبيعى ودق الجرس .

أما بالحصى ، وقرع النافذة ، فالطريق آمن .

وأمسك مدبولى بحصاة وقذف بها النافذة وهو يردد : « لا تدخلوا البيوت من أبوابها ، إن نوافذها آمن كثيراً » .

ولم تمض لحظة حتى فتحت النافذة وأطلت سيدة ، ولم تكد تراه حتى ضربت صدرها بيدها وباليد الأخرى أصلحت « أوية » المنديل الذى عصبت به رأسها .

— مدبولى ؟ . « ينيِّلك » . متى حضرت ؟ ألم تسافر صباح اليوم ؟

ولم يكن مدبولى يعتبر لفظة « ينيِّلك » داخلة ضمن ألفاظ السباب فقد كانت تخرج من فم « سيدة » ببساطة التحية ، كأنها « سعيدة » أو « سلام عليكم » ولذلك فقد أجاب بتؤدة وأدب :

— سعيدة مباركة ؟ لقد أتيت حالا ، منذ دقيقة واحدة .

— ولِمَ أتيت ؟ ! وكيف حال سيدى ابراهيم ؟

— أتيت من أجله ، إن حالته كما هى ، لقد عرف

الدكتور منه أنه فك خطبته ، هل تصدقين ذلك ؟

وأطرقت « سيدة » برأسها ، ورأى مدبولى على سيمائها علامات حزن شديد ، وأطلقت من صدرها تنهيدة حارة وأجابت :

— علمت منها ذلك الصباح .. عندما أنبأتها بسفركم المفاجىء وما حل بسيدك ، وكانت على حال من الحزن واليأس مروعة . ولقد حاولت عبثاً أن أعرف ما بها ، فقد أغلقت عليها حجرتها ورفضت .. حتى أن تجيبنى أنا ، وعندما أنبأتها بما حدث اليوم ، كادت تجن ، وقالت لا بد أن هناك سراً .

— معها حق ، أنا نفسى أوشك أن أجن ، ما السر ؟ ما السبب ؟ وكيف يحدث كل هذا فى هذه الفترة القصيرة ، يومين أو ثلاثة ؟ إنها « عين أصابته » كما قلت ألف مرة ، أو من يدرى ؟ . ربما يكون سحراً ، أنا دهش ، أنا مذهول .

— ولكن ما الذى أتى بك الآن ؟

— إنى أتيت لأقابلك من أجله ، إنك تستطيعين أن تؤدى له خدمة جليلة .

— أنا ؟ ! كيف ؟

— اسمعى أولا . اهبطى إلى الحديقة ، واقتربى من

السور ، فالحديث العلنى من النوافذ غير مستحب فى مثل هذه الأمور ، وأخشى أن يسمعنى سيدك الكبير أو سيدتك .

وهبط الاثنان واقتربا من ناحية منخفضة من السور الفاصل بين الحديقتين وهمس مدبولى :

— أين سيدتك ؟

— فى الناحية الأخرى من الحديقة .

— اسمعى يا سيدة ، هل تستطيعين إقناعها بالذهاب إلى القاهرة ؟

— لمـــه ؟

— الدكتور يريد أن يتحدث إليها علّه يعرف شيئا عن سبب الحالة .

ووجمت « سيدة » برهة ، وقبل أن تجيب أجاب صوت راجية ، وقد ظهرت فى الحديقة من وراء احدى الخمائل وبدت عليها دهشة شديدة :

— الله ! مدبولى ! ! ألم تسافروا ؟

— سافرنا فى الصباح وحضرت أنا الآن .

— لمـــه ؟

— والله ، ياسيدتى ، كنت أريد شيئاً .

ثم صمت متردداً .

واقتربت « راجية » من السور ، وانتظرت أن يتم مدبولى حديثه ، فلما يئست قالت له فى شئ من نفاد الصبر والضيق :

— ماذا تريد ! انطق .

— أريد . . لقد قلت لسيدة . اسأليها .

وفى شئ من التوسل اقتربت منها سيدة وقالت :

— كان يريد منك الذهاب إلى القاهرة لأن الدكتور الذى يعالج سيدى ابراهيم يريد أن يقابلك .

— يقابلنى أنا ؟

وهزّ مدبولى رأسه بالإيجاب ، وعادت راجية تتساءل :

— ولكن لماذا ؟ ماذا أستطيع أن أفعل أنا ؟

— إنه يريد أن يتحدث معك ، وقد قال لصديقه الدكتور زكى إنك تستطيعين أن تفعلى شيئاً كثيراً من أجله .

— أنا ؟

وصمتت ، وبدت عليها الحيرة والحزن واليأس ، وقالت سيدة فى لهجة متوسلة :

— لماذا لا تذهبي يا سيدتى ؟

— بعد كل ما حدث ؟

— أجل . ألا يحتمل أن يكون ما حدث نتيجة للأزمة

التى يمر بها ، يجب أن تعاونبه ياسيدتى .

واستمر إطراق راجية ثم همست أخيراً :

— وهى أنى قبلت الذهاب . . كيف أقنع جدى بالسفر ؟

— جرّبى أن تقنعيه بأية وسيلة .

— لا أظن المسألة سهلة إلى هذا الحد .

— قولى له . . . .

ولم تتم « سيدة » قولها فقد انطلقت صيحة من داخل الدار تنادى راجية ، وكانت صيحة الجد .

وأصاب الثلاثة الارتباك ، وهتفت سيدة :

— إصعدى إليه ياسيدى ، وحاولى ، عسى أن يوفقك الله .

واختفى مدبولى . . واندفعت الاثنتان إلى الداخل .

وبعد لحظة كانت راجية تقف أمام جدّها مطرقة ، ورفع الجدّ عينيه عن رسالة أتم قراءتها ، ثم خلع منظاره وقال فى لهجة مقتضبة :

— سنذهب باكر إلى القاهرة .

هكذا ، مرة واحدة ، القاهرة ، القاهرة .

ولم تصدق راجية أذنيها ، وهمت أن تقفز إليه لتعانقه ،

ولكنها تصنعت الثبات وقلة الاكتراث وتساءلت فى صوت خافت :

— لماذا ؟

— أختى « زينب » مريضة وقد أرسلت « رقية » ابنتها هذه الرسالة اليوم .

ثم مدّ يده إليها بالرسالة ، وتناولتها راجية ومرت بعينيها على سطورها مراً سريعاً ، لم تستطع أن تميز سوى كلمات قلائل ، ثم خفضت يدها بالرسالة ، ولم تجب ، وقال الجدّ :

— سنأخذ « ديزل » الظهر .

ودون أن تدرى وجدت نفسها تتساءل :

— ولماذا لا نأخذ قطار الصباح ؟

— لدىّ موعد فى الاسكندرية لا بد أن أنتهى منه .

— أمرك .

— على أية حال ، الظهر من الصباح قريب ، جهزى الحقائب واعملى حسابك أننا سنمر على العزبة فى عودتنا .

— حاضر .

وانتهى الحديث ، وعادت راجية إلى حجرتها لتجد سيدة فى انتظارها وهى تسألها متلهفة :

— ماذا قلت له ؟

— لم أقل شيئاً .

— كيف ؟

— لقد قال هو كل شئ .

— ألم تحاولى إقناعه ؟

— أقنعه بماذا ؟

— بالسفر .

— طبعاً لم أحاول إقناعه .

— لماذا ؟

— لأنه هو الذى أقنعنى بالسفر ، لقد أنبأنى من تلقاء نفسه أننا سنذهب فى الغد إلى القاهرة لزيارة أخته زينب لأنها مريضة .

وتنهدت سيدة ورفعت يديها إلى السماء وهتفت « يامدبر الكون » ، وبعد لحظة كان الحصى يطرق نافذة مدبولى ، وكانت سيدة تهتف به :

— انتهينا ، سنسافر ظهر الغد .

— هكذا بسرعة ؟ . من الذى أقنعه ؟

— أقنعه ربنا ، أصاب أخته بداء عجل بسفره ، وصدق من قال : مصائب قوم ....

— بشرك الله بالخير . . هذا أحلى مرض سمعت عنه .

— ومتى ستسافر أنت ؟

— الليلة .

— ولمَ لا تبق إلى الغد ؟

— خير البر عاجله ، ومن الأفضل أن أعود الليلة حتى أنبىء سيدى زكى بالأمر لكى يعمل ترتيبه مع الدكتور .

— وكيف تقابله سيدتى ؟

— سأعطيك رقم تليفونه فى البيت والعيادة ، ودعيها تتصل به بمجرد وصولها .

وأملاها أرقام التليفون ثم ودعها واختفى .

وعادت سيدة إلى راجية فوجدتها ساهمة شاردة ، وقد أسندت رأسها على كفها ، وربتت كتفها قائلة فى خشية :

— مالك يا سيدتى راجية ؟ ! أعدل جدك عن السفر ؟

— لا .

— إذاً فعلام الحزن ، ما دمنا سنسافر إلى مصر فى الغد؟

— وأى فائدة فى السفر إلى مصر ؟

— ستلتقين بالدكتور وتعاونيه فى علاج إبراهيم .

— وهبه شفى .. ماذا أرتجى منه وقد قطع كل شئ بيننا؟

— لا تيئسى هكذا يا سيدتى ، عندما يفيق إلى نفسه لابد أن يعود كل شئ إلى ما كان عليه .

ـ لا أعتقد .

ـ على أية حال ، لا أظنك تكرهين شفاءه .

ـ ولهذا سأذهب وسأفعل كل ما أستطيع . . إذا كان هو قد تخلى عنى ، فلن أتخلى عنه .

ـ وإذا لم تتخلَّىْ عنه فلن يتخلى عنك الله . إن هناك رباً يا سيدتى ، علمه فوق علمنا ، وتدبيره فوق تدبيرنا ، وإرادته فوق إرادتنا . . كل ماعلينا أن نفعل الخير ونمضى فى طريقنا .

ـ أجل . صدقت ياسيدة . . نفعل الخير . . ونمضى فى الطريق ، لكى يدمى الشوك أقدامنا .

ثم أطلقت تنهيدة يأس ومست بكفيها بشائر دمع توشك أن تهطل .

٭ ٭ ٭

وفى اليوم التالى دق التليفون فى عيادة الدكتور زكى قبيل الغروب ، فرفع السماعة . . وهو يتمنى أن تكون هى المتحدثة . . ولم تخيب أمله وحملت الأسلاك إلى أذنيه صوتها الرقيق تسأله :

ـ أأستطيع أن أتحدث إلى الدكتور زكى ؟

ـ أنا الدكتور زكى .

— مساء الخير يادكتور . . أنا راجية .

— أهلا وسهلا . . راجية هانم . . مساء الخير ، حمد الله على السلامة ، أنا متأسف جداً على ما قد أكون سببته لك من انزعاج ، ولكن لم يدفعني إلى ما فعلت إلا ثقتي بأنك سترحبي بمعاونتنا وأن أمر إبراهيم يهمك كما يهمنا .

— بالطبع يادكتور ، إني سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

— وهذا ما كنت أتوقع . . متى تستطيعين الذهاب إلى الدكتور توفيق ؟

— وقتما تشاء .

— أيمكن اليوم ؟ ! لقد أنبأته عندما علمت أنك ستحضرين ، أننا قد نزوره اليوم أو غداً .

— أظن من الخير أن نؤجلها إلى الغد .

— كما تشائين ، لاتضايقي نفسك . . كان يجب أن أعرف أنك مازلت متعبة من السفر .

— ليست مسألة تعب . . ولكني لا أجد من اللائق أن أترك عمتي المريضة في أول يوم .

— معك حق . . لنؤجلها إلى الغد .

— صباحاً ؟

— كما تشائين .

ـــ فى أى ساعة ؟

ـــ العاشرة ؟

ـــ أجل .

ـــ حسن جداً . . أتفضلين أن نلتق فى مكان . . ثم نذهب معاً ، أم نلتق فى العيادة مباشرة ؟

ـــ أين العيـادة ؟

ـــ شـارع ماسبيرو . . الشـارع الموصـل بين كوبرى « أبو العلا » وشارع الملـكة .

ـــ أعرفه جيداً . . من أى ناحية فى الشارع ؟

ـــ من الناحية الأقرب إلى شارع الملكة هى أول عمارة بيضاء عالية رقم ٢٧ بجوار إدارة شركة الترام . . أتعرفينها ؟

ـــ أجل . . إنى أعرفها تماماً . . وأستطيع أن آتى إليها مباشرة ، فالمسـافة بينها وبين بيت عمتى ليست بالبعيـدة . إن البيت فى الزمالك ، ولن يستغرق الوصول إليهـا أكثر من خمسة دقائق فى السيارة .

ـــ إذاً اتفقنا . . سأكون هناك فى الساعة العاشرة .

ـــ وأنا سأحضر فى نفس الساعة .

ـــ الشقة رقم ٢٧ الدور الخامس عيـادة الدكتور توفيق عبد الله . . وعسى ألا يعوقك عائق .

– سأحضر إن شاء الله .

– مرة أخرى أكرر الاعتذار عن إزعاجك . . إنى أعتقد أنى السبب الأول فى كل ما حدث .. إنى أنا الذى ألقيت به إلى هناك . كان يجب أن أكون جاراً أقل ضرراً .

– هذا قضاء الله ولا راد لقضائه .

– صدقت . . أشكرك جداً على تكرمك بالحديث .

– العفو . . لا شكر على واجب .

ووجد زكى أن الحديث قد طال ، وانتظر أن تكون هى البادئة بختامه وبإلقاء تحية الوداع . . ووجد أنه قد قال كل كلمات الشكر والأسف ولم يعد فى جعبته شىء .

ولكنها هى ، كان فى جعبتها شىء .. لم تلق به بعد .. كان يبدو فى لهجتها التردد كأنما تريد أن تسأله شيئاً .

وبعد فترة صمت قالت :

– كنت أود أن أسأل عن شىء يادكتور .

– تفضلى . . سلى ما تشائين .

– هل . . هل . . .

واستطاع هو أن يخمن .. ولكنه لم يجسر على التصريح بالإجابة قبل أن تتم سؤالها ، وأخيراً أتمته :

– أيكون موجوداً ؟

ـ لا . . ولكن إذا كنت ترغبين .

ـ لا .. لا .. لست أرغب شيئاً .. إنى أسأل فقط .

ـ لقد نصح الدكتور بأن تأتى على حدة فهو لا يستطيع أن يخمن وقع لقائك عليه .. ولذلك فضل الحذر .

ـ معه حق .. هذا أفضل .. أفضل كثيراً .

لقد كانت تتوق إلى لقائه . . لكنها مع ذلك تحذره . . إنها تخشى منه المجهول الذى توشك أن تلقاه فيه .

هل سينكرها ؟ هل سيتجاهلها ؟

إنها تجزع من أن تبصره على حالته الأخيرة . . كيف أصبح . . وكيف يبدو .

ووجدت أن السماعة ما زالت فى يدها . . وأن الطرف الآخر ما زال ينتظر منها أن تستدعى ذهنها الشارد . . لكى تصرفه إلى حاله .

وأصابها الارتباك وتمتمت معتذرة :

ـ طيب يا دكتور .. سنلتقى فى الغد إن شاء الله .

ـ إن شاء الله .

ـ تمسى على خير .

ـ وأنت من أهله .

ووضع كلاهما السماعة .

وكان فى ذهن كل منهما عن الآخر صورة قديمة باهتة من اللمحات العابرة البعيدة التى كان يبصر بها كل منهما صاحبه فى فترات الصيف الماضية .

أما صورتها فكانت أقرب إلى الطفولة . . كان يذكرها مجرد صبية رقيقة ، دقيقة .

أما صورته . . فكانت نحيفة طويلة جادة . . لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، يميزها شعر غزير حالك ، وحركات سريعة وثابة .

* * *

والتقيا فى الصباح . . وعند ما ألقت عليه النظرة الأولى لم تجد به كثير اختلاف عن الصورة القديمة التى رسمتها فى ذهنها للجارهم الدكتور كما كانت تسميه .

أما هو . . فقد كان الفارق الذى وجده ، أكبر من أن يكتم فى نفسه آثاره ، فارتسمت الدهشة على وجهه .

لم تعد طفلة ولا صبية وإن كانت الرقة والدقة لاتفارقانها بل حددت نوع جمالها ، فأبدتها فتاة بديعة التكوين ، رائعة السيماء . . ولكن فى رقة ودقة . . وليس فورة طاغية تحس من خطواتها وهى مقبلة عليك إحساسك بنسمة رطبة عطرة تبل روحك وتندى فؤادك . . أكثر مما تحس بلفحة أنوثة

حارة تثير أعصابك وتلهب نفسك . . لقد كان جمالا ينزل على النفس برداً وسلاماً .

وتصافح الاثنان ولم يكن لديهما الكثير مما يقولانه ، وكان الدكتور توفيق فى الانتظار ، فأشار إلى باب حجرته قائلا :

— أظننا من الأفضل ألا نضيع وقتاً ، فأنا أعرف أنك لا تملكين وقتك تماماً ، تفضلى .

— تفضل أنت .

وتقدم زكى وطرق الباب ثم دفعه وأشار إليها بالدخول .

دخلت راجية الحجرة ودارت عينيها دورة سريعة فى محتوياتها ، ثم استقرت على الرجل الواقف خلف المكتب مفتر الثغر ، باش الوجه ، باسطاً يده بالسلام .

وشدّت على يده وهى تشعر أن هذا الرجل مطمئن ، مريح .

وشدّ هو على يدها وقد أحس بما سبق أن شبهناه ، بنسبة رطبة عطرة ، تبل الفؤاد وتندى الروح .

وجلس الثلاثة ، واستطاع توفيق ، أن يبدد بسرعة سحب الحرج والتكلف التى توشك أن تخيم عليهم ، وأن يفرض بطلاوة حديثه نوعاً من الألفة الطبيعية غير المفتعلة .

ولم تعرف راجية ، أكانت تلك قدرة يمتاز بها الدكتور توفيق وحده ، أم أنها ميزة من مزايا الأطباء النفسانيين ، وضرورة من ضرورات عملهم .

على أية حال ، لقد ملأها الرجل ثقة واطمئناناً ، وأزال من نفسها كل شعور بالقلق والحذر .

كان متحدثاً فى غير ثرثرة .. كان يعرف كيف يفك عقدة الصمت .

ويجرى الحديث سلساً طلياً فى سهولة ويسر دون أن يشعر أنه يقصد ذلك ، بل تحس أن كل ما يقوله ضرورة من ضرورات الموقف .

وعندما انتهى الحديث عن التحيات ، والجو ، والاسكندرية ، والسيوف ، وغيرها من توافه الأمور ، ومقدماته ، بدأ الرجل يطرق الموضوع وكأنه لايطرقه ، بل هو يصله بما سبقه كأنه ما زال يتمم حديثه عن الجو .

واستطرد الرجل يقول :

— على أية حال ، أنا أحب الاسكندرية فى الشتاء ، إنها لطيفة وهادئة ، وليست بها رطوبة الصيف ولاضجة المصطافين .

وأجابت راجية :

ــ معك حق ، إنها ــ باستثناء أيام الزوابع والأمطار ــ ولا سيما فى شهرى أكتوبر ونوفمبر تكون رائعة ، والبحر أملس كالزيت ؛ ولكن هدوءها ، ولا سيما فى منطقة السيوف يكون مملا مزعجاً فى بعض الأحيان .

ــ وكيف تقتلين الملل ؟

ــ بأشياء كثيرة ، الرسم والموسيقى .

ــ أتحبين الموسيقى ؟

وبدأت تحس أنها توشك أن تنزلق فى الفخ ، ولكن سؤال الرجل كان برىء المظهر فلم تملك إلا إجابته :

ــ أجل ، أحبها .

ــ أنا أيضاً أحب الموسيقى ، أى نوع تفضلين ؟ ! الكلاسيك ؟

ــ أنا أحب الموسيقى الجيدة . أياً كان نوعها ، الموسيقى التى تصل إلى قرارة نفسى ، بغض النظر عن نوعها .

ــ ذلك هو رأيى بالضبط . . وذلك هو ما قلت لإبراهيم . إنى أحترمه وأحبه لأن كل موسيقاه ممتازة ، لم أسمع له لحناً واحداً ، لم يطربنى ، ما رأيك أنت ؟

ولم تجب راجية ، ولم يبد عليه أنه يحاول أن يستدرجها إلى شىء ، واستطرد ليقول دون أن ينتظر إجابتها :

ـ لقد حدثته عن آخر لحن سمعته له وهو « ساعة غروب » فحدثنى كذلك كيف وضعه ، وكيف عزفه لك فى ساعة غروب . . ووصف لى أثره عليك ، وكيف قال لك لو كنت معى لكان لحناً آخر ولسميته « ساعة شروق » .

وهتفت راجية فى تأثر شديد :

ـ أحقاً قال ذلك ؟

وأدركت بعد سؤالها أن إرادتها قد خانتها ، وأنها كان يجب أن تكون أكثر ثباتاً من ذلك ، ونقلت بصرها بين الرجلين ، والتقى بصرها بأحدهما ، أما الآخر ذو العوينات فقد كان مطرقاً برأسه .

وكأنما أحس زكى أن وجوده قد يزيد فى حرج الفتاة ، وأنه قد يعرقل عمل صاحبه ، وأن خيراً له لو ترك الغرفة لأمر ما .

ولم يكن الانسحاب بالأمر الصعب ، ولا سيما فى لحظة الصمت الحرج التى أعقبت سؤالها المتلهف فنهض فى هدوء قائلا :

ـ أتسمحان لى ، بضع دقائق .

ثم غادر الغرفة قبل أن يسمع ردهما .

ومرة أخرى أوشكت سحب الحرج والتكلف أن تخيم

عليهما ، ولكن توفيق وجد أن من الخير أن يبدأ عمله فاتجه رأساً إلى الموضوع :

ـ اسمعى ياراجية ، سأحدثك بمنتهى الصراحة ، وأرجو أن تعتبرينى فى حديثى مجرد صديق ، إنى لا أباشر عملى كطبيب ولكن كإنسان . . فانزعى من ذهنك أنى طبيب . ولست مكلفة بأن تقولى لى شيئاً لا يعجبك أو تجدين حرجاً فى قوله ، لأنك حرة فى كل ما تقولين ، وأنا بالطبع لا حق لى فى استجوابك ، ولكنها مجرد مساعدة تتطوعين بها لإنقاذ شخص نرغب جميعاً فى إنقاذه . . ولكن قبل أن نبدأ الحديث أحب أن أوجه لك سؤالا خاصاً أرجو منك أن تجيبى عليه بمنتهى الصراحة و « البساطة » لأنى أعتقد أن عليه تتوقف قيمة المعاونة التى يمكن أن ننتظرها منك ، وعليه كذلك يتوقف مدى الجهد الذى يمكن أن أطلبه منك وآمل أن تؤديه لى ، ومدى الصراحة التى يمكن أن نتحدث بها بلا حرج ولا مضايقة ، أتفهميننى ؟

وأحست راجية كأن الرجل قد سلط عليها ضوءاً كشافاً أو أنه وضعها على قطعة من الزجاج وأخذ يفحصها بالمجهر . وأحست بأنفاسها تتلاحق وأخذت أصابعها تضغط على جانب المقعد ، ثم رفعت بصرها فواجهت عينيه اللتين ترقبانها من

وراء المنظار ، وأحست منهما الثقة والطمأنينة وداخلها إيمان بأن صاحبهما لا يملك أن يهب سوى العون والمساعدة ، ورويداً رويداً بدأ التوتر فى أعصابها يتراخى والحرج يتبدد .

وعاد الرجل يسأل فى رقة :

— ما رأيك ؟

ودون أن ترفع إليه بصرها أجابت :

— سل ما تشاء .

— فهمت من حديث ابراهيم أنك تحبينه ، أو على وجه أدق ، كنت تحبينه ، فهل ما زلت تحملين له هذا الحب ؟

وأجابت بهزّة رأسها دون أن تنفرج شفتاها .

وعاد هو يواصل أسئلته :

— رغم ما حدث ؟

وانفرجت شفتاها عن إجابة قصيرة بما يشبه الهمس :

— أجل ، رغم ما حدث .

— ألم تؤثر فعلته فى نفسك ؟

— أثرت بالطبع ، ولكن ما فى القلب باق كما هو .

— أأستطيع أن أومن برغبتك القوية فى معاونته ؟

— سأفعل من أجله كل ما أستطيع .

ـ رغم أن شفاءه ، قد لا يكون ذا نفع لديك . .
أعنى ، أن . . .

ـ أفهم جيداً ما تعنى ، وأنا أريد معاونته من أجل نفسه ، لا من أجل نفسى .

ـ حسن جداً . . هذا هو ما كنت أود أن أعرفه ، وبهذه الطريقة ، نستطيع أن نعمل على أساس متين من الرغبة المشتركة والثقة المتبادلة . . لكى نحقق هدفاً واحداً . أليس كذلك ؟

ـ أجل . . إنى على أتم استعداد لبذل كل جهد تطلبه فى سبيله .

ـ أنا لا أريد جهداً ، كل ما أريد هو أن تستريحى فى مقعدك ، وتتحدثى . . حدثينى عن كل شىء . . تكلمى بإسهاب . قولى ما شئت من التفاصيل والدقائق ، والتفاهات والسخافات ، دون أن تخشى المضايقة أو الإثقال . . فإنى مستمع جيد ، وأنا أجد فى التفاصيل التى قد تبدو تافهة أشياء قيمة قد توصلنا إلى نتائج لا نتوقعها ، حدثينى عن كل خصام حدث بينكما ، وعن كل ما كان يضايقه ، وعما يظننه أدى إلى الانفصال .

وهزّت راجية رأسها فى حيرة ، ثم رفعت كتفيها وأجابت:

– إن التفكير فى هذا قد يودى بى إلى الجنون ، إنى لا أذكر أنى فعلت قط ما يضايقه ، لا أذكر شيئاً أبداً أبداً .

– إذاً ، دعينا من هذا ، حدثينى من البداية .. قصى علىّ القصة من أولها ، كيف التقيتما ؟ ! وكيف تطور الأمر بينكما ؟

وأحست راجية أن الرجل دفع فى نفسها رغبة فى الحديث . إنها هى نفسها فى حاجة إلى علاج . إنها فى حالة جفاف ومرارة قد تضيعها الذكرى المحيرة . إن بها حنيناً إلى ماض جميل . إن بها شوقاً إلى لحظات مضيئة .. ومضت فى حياتها كلمح البرق . . أعقبتها ظلمة كئيبة موحشة .

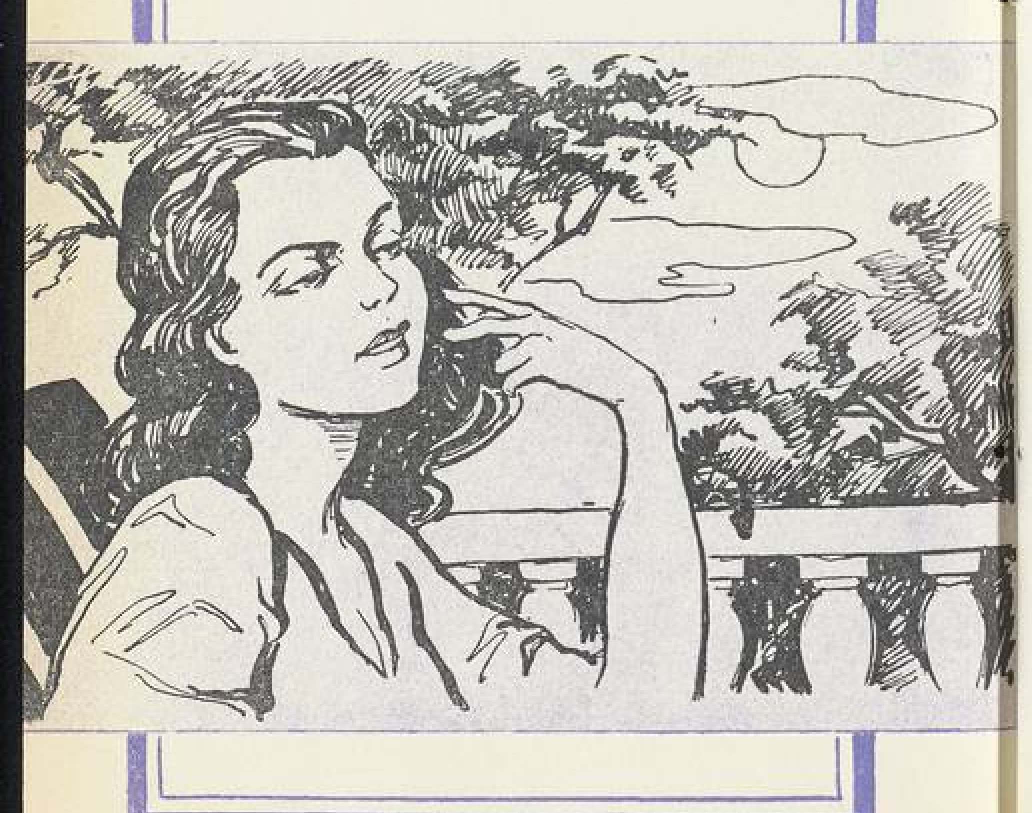
ما أحب أن تغمض عينيها ، وتحيا بذهنها فى ذكرياتها الحلوة ، البائدة .

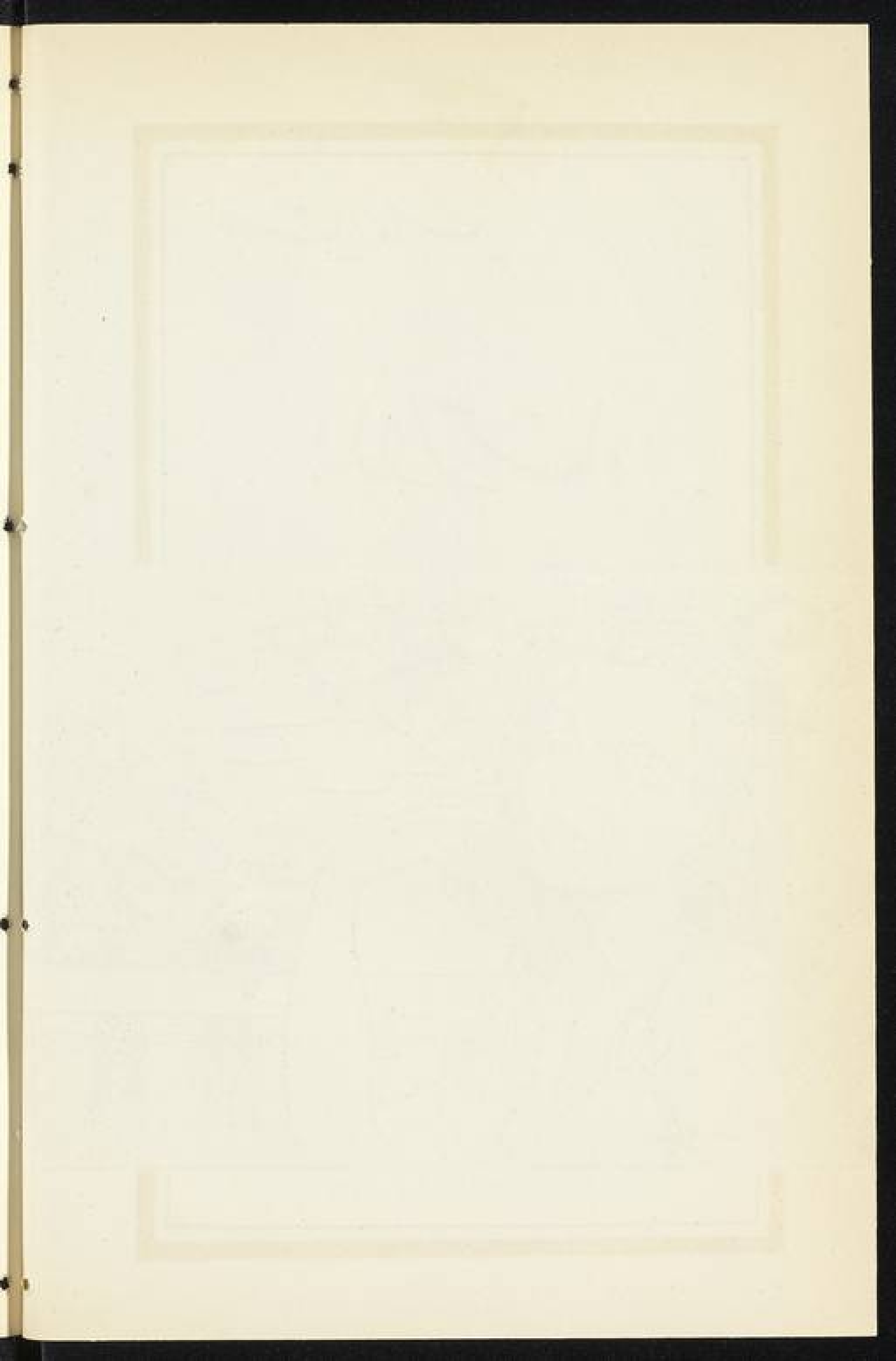
وأطلقت من صدرها زفرة حملتها مرارة الحاضر . ثم ألقت برأسها على مؤخرة المقعد ، وأرخت جسدها وأغمضت عينيها ، وأغفت كل حواسها ، إلا من ذهن ينطلق فى ربوع الماضى ، ولسان يهمس بما يراه .



الفصل الخامس

بلا رجاء





قبل أن أقص عليك كيف التقينا وكيف توثقت عرى المحبة بيننا ، أود أن أعطيك لمحة سريعة عمن أكون وكيف كنت أحيا قبل أن ألتقي به . . كنا نعيش في بيتنا في السيوف أنا وجدي في شبه عزلة عن العالم ، فقد فقدت أبويّ وأنا طفلة صغيرة .

ووجد فيّ جدي عزاء عن ابنته الراحلة إذ كنت شديدة الشبه بأمي . فضمني إلى كنفه وتولى رعايتي وتربيتي . . حتى بت كل شيء لديه في دنياه الخالية .

ولقد نشأت بطبيعة خلق مرهفة الحس ، ميالة إلى الموسيقى والرسم ، ولكن جدي كان يكره تلك الفنون وكان يراها عبثاً لا طائل تحته ولا فائدة منه . وأنها أشبه بالمخدر ، الذي يصرف الإنسان عن حياة الجد والعمل . . ولكي يضمن مستقبلي بدأ هو ينسج خيوطه ويبنيه حجراً حجراً . فاختار لي زوجي المقبل وهو « ابن خالتي » عبد الرحمن حفيده الآخر وشريكي في إرث ثروته العريضة وأراضيه الممتدة وأملاكه الواسعة ، ولقد علمه التعليم الذي يكفل له إدارة كل ذلك الثراء العريض وعوّده الحياة الجادة الجافة وساعدته طبيعته على قبول تلك الحياة . . فلقد كان

جاداً ، جافاً ، مادياً ، لا يعرف سوى الأرقام والحسابات والأرض والمال والطعام ، وهكذا ضمن جدى المحافظة على مخلفاته ونحن بينها .

وفى وسط هذا الجو المادى الجاف نشأت أشبه بزهرة رقيقة بين الصخور الصلدة . . يذيبنى صوت رقيق ، وتنتشينى نغمة حلوة ، وتؤرقنى لفظة قاسية . ولم أملك إلا أن أخلق لنفسى وسط تلك الصحراء الجافة واحة صغيرة أنفيأ بظلالها وأنهل نميرها ، وأن أشيد لروحى وسط ذلك العالم المتجهم الصارم ، عالماً صغيراً حلواً كائناً فى غرفتى المطلة على الحديقة المتكاثفة الأشجار الرحبة الأرجاء .

وحاشاى أن أزعم أن هناك من كان يتعمد القسوة علىّ ، بل الأمر على النقيض . لقد كان الكل يحبنى ولكن بطريقتهم الجافة ، وكان الكل يحاول إسعادى ولكن بوسائلهم التى لم تكن تحمل إلىّ أى نوع من السعادة . بل إنى أعتقد أن ذلك الجو الصارم الجاف الذى أحاطنى به جدى لم يكن فى حد ذاته إلا دليلا على حبه إياى ومحاولته أن يحيطنى بسياج يصد عنى شرور الحياة ومفاسدها حتى يضمن لى ما يتوهمه من مستقبل سعيد .

مخلوقة واحدة هى التى كنت أجدها تستطيع فهمى ، وفهم

تفكيرى .. ولا تتهمنى بالجنون إذا شرد ذهنى عند وقوفى لأرقب الغروب ، أو دمعت عيناى وأنا أستمع إلى هديل بلبل أو نوح حمامة ، تلك هى « دادتى سيدة » التى قامت على تربيتى منذ طفولتى ، والتى كانت أماً أشبه منها مربية .. وكانت تتسلل من مخدعها لتجلس إلىّ وأنا أسترق السمع فى سكون الليل إلى الراديو وهو يحمل إلىّ النغمات الهادئة اللطيفة ، وكانت وحدها التى تجلس لتحدثنى عن أبى وعن أمى .

ولم أكن أعرف الحب بعد ، أو كنت أعرفه مجرد شعور أتوق إليه وأختزنه لفارس أحلام لم يبد فى الأفق بعد .

كنت أحب مجهولا أتوهمه ، وأتوهم فيه رقة الأزهار المتناثرة حولى وعذوبة الموسيقى المنبعثة فى أذنى ، وجمال الشروق أو الغروب الممتد أمام ناظرى .

ولم أحاول قط أن أربط بين زوجى المنتظر الذى أعدّه لى جدّى وبين فارس أحلامى الذى أعددته لنفسى ، إذ لم يكن هناك بينهما أقل شبه ولا أدنى صلة .

ورويداً ، رويداً بدأت أوهامى عن فارس أحلامى تتركز فى مخلوق لم أره ، ولكنى كنت أتخيله من بين ألحانه العجيبة التى يحملها إلىّ سكون الليل .

كنت دائماً أكثر ميلا إلى الموسيقى الغربية حتى سمعت

موسيقاه فإذا هى تشدنى فى رقة وحنان ، كأنها صدر يضمنى أو يد تربت كتفى .

وهكذا بدأ العشق . . عشق فى الهواء . . لمخلوق لم ألقه ولا أتوقع أن ألقاه . مخلوق لا أعرف شيئاً من سماته وإن كنت قد رسمتها فى ذهنى من ألحانه التى سمعتها .

وذات ليلة . . ليلة من الليالى الفاتنة . . ذات القمر المطل من ثنايا السحب ، والنسيم الرطب الذى يحمل بين نفحاته شذى الأزهار وكأنها أنفاس عذبة عطرة ، جلست فى الشرفة فإذا الألحان السحرية تتسرّب إلى أذنى خلال النسيم .

ولم أكن قد أدرت مفتاح الراديو . ولكنى اعتقدت أن « سيدة » قد أدارته وتسللت من الحجرة فحمدت لها فعلتها .

وصمت اللحن وطال صمته فظننت بالجهاز عطلا ، ونهضت لإصلاحه فوجدته مغلقاً وخيل إلىّ أنها قد أغلقته ، فأدرته ثانية ولكنى لم أسمع سوى نشرات الأخبار .

وأغلقت الجهاز وعدت إلى موضعى بالشرفة ، ومرة ثانية حملت إلىّ الريح الألحان العجيبة . وأصابتنى رجفت . . ونهضت لأرى الجهاز فإذا هو مغلق وإذا اللحن ما زال يسرى . وخرجت إلى الشرفة فإذا هو يأتى إلىّ متخللا الأشجار من ناحية البيت المجاور .

وكنت أعرف أن البيت مهجور طوال الشتـــاء ، ولم يحل به أحد بعد ، ولـكنى تذكرت أن عربة وقفت أمامه بالأمس واستطعت أن ألمح بعض الأضواء تتسرّب من النوافذ .

وعجبت أن يكون لساكنيه تلك الموسيقى العجيبة وظننتها آتيـة من إحدى الموجات الأخرى للإذاعة وحاولت أن أضبط الجهاز على الموجة المخصوصة ولـكن عبثاً .

وأخذت أنصت عندما سمعت فجأة صوتاً مزعجاً يقطع علىّ متعة الاستماع ويصيح قائلا :

— العشاء جاهز يا أستاذ ، تفضل للأكل وكفى « تنتنة » .

وتوقفت « التنتنة » وسمعت صوتاً آخر يجيب فى لهفـة ضـاحكة :

— حاضر ياعم مدبولى . . نترك « التنتنة » .

وتمنيت أن أضرب « عم مدبولى » هذا . . وأن أصيح بالآخر استمر فى « التنتنة » ولـكن الحياء عقد لسانى ، وقبعت فى مجلسى أحملق فى الظلمات .

ومرّت الليلة بعـد الليلة وأنا أسمع الصوت العجيب دون أن أعرف صاحبه ، وحاولت عبثاً أن أمـــيز شكله

خلال النهار . وأخيراً لم أجد بدآ إلا الاستعانة بـ « سيدة »
فأرسلتها تتنسم الأخبار علها تعرف شيئاً .

والتقت سيدة بمدبولى ولم يصعب عليها بلباقتها أن تعرف
ما تريده عن جارنا الجديد عازف الموسيقى .

وأتت إلىّ تحمل الأنباء . . وكانت عجباً . . من تظنه ؟

لقد كان صاحب اللحن نفسه هو فارس أحلامى . .
وحبيب الروح الذى كنت أختزن له مشاعرى وأكنز
حبى .

ولا أظن من السهل أن تتصور وقع المفاجأة علىّ عند ما
أبصر الأمنية التى ظننتها حلماً مستحيلا . . والمخلوق الذى
ظننته وهماً لايتحقق ، قد بات منى قاب قوسين أو أدنى .

لقد سمعته ليلتذاك وأنا فى نشوتى فى شبه غيبوبة ،
وأصدقك القول أنى لم أذق النوم من فرحتى إلا لماما . .
وعندما أقبل الصباح كنت قد عقدت النية على أن أراه بأى
ثمن .

وعلمت أنه يقضى معظم وقته معتكفاً فى حجرته يضع
ألحانه ، ويؤلف موسيقاه ، وأنه يجلس أمام البيانو الصغير
المواجه للنافذة التى تطل على الحديقة ، وأننى لو اعتليت
السور الفاصل بين البيتين المواجه للنافذة لاستطعت أن

أبصره جيداً وهو منهمك فى عزفه دون أن يرانى ودون أن ألفت إلىّ نظر أحد .

وهكذا لم أكد أسمع العزف يبـــدأ حتى أدركت أن الفرصة قد حانت ، وهبطت متسللة إلى الحديقة وبدأت أتسلق السور كاللصوص حتى وقفت على حائته وأخذت أزيح فروع الشجر المتكاثفة القائمة بين الحديقتين حتى استطعت أن أجد لى منفذاً يطل على النافذة ، ثم أمد عنق بين الفروع وكان اللحن مستمراً على أشده ولم أشك فى أنه جالس أمام البيانو ، وقد انهمك فى العزف ، وشعرت بنشوة شديدة عندما أيقنت أنى أوشك أن أراه . . ووقع بصرى على النافذة ، ثم تخللها إلى الداخل واستقرت عيناى على « البيانو » ، ولـكنه كان خالياً . وفى نفس اللحظة التى شعرت فيها بخيبة الأمل والدهشة سمعت صوتاً مفاجئاً من أسفل السور يهتف بى :

ــ ضبطتك ، أيتها السارقة .

ونظرت إلى أسفل ، ولدهشتى الشديدة ، وجدته هو ، أجل هو ، هو ، كما رسمته فى أوهامى وأحلامى .

وكانت مفاجأة شديدة الوقع علىّ ، ولا سيما أن العزف كان مستمراً ، وهممت بالتراجع والفرار عندما زلت قدمى

وارتطمت بحجر واه فى السور فانزلقت من علٍّ وهويت من السور إلى داخل الحديقة .

والتوت قدمى ، وانتابنى من الالتواء ألم شديد . وصرخت صرخة مكتومة ، ولم أتمالك أن بكيت .

وأقبل هو علىّ منزعجاً وأمسك بقدمى يدلكها فى رفق وأنا أتألم وأتأوه ، وهو يعتذر فى لهجة مستعطفة نادمة .

وفى نفس الوقت كان العزف ما زال مستمراً .

ولم أتمالك رغم ألمى أن أتساءل فى دهشة :

– من الذى يعزف إذاً ؟

– لا بد أنه مدبولى .

– مدبولى ؟ إذاً لست أنت ؟

– لا ، لست أنا .

– إنى أتكلم جادة ؟

– وأنا أيضاً أتكلم جاداً .

– ولكن كيف لا تكون أنت الذى تعزف ؟

– لأنه لا يمكننى أن أكون واقفاً أمامك ، وفى الوقت نفسه أعزف فى الداخل . وعلى أية حال ليس هذا وقت تحقيق ، لا بد أن أدخلك الآن حتى أربط قدمك .. أنا متأسف جداً لأنى تسببت لك فى ما حدث ، ولكن عذرى

أنى أستيقظ كل صباح لأعد الورد فى الحديقة فأجده ناقصاً فلما لقيتك واقفة فوق السور قلت لا بد أن تكونى سارقة الورد .

وبسرعة ، وقبل أن أفكر فى الرد عليه حملنى بين يديه وأسرع إلى الداخل .

ولم أكد أستقر فى الحجرة حتى وقع بصرى .. على السبب فى كل ما حدث . وقع بصرى على مسجل صوتى يذيع اللحن الذى سمعته .

ونظرت إليه وقلت فى عجب :

ــ أهذا آخر لحن لك؟

ــ لى أنا ؟ . أتعرفين من أنا؟

ــ طبعاً أعرف .

ــ أواثقة أنت ؟

ــ إنى أعرفك ، وأعرف كل لحن وضعته . أنا حقيقة سارقة . . لكنى لست سارقة ورد ، أنا سارقة ألحان ، إنى كل ليلة أسترق السمع إليك .

وكان يبدو عليه مزيج من الدهشة المصحوب بالألم لما سبب لى . وأخيراً انتهى من ربط قدمى .

وأخذت أفكر كيف أعود إلى المنزل . أمن المعقول

أن يحملنى إليه كما فعل عندما أدخلنى إلى داره ؟ ماذا يفعل جدى لو وقع بصره على هذا المنظر ؟ ! بل ماذا يفعل لو عرف أنى هنا أجلس هذه الجلسة ؟

وتبددت نشوة اللقاء وغلبنى الارتباك والخوف وقلت :

— إنى لا بد أن أعود إلى البيت .

— انتظرى على الأقل حتى تستريح قدمك .

— لا أستطيع .

— ولِمَــــه ؟

— لا بد أن يكون جدى قد استيقظ الآن وأن تكون « سيدة » قد جهزت الإفطار وهو لا بد سائل عنى .

— إذاً انتظرى حتى أحملك إلى هنالك .

— تحملنى ؟ .. مستحيل .

— وما وجه الإستحالة ؟

— ماذا يقول جدى ؟

— لن يقول شيئاً إنك كابنتى ؟

وآلمنى منه قوله أننى كابنته ، وكرهت أن يرأنى صغيرة وصحت به :

— أنا كبيرة ، إن عمرى ست عشرة سنة .

— ستة عشر عاماً ، مرة واحدة ، أنت كأمى إذاً ؟

– أتمزح ، فى وسط هذه المشكلة التى أوقعتنى فيها ، ما ذا ترانى فاعلة ؟

– قلت لك أحملك . . أو على الأقل أسندك . . فلم يرق لك هذا .

– أمعقول أن أعود إلى البيت وأنت تحملنى أو تسندنى ؟

– سأوصلك حتى الباب وهناك تسندك الخادمة .

– باب ؟ !! . . أتريدنى أدخل من البـاب وأمشى فى الطريق ؟

– إذاً من أين ستعودين ؟

– كما أتيت .

– أتعودين من السور مرة أخرى ؟

– أجل . حتى لا يرانى أحد .

– ولكن كيف أحملك وأقفز بك فوق السور ؟ ! انتظرى ، لقد وجدت فكرة هائلة ؟

ثم صاح ينادى مدبولى ، ولكنى أمسكت به وقلت له إنى لا أريد أن يعرف أحد ما حدث خشية أن تصل القصة إلى مسامع جدى .

وأقبل مدبولى فأمره بالوقوف فى الخارج .

وهمس إلىّ :

– لابد أن يساعدنا أحد إذا كنت مصرّة على أن تعودى من السور .

– إنى لا أريد أن يعرف أحد .

– اصبرى إذاً .

ثم هتف بالرجل الواقف فى الخارج :

– مدبولى . . اغمض عينيك .

وأجاب مدبولى :

– أغمض عينىّ ! ؟ أنا ؟

– نعم أنت .

– لمه ؟ !

– قلت لك أغمض عينيك .

– أنا أغمض عينىّ ؟ لماذا ؟ أتنوى أن تلعب معى « استغماية » . وحياة والدك يا أستاذ ليس لدىّ وقت للعب معك ، أنت رجل « فائق ورائق » لا عمل لك سوى « التنتنة » . ولكن أنا عندى أعمال كثيرة .

– اغمض عينيك ولا تكن لحوحاً . اغمض عينيك .

– أهو حكم قراقوش . . أمرنا لله . . أغمضت عينىّ . . ماذا تريد بعد ذلك ؟

— استمر مغمضاً .

— «خلاص» ؟

— قلت لك انتظر . . لا تفتح عينيك حتى آمرك .

— حاضر ، لن أفتح عينيّ حتى أرى آخرتها معك !

ثم أخذ يهمس إليّ :

— الآن سأسير به إلى السور وهو مغمض العينين . ثم أوقفه على السور وأناولك إياه . وأقفز أنا فى حديقة بيتك وأتناولك منه . وعند ما أعود تنادى أنت عليهم ، وكأن قدمك التوت وأنت فى الحديقة . ما رأيك ؟

— مسألة فيها مغامرة ، ولكن ربنا يستر ، ليس أمامنا من حيلة سواها .

وخرج هو إلى مدبولى فوجده واقفاً فى الخارج وهو مغمض نصف إغماضة فصاح به :

— ما عسى أن أصنع معك ؟ أنت لا تغمضهما جيداً ، لا أريدك أن ترى شيئاً أبداً . . أتسمع ؟ أم ترى من الخير أن أربطهما لك . . أنا أعرفك رجلا غشاشاً .

ثم ربط عينيه بمنديل ، وقاده إلى السور ورفعه على مقعد إلى حافته ، ثم تركه وعاد إليّ فحملنى بين يديه ووصل إلى السور فرفعنى إلى مدبولى وهو على السور معصوب العينين

فاغر الفم من فرط الدهشة .

وهمس إبراهيم وهو يرفعنى بين يديه :

ـ مدبولى . خذ .

ـ آخذ ؟ . آخذ ماذا ؟

ـ مدّ يديك وتناول ما سأعطيه لك . واحتفظ به برهة حتى آخذه منك ثانية .

ومدّ مدبولى كفه ، ولكن إبراهيم صاح به فى حنق :

ـ مد يديك الاثنين ، وانحنى قليلا .

وفعل مدبولى ، كما طلب منه ، وعند ما استقرت بين ذراعيه هتف فى دهشة :

ـ يا نهار اسود ، ما هذا ؟ ! قتيل ؟

ـ صه ، أيها الحمار ، أمسك به جيداً وإلا سقط منك .

ـ ولكن . . أنا . . . .

وقفز إبراهيم بسرعة إلى الناحية الأخرى من السور وصاح بمدبولى :

ـ هات ، مد يديك . اخفضهما قليلا ، أجل هكذا .

واستقررت مرة ثانية بين يدى إبراهيم الذى انحنى ووضعنى برفق على الأرض وتلفت حولى فى حذر وخشية وقلت له :

ـ عد أنت بسرعة لئلا يراك أحد .

وفى غمضة عين كان قد قفز فوق السور واستقر فى الناحية الأخرى من الحديقة .

وكانت الحوادث تجرى بسرعة وبطريقة مضحكة أنستنى آلام قدمى ، بل لا أكذبك إذا قلت إن المغامرة بعثت فى نفسى نشوة لذيذة وأنا أبصر فارس الأحلام ، العاقل الرزين ، يحملنى ويتواثب فوق الأسوار .

وكنت أستقر فى رقدتى فوق الحشائش كما تركنى إبراهيم وأنا أرقب مدبولى معصوب العينين يقلب كفه وشفتيه فى دهشة وهو يتمتم « أصحاب العتمول فى راحة » عندما أبصرت بـ « سيدة » تبدو قادمة من وراء البيت . ولم تكد تبصرنى راقدة حتى صاحت منزعجة :

— سيدتى راجية ، مالك ؟! كفى الله الشر ؟

— التوت قدمى وأنا سائرة .

ولكن قبل أن تستقر الإجابة فى أذنيها وقع بصرها على مدبولى فوق السور فضربت صدرها بكفها صائحة فى دهشة :

— مدبولى « ينيلّك » ماالذى تفعله فوق السور ؟

وأجاب مدبولى فى سهولة :

— ألعب « استغماية » .

ـ تلعب استغماية وأنت فى هذه السن وفوق أسوار الناس . إلهى « تنسخط » .

ومدّ مدبولى يده لينزع العصابة عن عينيه . ويبدو أنه لم يكن يدرك حتى هذه الساعة أنه واقف على السور فقد نظر حوله فى فزع ثم هوى داخل الحديقة ، قريباً منى . ولطمت يده ساقى فصحت متألمة .

وعلى صوت صياحى وصياحه ، صاح صوت ثالث ، هو آخر ما كنا نود أن يصيح وهو صوت جدى ، إذ بدا فى الشرفة وأطل على المنظر العجيب ، منظرى ومدبولى طريحى الأرض .

صاح جدى غاضباً :

ـ ما شاء الله . ماذا يفعل هنا هذا الرجل ؟

وهمست سيدة فى حرج وخشية :

ـ انهض يامدبولى ، وكفى مصائب .

ونهض مدبولى متعثراً والجد يصيح به :

ـ انطق . ماذا أتى بك إلى هنا ؟

ـ أنا ، أنا ، كنت فوق السور .

ـ فوق السور ! وماذا تفعل فوق السور ؟

ـ . . . أ . . . أشم الهواء .

وتداركت سيدة الأمر فقالت للجد :

— كان يقص فروع الشجر فوق السور ، فزلت قدمه وسقط عندنا . خذ بالك مرة أخرى يا حاج . الظاهر إن نظره ضعيف .

وصاح مدبولى مرتبكا :

— أجل ، أجل ، ضعيف جداً ، السلام عليكم .

وهمّ بالعودة قافزاً على السور فنهره الجد بقوله :

— اخرج من الباب ، أيها الأحمق ، إن ما تفعل لا يفعله سوى اللصوص .

— حاضر ، لا مؤاخذة .

وهرول الرجل متجهاً إلى الباب .

وانحنت سيدة فوقى تفحص قدمى وتحاول معاونتى على النهوض .

وبعد لحظات كنت أستقر على الفراش وجدّى يربت جسمى ثم يأمرنى أن أستريح ولا أحركها .

ولم يكد جدّى يغادر الحجرة وسيدة تخلو بى حتى نظرت إلىّ نظرة اتهام وهمست :

— هذا الكلام لا يدخل عقلى أبداً .

— ما هو ؟

ـ التواء قدمك . كل يوم تسيرين فى الحديقة فى أمان الله ، دون أن تلتوى قدمك .

ـ قضاء ، وقدراً .

ـ كلام فارغ ، لا بد أن هناك شيئاً ، هل تريدين أن أصدق أن هذا الأحمق قد وقف على السور معصوب العينين لكى يلعب « استغماية » كما قال لى ، أو لكى يشم الهواء كما قال لسيدى ، المسألة لا بد أن يكون فيها سر .

ـ اسمعى يا سيدة ، أتريدين الحقيقة ؟

ـ طبعاً ، إذا لم أعرف أنا الحقيقة فمن يعرفها ؟ من الذى يعرف خباياك وأسرارك فى هذا البيت سواى ؟ !

ـ الحقيقة يا سيدة أنى قفزت فوق السور لمشاهدته وهو يعزف على « البيانو » فسقطت .

ـ هكذا ! ! إذاً فهذا السر فى حيرتك منذ بضعة أيام وانتقالك من النافذة إلى الشرفة ، ومن الشرفة إلى النافذة . أو قد هدأ بالك الآن بعد أن رأيته ؟ أو قد استرحت ؟

ـ طبعاً . لقد كنت أتمنى رؤيته منذ أكثر من عام .

ـ وماذا رأيت ؟ ! أرأيت به شيئاً أكثر مما بسواه من الناس ؟

ـ أكثر كثيراً . كنت دائماً أتخيله فى صورة رائعة

ولكن ما رأيته فيه كان أروع . لا تستطيعى أن تتصورى مقدار رقته ولطفه ، هل تصدق أنه حملنى إلى حجرته ودلك لى قدمى ثم حملنى مرة أخرى إلى السور ؟

— ما شاء الله . إياك أن تذكرى هذا الكلام مرة أخرى . فلو عرف جدك ، لسوّد عيشنا ، إنه لن يرى به شيئاً من اللطف الذى ترينه ، سيراه رجلا عادياً وقحاً ، يغازل بنات الجيران .

— لا ، لا يا سيدة ، لا تقولى هذا . إنه ليس كغيره من الناس .

— أنا لا أرى به شيئاً أكثر من الناس ، إنه يمشى على قدميه ويهز يديه .

— لا يا سيدة ، إنك لا ترينه جيداً ، إن به شيئاً أفضل. شيئاً أسمى وأجمل . إن به . . .

ولم أستطع أن أعبر عما أريد أن أقول ، إن به أشياء كثيرة ، إن به الروح وبه الحياة . ولم أملك سوى أن أطلق تنهيدة حملتها الكثير من الحرارة التى تصهر جوانحى .

ووجدت سيدة تبتسم ، ثم تقترب منى وتتحسس شعرى فى حنان وتسألنى فى رقة :

— ماذا به أيضاً ؟ !

— به . . به . . اسمعى يا سيدة ، ألم تجرّبى الحب ؟ !

— الحب ؟ ! !

وتنهدت سيدة وأردفت قائلة :

— أجل جرّبته . وأسأل الله لك منه السلامة .

— لمـــه ؟

— لأن أوله حلو وآخره علقم .

— أهذا كل ما تعرفين عنه ؟ !

— وماذا تعرفين أنت ؟

— ماذا أعرف ؟ ! أعرف أن الإنسان يظل سائراً فى حياته كعابر صحراء مجدبة قاحلة ، لا يبصر من حوله رجاء ولا أملا ، لا شئ غير سراب يلمع من بعد ، ويغريه بالمسير وسط الفراغ والوحشة والعدم ، ليحمله المزيد من مشقة والمزيد من إعياء ، ويستنفد منه جهده وقواه ، ومرة واحدة يشعر فجأة كأن الصحراء قد مستها يد ساحر ، أو كأن أنفاس عيسى — كما قال الخيام — قد سرت فيها :

فنفخن الروح فى أرض موات

وجعلن النبت يزكو من رفات

وبعثن الطير يشـــدو هادلا

فى أريك الأيـــك مثنى ورباع

ويرى الحياة قد دبت فى كل ما حوله . فأضحى بريق السراب ماء ، والحصى لألاء ، والظلمة سناء ، واليباب نضرة وبهاء ، وأضحى ثقل الناس لطفاً وسخافتهم ظرفاً ، وغباؤهم ذكاء وقبحهم جمالا . ولم يعد فى الحياة إلا كل حلو مستعذب .

إذا كان الإنسان — وهو غالباً ما يكون — كما قلت لك أولا ، ثم أصابه فجأة ذلك الذى حدثتك عنه ثانية . فاعلمى — بلا جدال — أنه أحب ، هل فهمت إذن ما هو الحب ؟

وافتر ثغر « سيدة » عن ابتسامة عريضة وأجابت فى لهجتها الحانية :

— والله ما فهمت شيئاً ، أتقولين كلاماً مثل الذى تقرئينه فى الكتب ، ثم تسألينى إذا كنت قد فهمت ! أنا لا أفهم شيئاً من هذا الذى قلته عن الصحراء والماء والحصى . . أنا أعرف الحب ، يعنى الحب ، يعنى بالعربى « حضن وبوس » .

— لا ، يا سيدة ، حرام عليك ، الحب أسمى من أن يركز فى مثل هذه المظاهر المادية ، إن تلك بعض مظاهره ، وقد يكون الحب ، ولا تكون هى .

— افهمى الحب كما تفهمينه . . المهم أنك قد وقعت ، والإصابة لم تصب قدمك ، ولكن أصابت قلبك « ربنا يجعل العواقب سليمة » لأن الإصابة سريعة وحامية .

— الظاهر أنك لاتعرفين شيئاً ، إن الإصابة قديمة ،

أنا لم أحبه اليوم أو الأمس ، لقد أحببته منـــذ سمعته ، كانت أنغامه تطير بى إلى عالم آخر . كنت أعيش معه أكثر مما أعيش معكم .

— هكذا ! ولم أكن أنا أعلم شيئاً عن ذلك «السرحان».

— هل تدرين ماذا أحسست عندما أنبـأتنى أنه هو نفسه الذى يقطن بجوارنا ؟

— بماذا ؟

— أحسست إحساس الذى يتوق إلى الحج ولا يستطيع إليـه سبيلا ، عندما يجد الكعبة قد جاءت له . أحسست أنى حصلت من الحياة على أقصى ما أريد ، وقلت لنفسى إن من الجحود أن أسأل الله شيئاً بعد ذلك .

وزادت ابتسامة « سيدة » وضربت كفاً على كف وقالت فى دهشة :

— اسمعى ياسيدتى راجية ، الظاهر أن الصدمة لم تصب قدمك ولا قلبك ، بل أصابت رأسك . . أمتأكدة أنت أنك فى تمام وعيك ؟ هذا الحديث لا يقوله إلا الشعراء ، أو المجانين .

— أو المحبين ، وأنا أحب ياسيدة ، أحب .

— سلامتك من الحب ، أدعو أن يكون لمن يكرهونك.

ـــ لماذا ؟ !

ـــ لأنى أخشى عليك من الحب ، أعنى من هذا الحب بالذات .

ـــ تخشين علىّ ؟ أمجنونة أنت ؟ ! تخشين علىّ من الحياة ومن الأمل ؟

ـــ لا ، ياسيدتى ، أنا أخشى عليك من ضياع الأمل . أخشى عليك من فقد الحياة . . هذا شىء لا فائدة فيه .. أنت تعلمين أنك مخطوبة .

ـــ لست مخطوبة .

ـــ شبه مخطوبة .

ـــ ولا هذا أيضاً .

ـــ لا تكونى عنيدة ، ولا مكابرة ، أنت تعرفين جدّك تماماً ، وتعرفين أنه قد وطد عزمه على أن يزوجك ابن خالتك ، وأنه ليس هناك قوة تستطيع زحزحته عن رأيه . ثم أريد أن أسألك : هل أنت واثقة أن الطرف الآخر خال ؟ ! ألا يحتمل أن يكون متزوجاً ! ! أو خاطباً ! ! أو على الأقل ، مشغولا ، فلماذا تعلقين نفسك بأمل لا طائل تحته ولا فائدة ترجى منه .

ولست أدرى لِمَ لم أفكر فى هذا من قبل ، وأحسست

كأنما أوشك أن أهوى من حالق أو كأن الضياء الباهر الذى غمرت به نفسى قد انطفأ فجأة .. لكن ما لبثت أن نفضت عن نفسى بسرعة غبار اليأس ؛ وعلامَ اليأس ، وأنا لم أحدد بعد ما أريد منه ؟ إنى سعيدة بتحقيق أمل سابق ، بل لقد تحقق لى أكثر مما كنت آمل . لقد أصبحت أراه ، وأسمعه ، وأحس أنه يحيا بجوارى ، وأن النسمة التى تمر بى قد سبق أن مرّت به .

ووجدتنى أقول لها بنفس ملؤها الثقة والإيمان :

— كل هذا لا قيمة له عندى ، إنها عقبات لا دخل لى بها ، إنها لا تقع فى طريق . ولا تمنع عنى رجاء ولا تخيب أملا ، إن كل ما آمل فيه هو أن أراه من بعد ، وأن أسمعه وهو يعزف ، إنى لا أطمع حتى فى أن يحس بى ، أو يسأل عنى .

وهزّت « سيدة » رأسها ، كأنها لم تقتنع بقولى ، غير أنها لم تر فائدة فى استمرار المناقشة ، ولم تملك سوى أن تضمنى إليها ، متمتمة ببعض الدعوات التى كانت لا تفتأ تحيطنى بها .

ومضت بضعة أيام وأنا قانعة راضية .. كل ما أطمع فيه هو سماع ألحانه واختلاس النظر إليه . أو إشارة سلام

وإيماءة تحية كلما التقت الأبصار .

كنت سعيدة ، ولم ينقص مقدار سعادتى أنى شبه مخطوبة وأنى مقيدة إلى إنسان آخر ، لأن مطامعى لم تكن تصل إلى أكثر من مجرد الرغبة فى سماعه أو رؤيته ، ولم أك أتخيل قط احتمال حدوث نوع من الصلات بينى وبينه ، وبالتالى لم أجد ذلك الارتباط قد حال بينى وبين شئ أطمع فيه .

كنت أحيا — كما سبق القول — حياتين : الحياة الآلية الصماء التى أقضيها مع جدى وابن خالتى والتى لا يسعنى سوى أن أقبل كل ما فيها برضاء شكلى ، والحياة الأخرى المرهفة الذائبة التى أقضيها فى الشرفة عندما يخيم الظلام ويبدأ النسيم يحمل إلىّ ألحانه .

وهكذا ظللت قانعة بالصلة الروحية الموسيقية حتى بدرت منه أول بادرة حركت مطامعى وجعلت القلب يتوق إلى أكثر مما كان يقنع به .

لقد أرسل خادمه ليسأل عنى وعن قدمى من « سيدة » وأتت إلىّ « سيدة » متسللة تبلغنى السؤال ، فأحسست منه فرحة شديدة وطلبت منها أن ترد له السلام وأن تسأله أن يعزف الليلة اللحن الذى كان يعزفه أول ليلة أتى إلى الأسكندرية .

ولم يكن اللحن ذاته هو ما أريد ، ولكنى كنت أود أن أسأله مطلباً وأردت أن أشعره أنه يفعل من أجلى شيئاً .

وفى تلك الليلة كنت أجلس على مقعد فى الشرفة ، وقد أرخيت رأسى على حافته ، ورحت من شرودى فى شبه إغفاءة ، وكانت تجلس على الأرض بجوارى « سيدة » ، وقد اتكأت بذراعها على حافة المقعد ، واللحن يسرى فى سكون الليل . واستمرت الألحان تصل إلى أذنى ، وكأنى بها هابطة من السماء ، وأخيراً انتهى العزف ، وساد السكون . وأطلقت بعده تنهيدة حارة أعقبها سؤال من سيدة :

ــ ما بالك تتنهدين ؟

ــ أنا سعيدة ياسيدة ، سعيدة جداً ، لقد كنت بالأمس سعيدة وأنا أشارك «الملايين» فى سماعه ، كنت سعيدة بألحانه التى تصل إلىّ كما تصل إلى كل إنسان سواى ، كأنها أشعة شمس أو هبة نسيم ، تصوّرى مقدار سعادتى الآن وأنا أحس أنه يعزف لى ، وأنى أستمع إليه وحدى ، تصوّرى مبلغ سعادتك عندما تحسين أن الشمس لم تشرق إلا لتضئ لك ، وأن النسيم لم يهب إلا ليملأ رئتيك وحدك .

ــ يا سيدتى زاد الله سعادتك ، أنت طيبة وتستحقين كل خير ، إنى لا أستكثر على الشمس أن تشرق لك

وحدك ، ولا على النسيم أن يهب من أجلك . . . ولو كان الأمر بيدى لمحوت من صفحتك شوائب الكدر وجعلت حياتك هناءاً خالصاً . . ولكن الدنيا لا تفعل ذلك . . . الدنيا تستكثر علينا النسمة التى يشاركنا فيها الملايين . . . فلا تشرق علينا الشمس إلا وقد حرمناها . . ونحن أتم ما نكون صحة . . الدنيا تكره أن تديم على ابن آدم نعمة . . فتدس له فى طياتها النقمة تلو النقمة حتى تغلب النقم النعم . . وأنت يا سيدتى تعيشين فى هذه الدنيا . . وتخضعين لقضائها . . ومن أجل هذا أخشى عليك منها .

— ماذا تخشين علىّ ؟

— أخشى عليك الخيبة والخذلان .

— قلت لك إنى لا أرجو شيئاً . . حتى يخيب لى رجاء . . ولا آمل فى شئ حتى يضيع لى أمل . . إن سعادتى مستمدة من هنا . . من باطنى . . من قلبى . . ومن ذهنى ومن سمعى . . ومن تفكيرى . . ومن أحلامى .

— إنى أخاف عليك من أحلامك . . إن الأحلام حلوة والحقائق مريرة . . وشر ما فى الأحلام أنها تجسد لنا مرارة الحقائق إذا مافتحنا العين عليها .

— دعينى أغمض عينى برهة . . دعينى أحلم . . حتى أرى

ما أحب . . غداً سأفتح عينى وأرى ماسترغمنى الحياة على أن أراه . . فدعينى أتزوّد من أحلامى مايعيننى على مرارة اليقظة . . أنا لا أستطيع أن أرفض نعمة الله التى وهبها لى . . لا أستطيع أن أقتل الإحساس الذى أنعم به علىّ والذى جعلنى أحس بالمتعة فى كل ما أرى . . لا أستطيع أن أوقف ذلك الشعور الذى يجعلنى أمسك منديلا كهذا . . الذى ربط لى به قدمى . . فأضمه وأشمه . . وأشعر منه بنشوة ممتعة . . . منديل لا يختلف نسيجه عن نسيج الآلاف من المناديل الملقاة فى جيوبنا . . لا نحس لها أثراً . . . ومع ذلك فقد جعلته مشاعرى نسيج وحده . . جعلت خيوطه تتنفس وتهمس بأعذب الهمسات وأتناجى أرق المناجاة .

ولم أكن مبالغة فى قولى ، فقد كان هذا هو بالضبط ما أشعر به . . ولذلك لم أحاول أن أحد من مشاعرى . . وأوقف من هيامى . . بل اندفعت فى استسلام ممتع فى أحلامى الجميلة .

ومنذ تلك الليلة . . بدأت الأحلام . . تتخذ طريقها إلى التجسد .. ونشأت بيننا صلة سؤال وجواب بعون خادمينا : مدبولى وسيدة . . وأخذت كل ليلة أسأله اللحن الذى أود أن أسمعه .

وزاد التعلق وزاد الوله . . ولم أعد أقنع بصحبة الألحان فى سكون الليل . . وبدأت أتطلع إلى صحبة أخرى خلال النهار . . ولم يك يصعب علىّ ذلك . . وأمسكت « باللوحة والفرشاة » وبدأت أرسم صورته . . وبت بذلك لا أفارقه ، ليل نهار . . بالليل ألحانه . . وبالنهار رسمه . . أمتع وإياه فى خلوة فى حجرتى . . أجرى « الفرشاة على اللوحة » لأبرز السمات وأوضح التعابير .

ودخلت « سيدة » وأنا أرسم ، فنظرت إلى الصورة فى دهشة وضربت صدرها ــ كعادتها عند ما تريد أن تعبر عن الدهشة ــ وصاحت فى صوت لايخلو من الجذل :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم . . من أين أتى هذا ؟

وقلت وأنا أتراجع ناظرة إلى الصورة فى إعجاب :

ــ ما رأيك ياسيدة ؟ أليس بها شبه كبير ؟ !

ــ والله ، الخالق الناطق .

ــ سترين الشبه أكبر عند ما تتم الصورة . . ستجدين أنه هو بعينه يجلس معنا .

ــ ولكن ألا تخشين أن يراه أحد ؟ !

ــ لا تخشى شيئاً . إن لدىّ احتياطات الأمن ، انظرى .

ثم قلبت الصورة ، وكان بها رسماً كاريكاتورياً لمدبولى .

وضربت « سيدة » صدرها الضربة المألوفة ثم استغرقت في الضحك وقالت وهى تتفرّس فى الصورة :

— « ينيِّلك » يامدبولى . . حتى انت ترسم فى الصورة « ومالك ماداً بوزك كالغراب النوحى . . والنبى دمه خفيف ياسيدتى » . . اليوم أتى إلىّ يتسلل من وراء السور وأخبرنى أن سيده إبراهيم يسأل عنك ويقول أنك قد أوحشته وأن به شوقاً إلى رؤيتك . . ويسأل متى تنوين الوقوف على السور حتى يستطيع أن يتلقفك هذه المرة . . فلا تصاب قدمك .

وأحسست من حديثها بنشوة وسألتها :

— أحقاً قال هذا ياسيدة ؟

— وحياتك عندى قال هذا ؟ . وما الذى يدعونى إلى الكذب . !!

— أنا أعرف أنك تريدين إدخال السرور على قلبي . . ويحتمل أنك اخترعت الحديث من أجل هذا .

— أنا أحب إسعادك حقيقة ، ولكن ليس بالكذب . أقسم لك أن هذا ما قاله . . . ولقد ظننت فى مبدأ الأمر أنه يحاول بذلك خلق الحديث معى . . . وأنه يريد « جر الشكل » . . وأنا أعرفه خبيثاً « بصباصاً » ، رغم ما يبدو عليه

من طيبة . . فقلت له : قل باختصار ماذا تريد . . ولا تدخل سيدك بيننا ؟ ! فأجاب أنا لم أدخله بيننا . . إنه هو الذى أقحم نفسه . . الظاهر يا سيدة . . إن سيدتك شغلت باله . . فهو لا يفتأ يكرر السؤال عنها . . ولا أكاد أسمع منه طول النهار إلا « يا مدبولى . . اسأل على الجيران » . . « يا مدبولى كيف حال الجيران » حتى لقد ضقت به وبالجيران ذرعاً .

كان الحديث لذيذاً ممتعاً على رغم أنه منقول بواسطتين . . وأن حرارته خلال النقل قد ضاعت وتفاصيله قد بهتت ، ولكن مع ذلك أخذت أستفسر منها وأستعيد ، وأستطيع أن أجزم أنى أكرهتها بالسؤال على تكراره ما يزيد عن عشر مرات وأخيراً سألتها فى استحياء :

— أتظنين حقاً أنه يريد رؤيتى ؟

— أظن حقاً ؟ . . وله لا ؟ ! . . أهناك فى الدنيا من لا يريد رؤيتك ؟ ماذا تظنين بنفسك ؟ إنك خير البنات . إن ذرات الثرى التى تسيرين عليها ...

ولم يكن هذا المديح هو ما أطلب . . ولا كان هذا هو الاتجاه الذى أردت أن أوجه إليه الحديث . . بل كنت أهدف إلى أكثر من هذا .. ولذا لم أجد بدّاً من مقاطعتها حتى لا تضيع علىّ الفرصة ، فقاطعتها قائلة :

— ولكن كيف يتمكن من رؤيتى إذا كان يريد ذلك ؟

وتوقفت سيدة عن الحديث ونظرت إلىّ بعين خبيثة ماكرة فاحصة . وقالت بلهجة ممدودة :

— أجل . . دخلنا فى الجد . . كيف يراك ؟ ! هذه هى المشكلة . . ولكن هل هناك ضرورة لأن يراك ؟ .

— إذا كان هو لم يرفض لى طلباً من طلباتى التى أثقل عليه بها كل ليلة . أفيحق لى أن أرفض أول طلب له ؟

وأجابت فى لهجة لا تخلو من السخرية :

— لا . . كيف ترفضين ؟ ! أستغفر الله .

— لا تضحكين يا سيدة . . إنى أتكلم جادة .

— ولكن رؤيته يا سيدتى ليست بالمسألة السهلة . . بل هى أمر محفوف بالمخاطر . . وأنت تعرفين جدك جيداً .

— لن يعرف جدى شيئاً .

— إذاً دعينا نفكر يا سيدتى . . كيف يراك ! ! كيف يراك ! ! على أية حال لن نعدم وسيلة للقاء . . ولكن المهم ألا تكون كالمرة السابقة من فوق الأسوار . . لقد مرّت الأولى بسلام . . ولكن ليست كل مرة . . تسلم الجرّة . . دعينى أفكر يا سيدتى راجية . . كيف يراك !

وقلت لهـــا مقاطعة وقد طاف بذهنى خاطر جعلنى أطير فرحاً :

ـ اسمعى ياسيدة . . لقد خطرت لى فكرة هائلة .

ـ غير القفز وشغل « البهلوانات » ! ؟

ـ أجل . . أجل . . يوجد معرض لهواة الفنون الجميلة فى الأتيليه . . وقد قلت لجدى إنى أود مشاهدته ، فوعد بالتوجه إليه اليوم قائلا إن لديه موعداً فى التريانون وأنه سيوصلنى إلى هنالك ثم يذهب هو إلى موعده ويرسل لى العربة كى أمر عليه بها بعد مشاهدة المعرض ، فما رأيك لو أبلغته أنه إذا رغب فى رؤية المعرض فسأكون هناك من الرابعة إلى الخامسة وأننا نستطيع مشاهدته معاً . . ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

ـ هائلة . . وأعتقد أنها مأمونة جداً . . ولكن . . هب جدك غير رأيه .. ورغب فى مشاهدة المعرض ؟

ـ لا أظن . . إنه يسمى الفنون كلها مسخرة . . لاتؤكل صاحبها عيشاً .

ـ إذاً . . سأذهب لأبلغه . . ولكن خذى بالك . كونى حذرة جداً . . ولا تتحدثى معه أمام الناس .

ـ لاتخشى شيئاً .

وانطلقت سيدة تبلغ مدبولى النبأ . . وجلست أعد الدقائق والثوانى وأنتقل حائرة من حجرة إلى حجرة . . وبى فرحة شديدة ملؤها القلق .

وأذكر أنى لم أتناول من غذائى شيئاً . . فإنى أفقد شهيتى لأى انفعال . . سواء أكان حزناً أم فرحاً أم غضباً . . وغادرت المائدة سريعاً . . وبدأت أرتدى ملابسى وكانت الساعة لم تزل الثانية والنصف .

وفى الثالثة كنت أوقظ جدى من غفوته فوق مقعده الكبير . ونظر إلى الساعة ثم إلىّ وقد ارتديت كامل ملابسى :

— ما هذا ؟! الساعة مازالت الثالثة . . علامَ كل هذه العجلة ؟

وقلت متلعثمة :

— إن مشاهدة المعرض ستستغرق وقتاً كبيراً . . وأريد أن أنتهى منه قبل حلول الظلام .

— وأين نحن من الظلام ؟

— إنى أخشى أن أترك شيئاً دون مشاهدته .

— اطمئنى ستشاهدين كل شىء . إذهبى الآن وارقدى قليلا

وذهبت عنه ، ولكننى لم أرقد بالطبع ، بل جلست أرقب عقرب الساعة الذى أقسم ألا يتحرك .

وفى الثالثة والنصف أيقظته مرة ثانية . . وفى هذه المرة نهض وهو يزفر فى غيظ قائلا :

— لافائدة من النوم .. إنها غلطتى من أول الأمر لأنى وافقتك على مشاهدة هذه السخافات .

ولم يستغرق منه ارتداء ملابسه أكثر من خمس دقائق وعندما هممنا بالخروج وسيدة ورائى تهمس فى أذنى بنصائحها فوجئت بآخر ماكنت أرغب فى مجيئه فى هذه اللحظة . . وهو ابن خالتى عبد الرحمن .

ووجدت جدى قد تهللت أساريره وأقبل عليه مرحباً وكنت أعلم أنه يحبه . . فالاثنان كما قلت متشابهان فى التفكير والأخلاق .

وقال جدى مهللا :

— أهلا . . أهلا . . أتيت فى وقتك . . لقد كنا ذاهبين إلى البلدة . . لأن راجية ترغب فى مشاهدة الأتيليه وكنت أنوى أن أوصلها وأذهب إلى التريانون ، فهيا معنا لكى تصحبها إلى هناك . . بدلا من ذهابها وحيدة .

وسمعت سيدة تهمس قائلة «جالك الموت ياتارك الصلاة» والواقع أن وصول عبد الرحمن فى ذلك الوقت كان شراً من الموت . . لقد كان أشبه بسكين حاد قطع خيوط أمل

شدّتني إلى السماء . . فهبطت فجأة وارتطمت بالأرض .

وأجاب عبد الرحمن وهو يضع منظاره على عينيه :

— كنت أريد أن أعرض عليك بعض مسائل وأطلعك على بعض الحسابات . ألا تجلس قليلا ؟

وصحت وأنا فى ضيق :

— لم يعد هناك وقت .

وأجاب جدى عندما أحس بضيق :

— دع هذا حتى عودتنا . . هيا بنا .

وخرجنا نحن الثلاثة فركبنا السيارة .

ولم أكن أكره عبد الرحمن ، بل على النقيض . . كنت أحس له بما تحسه الأخت لأخيها ، فقد أمضينا معاً معظم طفولتنا وصبانا ، ولكنى كنت أكره مذهبه فى الحياة وطريقة إحساسه بها . . وإغراقه فى عمله واعتبار كل شىء عداه توافه لا قيمة لها . . وقد يكون هو غير مخطىء . . وقد يكون الواجب على الإنسان أن يكون كذلك . . وقد أكون أنا الشاذة بتفكيرى ، المراهقة بإحساسى الفياض . . فلست أزعم عندما أقول أنى أكره طريقته فى الحياة أنه هو الخاطىء وأنا الصائبة . . ولكن كل ما هناك أنى كنت أحس أننا مخلوقان متباينان . . وأن ميولنا شتى . . وأهواءنا متفرقة

ولذلك كنت أتجنبه . . وأتجنب مناقشته أو الحديث معه .

ولكن فى هذه اللحظة كنت أحس بضيق شديد منه . . فعلى الرغم أنه لا ذنب له فى حضوره فى هذا الموعد . . فهو بلا شك لايعلم أنى ذاهبة لأرى ابراهيم — والحمد لله أنه لايعلم — ومع ذلك لم أبرأ من كرهه والسخط عليه .

ويبدو لى أن الضيق الذى استبد بى ساعتذاك قد ارتسمت معالمه على وجهى حتى أن جدى لم يملك أن سألنى فى دهشة :

— ما بك ياراجية ؟

وأفقت لنفسى . . وأدركت أنى يجب أن أكون على حذر أشد . . وألا أترك العنان لمشاعرى حتى تبدو جلية على وجهى . . ولم أملك إلا الاعتذار بأقرب عذر طرأ على ذهنى فقلت له :

— ألم بى صداع مفاجىء .

— أتحبين أن نعود بك ؟

— لا . . لا . . إنه سرعان مايزول .

أجل إن رؤيته ، ولو من بعيد . . خير من ألا أراه . . وأنى أكره أن يقول إنى أخلفت موعدى ولم آبه له .

ثم . . من يدرى ؟!

وكانت « من يدرى » هذه . . هى أملى الدائم ورجائى

الأخير . . فى عالم الغيب المعتم بظلمات اليأس .

أجل إن كل مالم يكشف عنه الغيب . . مهما بلغ يأسنا منه . . قد ننتظر منه شيئاً .

وهكذا جلست فى العربة . . آمل فى ذلك الشيء .

وأخرجنى من شرودى صوت عبد الرحمن يقول لجدى :

ــ كنت أريد أن أشرح لك مسألة السماد . . لأن بنك التسليف رفض أن يسلمنا ، وكذلك كنت أرغب فى أخذ رأيك فى أسهم شركة الحرير . . ومعى الآن تقرير مصلحة الضرائب .

ولمحته يخرج ورقة يعرضها على جدى . . ولم أكن أفهم شيئاً من حديث السماد ولا الضرائب ، وكان هذا هو حديثهما الدائم .

وشرد بى الذهن مرة أخرى فى أشياء أقرب إلى نفسى من السماد وشركة الحرير وغيره مما يتحدثان فيه . . ولم أفق إلا وقد وقفت العربة أمام الأنيليه . . وفتحت باب العربة وقفزت إلى الرصيف ، وعبد الرحمن ما زال منهمكا فى شرح بعض الأوراق لجدى ، وقلت أستحثه :

ــ هيا يا عبد الرحمن .

ــ دقيقة واحدة.

ثم استمر فى حديثه إلى الجد :

— يبقى بعد هذا خمسة آلاف وخمسة وتسعين جنيهاً مضافاً إليها خمسة عشر فى المائة عمولة الشركة . . فيكون جملة الحساب . . .

وصحت به فى ضيق :

— أنا واقفة يا عبد الرحمن .

— آ . . أهذا هو الأتيليه . . ماذا به ؟

— والله لست أدرى ماذا به . . به صور بالطبع .

— صور . . .

ثم التفت إلى جدى الذى كان منهمكا فى فحص الأوراق ووجه إليه الحديث :

— أظن نؤجل المسألة حتى نعود لأن راجية متعجلة .

ولكن يبدو أن جدى كان منهمكا فى الأوراق التى ألقى بها عبد الرحمن إليه فقد وجدته يقول دون أن يلتفت حوله :

— لكننى لم أفهم بعد حساب ألف الجنيه .. أى دخل لها فى جملة الإيراد مادمت قد خصمت النسبة المطلوبة !

وبدأ صبرى ينفذ . . فصحت بجدى :

— بعدين يا جدى تقدر أن تفهم . . ليس هكذا فى الطريق .

ويبـــدو أن جدى قد استغرق فى الأوراق بكليته إذ لم تبلغ صيحتى أذنيه ووجدته ما زال مستمراً فى توجيه الحديث إلى عبد الرحمن قائلا :

— وثانى شئ . . مسألة الضرائب هذه .

وكان عبد الرحمن قد أدرك مبلغ ضيق ومبلغ استغراق جدّى فى مناقشته فأراد أن يضع حلا للمشكلة . . وكان أسعد حل يمكن أن يوضع ما سمعته يقوله :

— أظن الأفضل أن تدخلى أنت يا راجيـة . . ودعينى أنا أرافق جدّى لتكملة الحساب . . أنا فى الواقع . . ليس لى فى المعارض . . ولا فى الرسوم . . تفضلى أنت ياراجية .

وكأن قوله كان حكماً بالإفراج عنى وإطلاق حريتى . . وأحسست أنى أكاد من الفرحة أقفز إلى الداخل وهممت بأن أستدير إلى الباب عندما سمعت جدّى يقول فى يسر :

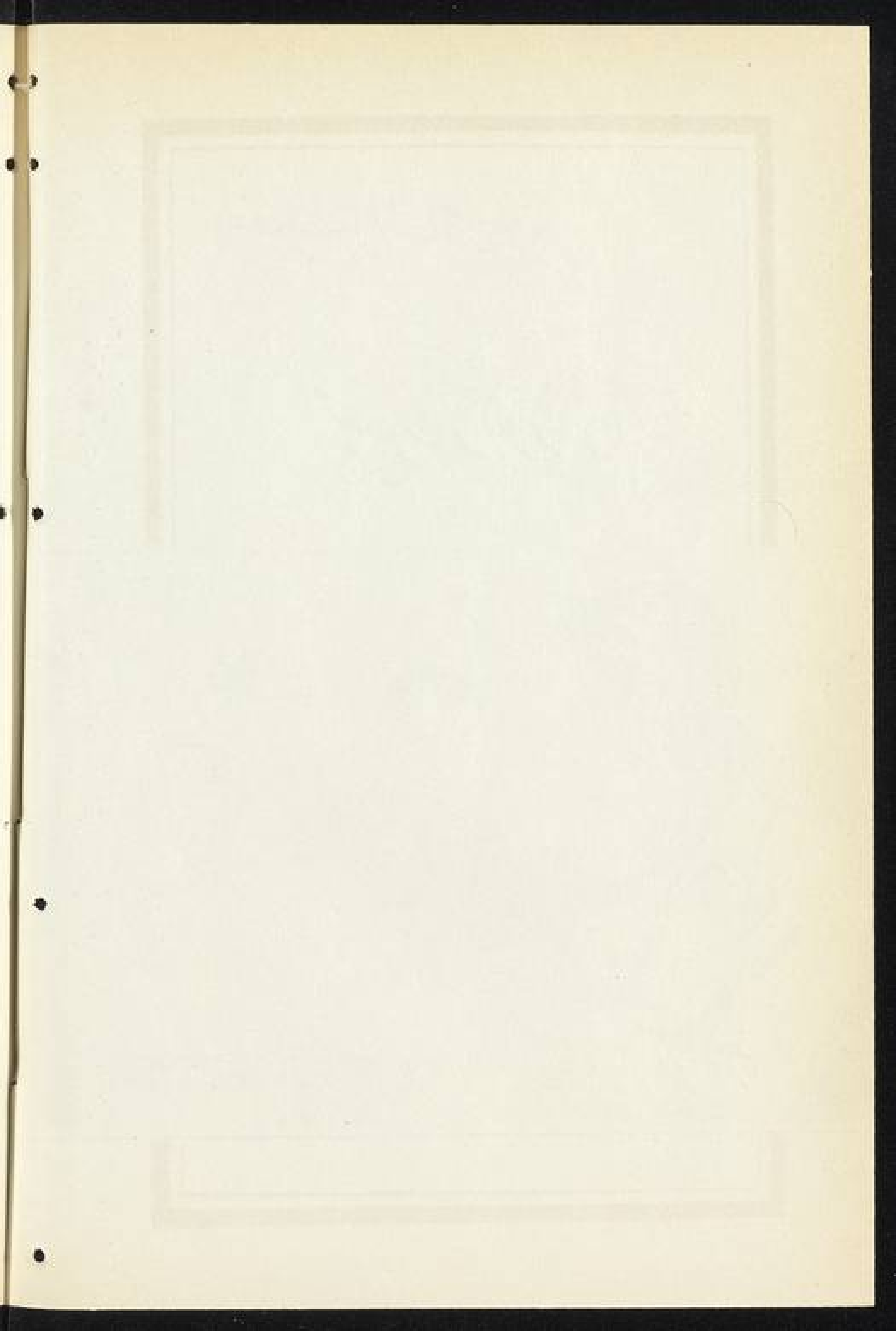
— لا . . لا . . دع الحساب إلى وقت آخر . . انزل معها أفضل .

وهكذا . . فى نفس الوقت . . ألغى حكم الإفراج وتبدد الأمل . . ولم أملك إلا أن أدير ظهرى إلى العربة وأتقـدم إلى الداخل . . وخطواته تطرق الأرض ورائى . . وظله يتبع ظلى .

الفصل السادس

محفورٌ في الذاكرة





نفذت من الباب الحديدى « للأتيليه » وعبرت الحديقة الصغيرة ثم صعدت سلمه الرخامى المنحنى القائم أمام البناء الأصفر العتيق ولمحت الساعة فى يدى فوجدتها الساعة الرابعة وعشر دقائق ، وكان السلم خالياً إلا منى ومن عبد الرحمن الذى كان يصعد ورائى فى تثاقل المكلف عملا يضيق به .

ودلفنا من الباب الخشبي المفضى إلى (صالة) العرض الرحبة ولم يكن المكان قد ازدحم ، فأخذت أقلب النظر يمنة ويسرة ، ويبدو أن وقفتى قد طالت إذ سمعت صاحبي يقول بصوت متبرم :

ــ مالك حائرة ؟ . أتبحثين عن شئ ؟

وحاولت جهدى أن أخفى مابى من اضطراب وارتباك وقلت متصنعة الهدوء :

ــ لا . . إنى أسائل نفسى من أين أبدأ .

ــ أهذه مشكلة ؟ ابدئى من أى مكان وستنتهى حتما إليه . ابدئى من هنا . . من هنا . أليست كلها صوراً ؟

وأجبته فى ضيق :

ــ لا يا أستاذ . . ليست كلها صوراً . . إنها مذاهب ودراسات لابد أن أبدأ بالناحية المهمة .

وهنا بدت لى ــ بما لايقبل جدالا ولاشكا ــ الناحية المهمة . . بل المهمة جداً ، إذ أبصرت إبراهيم يقف فى أحد الأركان وهو يتطلع بقامته المشوقة إلى إحدى الصور .

وأصابنى الاضطراب . . لست أدرى لِمَ . . فرؤيته كانت أمراً متوقعاً . . بل مرجواً ومأمولا . . فعـــلامَ الاضطراب إذاً ؟

وحاولت جهدى أن أتمالك . . ولا سيما وأنا أرى تبرم عبد الرحمن قد زاد وهو يقول فى ضيق :

ــ ألم ترى بعد الناحية المهمة ؟

وبقدر ما استطعت من السهولة أجبته :

ــ أجل وجدتها . . لنبدأ من هذا الركن .

وأشرت إلى الركن الذى وقف عنده إبراهيم ثم اتجهت إليه ، وتساءل عبد الرحمن وهو يهرول ورائى :

ــ ولِمَ هذا الركن بالذات ؟ . . هل أستطيع أن أفهم أهميته ؟

وكنا قد اقتربنا من الركن ولمحت به بعض الصور « السيريالية » فأجبته فى لهجة الواثقة :

ــ إن به بعض دراسات هامة للمذهب « السيريالى » . ،

— « سيريالى » ؟

وتطلع إلى الصور المعلقة ثم قلب شفتيه احتقاراً ورفع كتفيه عجباً وقال :

— هذه « اللخبطة » .. اسمها « سيريالى » !! أنا أستطيع أن أفعل مثلها بسهولة .

— اخفض صوتك .. من فضلك .. إذا كنت تجهل الفن .. فكف عنه لسانك .. ولا تفضحنا ، واذا كنت تستطيع أن ترسم مثل هذه الصور فمن الذى منعك من رسمها ؟

وكنت قد اقتربت من إبراهيم .. حتى وقفت بجواره .. ولست أدرى إذا كان لم يرنى .. أم أنه رآنى وبصحبتى عبد الرحمن .. ، فما حاول ألا يلتفت إلىّ .

وأخذت أتطلع إلى إحدى الصور وذهنى شارد .. وتفكيرى مضطرب .. وأعصابى متوترة ، ولم يحل كل هذا بينى وبين شعور بالمتعة تسرّب إلى نفسى من مجرد إحساسى بأننى واقفة بجواره .. ، برغم أنى لا أراه واحتمال انتقاله من موضعه .

ولا شك أن الوقفة قد طالت فقد وجدت عبد الرحمن يخرج زفرة ملل ثم يهمس إلىّ فى صوت حاول جهده أن يخفضه حتى لا يسمعه سواى :

— وبعد !! إلى متى الوقوف هكذا ؟ . . . ألا تنوين التحرك من أمام هذه الصورة ؟ !

وأفقت من شرودى ... لأهمس إليه فى برود :

— دعنى أشاهد كما أشاء .

— ولكن إذا وقفنا أمام كل صورة هذه الوقفة فلن يكفينا عام لمشاهدة المعرض كله .

— أنا لا أستطيع المشاهدة إلا هكذا .

— ثم إن الصورة لا تستحق كل هذا التطلع .

— أنا لم أرغمك على التطلع إليها . . أمامك المعرض متسع . . تطلع إلى ما يعجبك . . واذا لم يعجبك المعرض كله فيمكنك مغادرته . . لم يرغمك أحد على الحضور .

ويبدو أن رنة الغضب فى همسى كانت واضحة . . وكان عبد الرحمن بطبعه مسالماً غير ميال الى العناد أو المشاكسة .

ولذلك لم يلبث أن قال فى هدوء :

— أنت وما تشائين . . شاهدى ما يعجبك . . وباقى فى المعرض إذا أردت . سأشاهد أنا بقية الصور .

ثم أخذ فى الابتعاد عنى ملقياً نظرات سريعة عابرة على الصور المعلقة .

وأحسست من ابتعاده بعض الحرية ، فالتفت يمنة إلى حيث كان يقف ابراهيم فوجدته يتنقل اتجاهي ببطء وهو يرقب الصور كأنما انتقاله طبيعي غير مقصود ، فلما اقترب مني التفت إليّ نصف التفاتة وهمس قائلا :

— نهارك سعيد ياراجية .

ومرة أخرى — رغم اضطرابي الشديد — لم أستطع منع شعوري بالمتعة وأنا أسمع اسمي يخرج من شفتيه . . وأحسست بشيء من الزهو باسمي وهو ينطقه هكذا مجرداً . وأجبته في مثل همسه :

— نهارك سعيد يا أستاذ . . أنا متأسفة جداً لأني لا أستطيع مصافحتك أو الحديث معك ، لأن ابن خالتي معي . . كنت أنوي المجيء وحدي ، ولكنه صادفنا ونحن خارجون من البيت .. فدعاه جدّي إلى مصاحبتي .

— لا داعي للأسف . . نحن على أية حال استطعنا أن نلتقي . . وأن يرى كل منا الآخر .

وهنا رأيت عبد الرحمن يقترب . . بعد أن شاهد بطريقته السريعة كل المعرض ، ولم يستطع أن يخفي علامات الضيق والامتعاض ولا حاول أن يخفض صوته إلى درجة الهمس بل قال في ضيق :

— كفى حملقة فى هذه السخافات التى تسمينها «السيرياليزم» !

وانتقلت خطوة اتجاهه .. فقد شعرت هذه المرة أن الوقفة قد طالت فعلا وأنها لم يعد لها مبرر بعد أن اعتذرت لإبراهيم .

وكانت وقفتى أمام صورة أخرى من الرسم السيريالى أكثر تعقيداً من الأولى .

ويبدو أن عبد الرحمن قد توهم أن وقفتى أمام الصورة الأخرى ستطول كالوقفة الأولى .. وأن هذا قد جعل صبره ينفد وصدره يضيق وحلمه يصل إلى نهايته فقد قال لى فى حنق :

— هذه ليست طريقة ياراجية .. كأنى بك لا تشاهدين بل تتعمدين إثارتى .. أى شىء يمكن أن يوقفك أمام هذه الصورة كل هذه الوقفة ؟ ! ماذا يمكن أن ترين هذه «اللخبطة والشخبطة» ؟ !

ولم أكن غاضبة بالقدر الذى أجبت به .. ولكن كان علىّ أن أدعى الغضب حتى أجعله لا يتمادى فى طريقته وحتى أوقفه عند حده . قلت له :

— ماشاء الله .. أتنوى أن تفتح لى تحقيقاً فى كل صورة

أقف أمامها . . شيء عجيب ! ! . . أجعلوك قيما علىّ . . إنك تنظر إلى الصور نظرة خاطفة لأنك لا تفهم ما بها . . . أمعقول أن تشاهد المعرض كله فى هذه الدقائق التى مررت به خلالها ؟ ! ... إنك تنظر إليها كما تنظر إلى إعلانات الحائط فى الطرقات ونحن نمر بها راكبين السيارة . . ولكنى أنظر إليها نظرة تمعن وفحص . . إنى أشاهدها مشاهدة نقد ودراسة .. هذه هى طريقتى فى المشاهدة . . وأنا أحس منها بمتعة كبيرة .

— ولكنى لا أشعر أبداً بهذه المتعة . . فما ذنبى أنا ؟

— ما ذنبك ؟ . . ومن الذى أجبرك على المجىء ؟ ! أنا لم أضربك على يدك ولم أربطك من عنقك . . إذا كنت لا تحتمل البقاء فاذهب إلى حيث تريد . . ودعنى أشاهد على مهل . . بدل هذا الضيق الذى تبديه فى كل لحظة والتحقيق الذى تفتحه أمام كل صورة .

والظاهر أنه كان قد ضاق بى فعلا . . إذ لم يكد يسمع منى هذا العرض حتى قال :

— وهذا ما سأفعله . . . لأنى قطعاً لا أحتمل الصبر على هذا الحال . . سأذهب إلى مأمورية ناحية الجمرك . . لأقضى عملا مفيداً بدل هذا التسكع الذى أتسكعه بجوارك

وسآتى إليك بعد ساعة .. أظنك تكونين خلالها قد اكتفيت مشاهدة ؟

ساعة مرة واحدة ! ! لقد كان هـذا أكثر مما أتصور . . ولم أشأ أن أبدى فرحة زائدة حتى لا أثير شكوكه بل رفعت كتفى وبصرى معلق بالصورة وقلت فى غير اكتراث :

ـ كما تشاء . . سأنتظرك حتى تعود .

وأولانى ظهره رافعاً عنى القيد ، وانطلق . وأحسست أنا بزوال الغمة . . وانتابنى شعور لذيذ . . وأحسست بالرغم من امتلاء المعرض بالزوار . . بشعور العاشق فى أول خلوة له . . وانتظرت لحظة حتى أعطى لسجانى فرصة الخروج . . ثم بدأت أتلفت حولى باحثة عن ابراهيم .

وتملكنى خذلان شديد إذ لم أجد له أثراً .

أيعقل هذا ؟ ! ألهــذا الحد بلغت سخرية الظروف وجنونها ؟ ! ولِمَ لا ؟ . . ألا يعقل أن يكون قد انصرف بعد أن أنبأته بأنه ليس هناك فرصة لكى أحدثه ؟ ! ثم هو لم يأت لمشاهدة الصور وإنما أتى للقائى . . فلماذا يبقى بعد ما حدث ! !

ولكن ما ضرّه لو بقى بضع لحظات أخرى ! ! أهكذا قد ضاق بى سريعاً ؟ !

وكانت كل هذه الخواطر تتزاحم على ذهنى .. وبصرى يطوف بأرجاء المعرض .. باحثاً منقباً .

أجل .. أجل يجب أن أبحث جيداً .. فقد يكون مختفياً وراء هذا العمود .. أو مندساً وسط هذه الثلة .. أو .. ربما فى هذا الركن أو فى هذه الزاوية .

واندفعت كحمقاء .. أبحث هنا وهناك .. ولم يكن المكان بالاتساع أو الازدحام الذى لا أستطيع أن أتبين فيه ابراهيم من أول نظرة .. ولكنها بقية من أمل جعلتنى أبحث عنه كأنه « إبرة » فى كوم من التبن .

وأحسست بصدرى يضيق .. واتجهت نحو الباب أنفس عن كربى عندما رأيته يعبر الباب إلى الداخل .

وتنفست الصعداء .. وكدت أعدو إليه لأسأله أين كان ، ولكنى تمالكت حتى اقترب منى .. ومدّ يده فشدّ على يدى .

وتركت يدى تستريح برهة فى يده ، ووددت ألا أنزعها من كفه ، ولكن أعين الناس — التى أحسست فى تلك اللحظة بأنها تركت الصور وتركزت على يدينا — أجبرتنى على أن أسحبها منه .

وقلت له فى لهجة تأنيب :

— أين كنت ؟

وأجاب ضاحكا :

ـ كنت أوصله . . لأتأكد من عدم رجوعه .

ـ لقد بحثت عنك كثيراً . . ويئست من لقائك . . إذ خشيت أن تكون قد انصرفت .

ـ أنا أنصرف ؟ . . أنصرف . . وأنت باقية ! ؟

وبدأت النشوة تدفق إلى رأسي . . وأخذت أوجه دفة الحديث بحيث أستدرجه إلى منحى أكبر قدر من المتعة . . قلت متسائلة :

ـ ولِمَ لا . . قد تكون لديك أمور أهم ؟

ـ أهم من رؤيتك . . ؟ !

ـ أتعتبر رؤيتي أمراً هاماً ؟

ـ ليس هاماً فقط . . بل حيوياً .

ـ برغم وجود ابن خالتي وبرغم أنه لم تكن لدينا فرصة الحديث ؟

ـ أجل برغم هذا . . لقد أطربني مجرد إساسي بوجودك معي في مكان واحد . . ولو لم أنظر إليك أو أراك .

وكدت لا أصدق أذني . . عندما رغبت في استدراجه لم أكن أطمع قط في مثل قوله . . أتراه حقاً يعني ما يقول . . أم تراها مجرد ألفاظ غزل . . يجيدها مثله ! !

وعدت أستدرجه . . ورأسى يدور كالسكرى . . قلت له هامسة :

ــ أحقاً تقول هذا ؟

ــ ليس هذا فقط . . فى بضعة الأيام الماضية . . كنت أشعر بالمتعة . . . من إحساسى بجيرتك . . لقد أصبحت أحب هيكل بيتك . . وأعارض قول الشـاعر الذى قال : « وما حب الديار شغفن قلبى » .

وكنا فى ركن ناء . . ولم يكن حولنا أحد . . ولو كان ما أحسسنا به . . فقد كنا ــ أو على وجه أدق ــ كنت شبه هائمة . . فقدت كل إحساس إلا به . . وبهمساته .

وكان قوله أكثر مما كنت أحتمل . . ولم أعد ــ ذائبة كما أنا ، مرهفة الحس كحـد السيف ــ بالقادرة على الاستدراج ونصب الشباك ووضع الخطط ، ووجدتنى أهمس إليه . . وبصرى معلق فى صورة أمامى دون أن أشاهد منها شيئاً :

ــ أنا أيضاً أحس بنفس الشعور . . ولكنى كنت أسبق إليه منك . . كنت فيما مضى أشعر بنشوة إذا ما سمعت ألحانك . . كنت أحتاج لموسيقاك لكى تشعرنى بالحياة والسعادة . . أما الآن . . . فإنى أحس بالسعادة دون أن

أسمعك . . أحس بها بمجرد التفكير فيك . . فإذا ما علمت أنى لا أكف عن التفكير فيك لحظة . . وأنى أفكر فيك يقظى وأحلم بك نائمة . . . أدركت أنى فى سعادة دائمة . . . لاينضب لها معين ولا يجف لها نبع . . سعادة مستمدة من لاشىء . . من الأوهام والأحلام .

— إذاً فلم يعد بك حاجة إلى سماعى ؟ !

— لست أقصد هذا . . إنما أقصد أن كل شىء منك ممتع . . إذا صمت عنى فأنا سعيدة . . وإذا عزفت لى فإن سعادتى أوفر وأكمل . . أتعرف معنى أن تعزف لى وحدى ؟ أيمكن أن تدرك أثر هذا ؟

— وهل تعرفين معنى أن أعزف لك أنت ! ! وهل تعرفين أثرك علىّ . . على عزفى وتلحينى ! ! لقد بتّ أشعر أنى أعمل من أجل شىء . . وأنى أعزف لإنسان أتوق إلى إرضائه ، ولذلك يخيل إلىّ أننى فعلت شيئاً أفضل .

— لا أظن هناك أفضل مما سمعت .

— بل هناك قطعة أتممتها أخيراً . . أعتقد أنها ستكون خير ما وضعت .

— ما اسمها ؟

— راجية .

— راجية ! !

واعجباً ! ! أحقاً يقول هـذا ؟ ! أحتمـاً وضع قطعة من أجلى ؟ ! وباسمى ! ! وخفضت رأسى عن الصورة التى كنت أحملق فيها . . وتملكتنى رغبة جارفة فى أن أستند إلى ذراعه وأضع رأسى على كتفه ، ولكن أحد الزوّار اقترب منا ، فخطونا إلى الناحية الأخرى بضعة خطوات قادتنا إلى خلوة أخرى .

وعـدت أهتف به وقد تلاحقت أنفـاسى من فرط الفرحة :

— أتقول حقاً ؟ ! !

وحوّل إلىّ عينيه وعلت وجهه ابتسامة وأجاب فى رقة :

— طبعاً أقول حقاً . . ماذا يدهشك فى ذلك ؟

— هذا أكثر مما كنت أرجو ، بل أكثر مما كنت أحلم . أكثر كثيراً . . لست أظننى أستحق أن تضع من أجلى لحناً .

— لقد وضعته دون أن أفكر فيما اذا كنت تستحقين أو لاتستحقين ، فعنـد ما يشـغل ذهن الفنـان شئ بذاته . . ويسيطر على تفـكيره . . تجدين هـذا الشىء قد برز فى عمـله وألصق به طابعه دون أن يقصد . ، هـــذا الشىء هو

ما يسمونه الملهم . . وأظن أن من أبسط أصول الذوق واللياقة أن يسمى الإلهام باسم الملهم . . أو الملهمة . . أعرفت بعد هذا إذا كنت تستحقين أو لا تستحقين ؟

ولم أعرف كيف أجيب فقد كنت أشبه بالثملة . . ولماذا أشبه وأنا أؤكد أن أعتق أنواع الخمر لم تكن تفعل برأس شاربها مثل ما فعل حديثه . . ورفعت رأسي إلى وجهه . . وتذكرت الصورة التي رسمتها له وقلت له في حياء :

— أنا أيضاً . . كان لديّ شيء يشغل ذهني ويسيطر على تفكيري . . ولا أكاد أتخلص من سيطرته لحظة واحدة .

— وماذا فعلت ؟

— كما فعلت أنت . . ولكن بطريقتي الخاصة . . الطريقة التي أقدر عليها . . لقد رسمت صورتك .

— أتقولين حقاً ؟ !

— أقول حقاً ؟ ! ! هل تصدق أني لم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً سوى رسمك . . وأني عند مابدأته . . أخذت أتباطأ وأتمهل خشية أن أنتهي منه . . . وأفقد بذلك نوعاً من صحبتك . . . واستحضارك في ذهني .

— أرسمتني من الذاكرة ؟

— طبعاً !

ـ وأجدت الشبه ؟

ـ جداً !

ـ عجباً ؟

ـ أى عجب فى ذلك !! أفى أن أرسمك من الذاكرة عجب ؟ . إنك أثبت فى الذاكرة من أى شىء آخر . . أنت مقيم فى الذاكرة .

ـ إقامة دائمة ؟

ـ للأبد .

ـ ليت هذا يتحقق . . إنك مخلوقة عجيبة . . . تختلفين تمام الاختلاف عن غيرك من البشر . . . يبدو لى أنك لم تخلق مثلهم من طين ، بل من شعاع ، وأن تكوينك ليس من دم ولحم ، ولكن من مشاعر وأحاسيس . . إنك أشبه بالنسمة العطرة السارية . . منك بالبشر . . ومن أجل هذا أخشاك .

ـ تخشانى أنا ؟

ـ أجل . . أخشى « بساطتك » ورقتك . . وقدرتك العجيبة على التسرّب فى دمى . . لقد تسللت إلى مشاعرى دون أن أشعر . . أتدرين كيف يتسلل النوم إلى جفونك . . ويتركك نائمة دون أن تعرفى متى نمت ولا كيف نمت ؟ . .

لقد فعلت أنت بى هذا . . مرة واحدة لقيتك فيها . . خيل إلىّ بعدها . . أن بيننا ود قديم ، وصلة وثيقة . . ووجدت أن رؤيتك كل يوم فى شرفة منزلك قد بانت فرضاً واجباً علىّ . . ألا أخشاك بعد كل هذا ؟

— إذا كان لى أن أخشاك . . فعليك أن تخشانى . . ومادمت لا أخشاك . . ولا أخشى فى شعورى نحوك أحداً . . فلا أظن هناك ما يدعو من خشيتى . . بل لا أظن برغم كل ما قلت أن بى مايخشى .

ومرة أخرى بدأ الزوّار يزدحمون حولنا . . فأخذنا نتنقل جانباً خطوة بعد خطوة . . . ولكننا لم نجد لأنفسنا خلوة كالسابقة ، ولم تعد الفرصة سانحة للمناجاة ، وخشيت أن يحضر عبد الرحمن فنفترق فجأة دون أن نتفق على شئ فقلت له :

— متى سأسمع القطعة الجديدة ؟ !

— الليلة إذا شئت .

— أية ساعة ؟ !

— الثامنة . . أو التاسعة ؟ !

— لتكن التاسعة . . إذ نكون قد انتهينا من العشاء ، وآوى جدّى إلى حجرته .

وزاد الازدحام حولنا ، وازدادت خشيتى من عودة عبد الرحمن ، وكنت أود لو نتفق على موعد لقاء آخر . . ولكنى كنت أخجل من سؤاله .

وصمت برهة متشاغلة بمشاهدة صورة سلطت عليها عينىّ دون أن أفقه ما بها .

وقطع هو هذا الصمت بسؤاله :

ــ ألا أستطيع أنا أن أرى الصورة التى رسمتها ؟

ــ طبعاً . . عندما أنتهى منها سأرسلها لك .

ــ ترسلينها ؟ ! ! أنا لا أريدها وحدها .

ودق قلبى . . فقد وجدت أنه يوشك أن يعرض ما أهفو إليه ، ولكنى تساءلت متجاهلة ما يقصد :

ــ وماذا تريد معها ؟

ــ أريد أن أراك معها . . أو على الأصح أراها معك .

ونظرت اليه باسمة وأجبته :

ــ لا أظن من السهل أن ترانا معاً . . فلست أدرى كيف أحملها لك .

ــ إذاً أراك أنت . . لا ضرورة لأن تتعبى نفسك بحملها . . أظننى أن أستطيع أن أستغنى عنها الى حين . . ليس أسهل علىّ من أن أبصر صورتى . . فما أكثر المرايا فى الدار

أما أنت فرؤيتك نادرة . . .

وبدأت أفكر . . كيف يمكن أن ندبر فرصة للقاء . والإنسان دائما عند ما يحاول التفكير فى حل لسؤال سريع . . تسد أمامه جميع السبل وتهرب كل الحلول . . كيف ألقاه ؟ . . كيف ألقاه ؟

وأردف هو يستحثنى :

ــ لم تقولى كيف أراك ؟

ــ دعنى أفكر . . إن المسألة ليست سهلة . . لابد من تفكير وتدبير .

ــ ألا تخرجين من البيت ؟ ! ألا تذهبين الى السينما ؟ !

ــ أجل أخرج . . ولكن لست وحدى . . لا بد أن يصحبنى جدّى أو عبد الرحمن .

ــ ألا تذهبين وحدك أبداً الى أى مكان ؟

ــ وحدى !! لا أظننى أذهب الى أكثر من ماريكا . . ومع « سيدة » .

ــ ماريكا ؟ أخياطة هذه ؟

وضحكت وسألته فى دهشة :

ــ ألا تعرف ماريكا ؟ . أتمكث فى السيوف هذه المدة ولا تعرف ماريكا ؟

ـ والله لم أسمع بها .. أهي قديسة كسانت تريزا مثلا ؟

وأضحكني قوله هذا أكثر .. ولم أتمالك نفسى من القهقهة .. ورأيته يحدق فى وجهى دهشاً وتساءل ضاحكا :

ـ اسمعى ياراجية .. قولى من تكون وأريحينى .. أم تريدين أن نضيع اليوم فى حديث عن ماريكا ؟

ـ إنها صاحبة «كشك» المرطبات عند المنتزه وسط تفتيش السيوف قرب محطـــة الأوتوبيس .. هل عرفت ماريكا ؟

ـ والله أعرف «الكشك» الذى تقولين عنه .. ولكنى لم أتشرّف بمعرفة ماريكا بعد .

ـ لا ضرورة للتشرّف بمعرفتها .. لأنها لا تمكث فى «الكشك» الا نادراً ، ولكن الكشك مازال يسمى باسمها .. نحن تعوّدنا أن نسميه هكذا .

ـ اذاً فهى امرأة خالدة .

ـ ستكون خالدة منذ الآن .. بعد أن نلتقى عندها .

ونظر الىّ بطرف عينيه وتساءل فى خبث :

ـ ومتى تنوين تخليدها ؟

ـ انى أخرج للسير عادة فى الحقول مع «سيدة» قبيل الغروب .. ثم ينتهى بنا المطاف الى ماريكا ، ثم نعود بعدها

إلى البيت .

– إذاً نلتقى غداً لنجول معاً بين الحقول ؟!.

– ولكن . . أخشى أن يرانا أحد من أهل المنطقة .

– لا تخشى شيئاً . . إن المنطقـــة خراب . . لا أكاد أبصر بها إنساناً . . متى نلتق ؟

– فى الخامسة .. سأنتظرك ومعى « سيدة » عند ماريكا ، ثم نبدأ سيرنا من هناك .

ونظرت إلى الساعة فى معصمى فإذا بالوقت قد طار . . وإذا الساعة قد مرّت فى لمح البصر . . وأصابنى قلق وتلفت نحو الباب خشية أن يكون عبد الرحمن آتياً ثم قلت له فى ارتباك :

– أظن الوقت قد حان لكى نفترق . . إن عبد الرحمن يوشك أن يأتى .

– سأنتظرك فى الخامسة؟

– إن شاء الله .

ولم يكد يبتعد عنى بضع خطوات حتى ظهر عبد الرحمن فى الباب يتلفت باحثاً عنى . . فرفعت يدى ملوّحة له . . واتجهت اليه فى خطوات خفيفة سريعة . . وأقبلت عليه هاشة باشة .

لقد أحسست من فرط نشوتى أنى أحبه .. بل كنت أحب جميع الناس .. والصور والتماثيل، والحرّاس.

وكان الكره الذى سبق أن شعرت به عند حضوره المفاجىء .. قد قلب امتناناً له وتفاؤلا به .. بعد أن منحنى تلك الساعة التى حصلت فيها على أقصى ما كنت أتصوّر أن أحصل عليه.

وسألنى عبدالرحمن ضاحكا :

— أما زلت تدرسين « الشخبطة واللخبطة » ؟

وضحكت وأجبته :

— لا. لقد انتهيت منها .. إنى على أتم استعداد للرحيل معك.

— وأنا على أتم استعداد للحملقة معك كما تشائين.

وسحبته من ذراعه واتجهنا إلى الباب وأنا أقول :

— لا داعى للسخرية .. أنا لا أسخر من حساباتك التى تقضى الساعات شاخصاً بها .. ولا أسخر من أوراق السماد وتقارير الضرائب وغيرها من « اللخبطة والشخبطة » التى أنت غارق فيها.

وأجاب عبدالرحمن ضاحكا :

— ولكنها .. لخبطة مفيدة ومربحة.

ـــ مربحة للجيب .. ولكن « لخبطتى » مريحة للنفس والذهن .

وكنا قد وصلنا إلى العربة وانطلقت بنا لنأخذ جدّى من التريانون ثم نعود إلى البيت .

وفى الثامنة انتهينا من العشاء وتسللت من غرفة الجلوس تاركة جدّى وعبد الرحمن فى حساباتهما مدعية أن النوم قد أثقل جفونى ثم آويت إلى حجرتى وارتديت ثياب النوم وخرجت إلى الشرفة .. وجلست على مقعدى المريح أنتظر حضور سيدة إذ كان بى لهفة على أن أقص عليها المعجزة التى حدثت .. وبعد لحظة أتت سيدة .. ولم تكن لهفتها على السماع بأقل من لهفتى على الحديث .

وبدأت أجتر ماحدث .. شاعرة من قصه بما يشابه متعة حدوثه .. وعجبت لنفسى كيف استطعت أن أحفظ أحاديثه كلمة كلمة .. كأنها قطعة محفوظات كلفت حفظها .. بل أكثر من هذا .. كانت كأنها ثروة حصلت عليها بعد طول حاجة وحرمان ، فأنا أخشى أن أبدد منها دانقاً .. وأحرص كل الحرص على أن ألمها فى الذهن وأحفظها فى الذاكرة .

وكانت سيدة سعيدة بسعادتى .. تربت يدى وتتحسس شعرى وأنا أقص عليها .

ولم أكد أنتهى من الحديث حتى سمعت دقات على البيانو وأدركت أنه سيبدأ العزف . . فقلت لسيدة :

ــ اغلقى الباب . . وانصتى جيداً . . حتى تسمعى إلى « راجية » .

ــ لقد مضت ساعة وأنا أستمع إلى راجية . . ألديك شئ أكثر مما قلت ؟ !

وضحكت وقلت لها ساخرة :

ــ يا جاهلة . . أنسيتِ . . ألم أقل لك أنه فى الساعة التاسعة سيعزف لى القطعة التى وضعها باسمى ؟ !

وبدأ العزف . . وأغمضت عينى . . واستسلمت للحن يحملنى على أجنحته بعيداً . . بعيداً .

ولم أفق من نشوتى . . إلا وقد ساد السكون . . وخيم الصمت وأطلقت من صدرى تنهيدة الراحة . . التى تعوّدت أن أطلقها كلما شعرت بالهدوء والسكينة والاستقرار .

ونظرت فى الظلمة تجاه شرفته . . فإذا بى ألمح شبحه وقد استند على حافتها . . وأحسست أنه يود أن يعرف رأيى فى لحنه ، أو على الأقل يثق أنى سمعته .

وقفزت من مقعدى فجأة . . حتى أفزعت سيدة . . ثم أضأت نور الشرفة . . وأشرت بيدى ملوّحة . . فتلقيت تحية

منه رداً على إشارتى .

وكانت سيدة قد قفزت بدورها ومدّت يدها فأطفأت النور وقالت لى ناهرة :

— أمجنونة أنت ؟ ماهذا الذى تفعلينه « آل ماشافوهمش بيسرقوا . . شافوهم بيتحاسبوا » ماذا تفيدك هذه الإشارة سوى الفضيحة ؟ ! ألم يكفك طول اليوم وأنت معه ؟ ! ألم تكتفى بكل ما حصل ؟ ! ألا تحمدين الله على أن مرّ اليوم بخير . . حتى تحاولى أن تنهيه بفضيحة . . هب أن جدك أو عبد الرحمن أو أحد الخدم . . رآك تشيرين هكذا ! . . فماذا يحدث ؟

وكانت سيدة على حق . . ولكن اندفاعى كان غير إرادى . . كانت رغبة شديدة فى أن أعبر له عن تقديرى ، ومشاعرى .

وعدت إلى مقعدى وأنا أتمتم معتذرة :

— متأسفة يا سيدة . . لم أقصد مافعلت . . لقد حدث على غير إرادة منى .

— هذه هى المصيبة . . كل الأخطاء تحدث لنا من الأفعال التى نفعلها بلا وعى . . ولو كنا فى وعينا مافعلناها . إنى أريد منك أن تتعقلى وتتندى . . إن لم يكن من أجل

مصلحتك . . فعلى الأقل من أجل متعتك . . كلما زاد تسترك زادت علاقتك به طولا واستمراراً . . فالناس لا يقدرون الأخطاء بوقوعها ولكن بظهورها . . فاحذرى يا حبيبتى ما أمكنك . . ولا تعبي كأسك مرة واحدة . . لأنه كلما بطؤ الرشف زادت فترة الاستمتاع .

وكانت سيدة تبدو فى بعض الأحيان حكيمة . . ولست أشك أن قولها هذا كان إحدى حكمها الرائعة . . ولكنى بحالتى الهائمة التى كنت عليها . . لم أكن على أى استعداد لسماع أى نوع من الحكم . . مهما بلغت من الروعة .

من يستطيع أن يقول للهجر الصادى الذى أقبل على عين نميره . . تمهل . . وخذ قطرة قطرة . . ؟

ونمت ليلتى تلك . . لماماً . . كان ذهنى مليئاً بالمتع التى أخشى أن أغفو عنها . . برغم أن الغفوة عنها كانت حلماً بها .

وفى الفترات التى كان ينبو بى المضجع كنت أستلق على المقعد فى الشرفة . . ونظرى يتنقل بين النجوم المتألقة فى أديم السماء . . وضوء خلته يتألق فى أديم الأرض ، ينبعث خافتاً من وراء إحدى النوافذ .

وقبيل الفجر نمت نومة عميقة ملؤها حلم طويل لذيذ . . رأيت نفسى وإياه فى زورق يجرى فى عرض البحر وقد

وقف الناس يلوّحون لنا على الشاطىء .. وعندما تحسست رأسى وجدت عليه « طرحة بيضاء » ثم وجدت ذيول ثوبى البيضـــاء تفرش أرض الزورق .. فأدركت أنى ألبس ثوب العرس .

هكذا أنالتنى الأحلام أقصى الأمانى .. وعندما استيقظت فى الصباح .. خيل إلىّ أنى إما أن أكون مخلوقة أخرى وإما أن تكون الدنيا قد أضحت دنيا أخرى .. فقد كان الحبور يملأ نفسى .. والثقة والاطمئنان والأمل العريض والأمانى الحلوة تفيض بها .



الفصل السابع

ثقة وإيمان





قضيت اليوم من أوهامى وأحلامى فى طرب دائم ونشوة مستمرة . . حتى حلّ الموعد فانتعلت صندلا خفيفاً ، « وبلوزة حمراء » ، و « جيب أسود » ، وقلت لجدى إنى خارجة للتمشى مع « سيدة » ، فهز رأسه وهو منهمك فى القراءة قائلا :

— لا تغيبى حتى الظلام .

— حاضر .

وهبطنا السلم وعبرنا الحديقة وألقيت نظرة على الدار الأخرى ثم سرت متجهة إلى كوخ « ماريكا » .

ورأيت « سيدة » تتلفت حولها فى حذر ثم تتمتم ببضع كلمات . . وخيّل لى أنها تقول شيئاً لم أسمعه . . فسألتها عما تقول فأجابت بلهجة خائفة :

— أطلب الستر من الله .

وكنت أراها متشائمة أكثر مما يجب ولم أكن أرى لحذرها موجباً .

وكانت المسافة لاتزيد على بضع مئات من الأمتار يقطعها المرء سيراً على الأقدام فى بضع دقائق . . وكان الكوخ على مدى البصر من البيت لولا بيت آخر يقوم بينهما .

وسرت فى الطريق المترب حيناً وخضت بين الحشائش

فى الأراضى الفارغة حيناً آخر . . . وكان المكان قد خلا على مدى البصر إلا من بضعة كلاب تتبادل النباح وعربة تنساب فى الطريق الرئيسى الآتى من فيكتوريا المتجه إلى القاهرة .

ووصلت إلى الكوخ الخشبى الأخضر الذى أحاطت به المتسلقات ووضع فى داخله بضعة صناديق فيها زجاجات الكازوزة والكوكا كولا وبعض قطع الشيكولاتة والحلوى، واللادن ، ورصت حوله مناضد خشبية ومقاعد من القش .

ولم أر أحداً أمام الكوخ فى أول الأمر . . اللهم إلا عربة جلس فيها رجل وامرأة . . ولكنى لم أكد أدور حول الكوخ حتى أبصرته .

وتوالت ضربات القلب . . برغم سبق الاستعداد للقاء . وأصابنى الارتباك . . . وخشيت إن أنا أقبلت عليه أحييه أن يرانا أحد ، ولا سيما أن الساقى يعرفنى جيداً .

وكان بجوار الكوخ متنزهاً عاماً لا يزيد على مسطح من الحشيش والأشجار أحيط بسور من الدرنته ووضعت به بضعة مقاعد ، وكان غالباً ما يلجأ اليه عمال الأوتوبيس ، أو الركاب الذين ينتظرونه ، وكان من الجنون أن ألجأ اليه . لم يبق أمامى إذاً غير الاندفاع تجاه الطريق المؤدى إلى

المزارع ، وإلى المتنزه الآخر المهجور القائم فى أطرافها .

وهكذا سرت فى الطريق وقد منعنى الارتباك من تحيته أو إعارته مجرد الالتفات .

وبعد مسيرة برهة أحسست بالارتباك الفجائى الذى لامبرر له قد بدأ فى الزوال ، وتلفت خلفى فوجدته يلاحقنا بخطا متئدة .

وتمهلت . . وأخذ هو يقترب منا رويداً . . رويداً . . وعندما وصل إلينا كنا قد ابتعدنا عن الكوخ ولم أعد أبصر حولنا . . سوى المزارع والأشجار .

ورأيته يضحك وهو يشد على يدى :

ــ ماهذا العدو . . أتظنيننا فى سباق ؟

وأردفت سيدة مؤيدة قوله :

ــ لقد قطعت أنفاسى وأنا أحاول اللحاق بها .

وكنت أكاد أسمع دقات قلبى . . كانت بى فرحة جارفة وأنا أسير بجواره وقد تركت يدى مستسلمة فى يده . . . وقد انبسطت أمامنا الخضرة وأخذت أطراف أعواد القصب المتكاتفة تتماوج فى هبات النسيم .. وانبعثت من أعالى الشجر خشخشة ووشوشة وتغريد وزقزقة ، وسرت الريح بين الأغصان والأوراق فملأتها حياة وحركة .

ولم نقل شيئاً . . كان اللسان فى صمت . . والجوانح فى صخب . . حتى وصلنا إلى المتنزه الخالى ، الكائن على أطراف المزارع ، وكانت حشائشه قد استطالت فى إهمال مستحب ، وأشجار البوتشارديا الباسقة قد تدلت أوراقها العريضة كالمراوح من قمتها العاليـة وعلى أطرافها من الزغب ما يشبه الشعر الأبيض . . وأحواض من الوينـكا البيضاء والبمبة قد تناثرت فى أنحاء الحديقة .

واجتزنا مدخل المتنزه ، وتمهل إبراهيم قليلا وتساءل :

— ما رأيك لو استقررنا هنـا على أحد المقاعد . . أم تصرين على المشى فى الحقول ؟

— أبداً . . أنا لا أصر على شىء . . لنجلس إذا شئت .

وكنت أفضل الجلوس . . ، فإنى فى السير لا أستطيع مواجهته ، وقد كنت أرغب فى أن أعب النظر منه . . إذ كنت أشعر أن هذه الفرص للقاء لن يجود القدر بمثلها كثيراً .

وجلسنا ، وكانت الشمس توشك أن تغيب ، وتذكرت أن جدّى أمرنى أن أعود قبل سقوط الظلام ، وأحسست أن فرحتى قد بدأت تشوبها شوائب القلق . . وأن سيل النشوة أخذت تعترضه جنادل خوف مبهم مبعثه الإحساس بعدم التملك الدائم ، وبعدم السيطرة المستمرة على ذلك الشىء الثمين النادر

الذى أطبق عليه بين يدى . . وأن مدى استحواذى عليه رهن بكل مشيئة . . إلا مشيئتى .

أجل . كل شيء يتحكم فى استحواذى عليه . . جدّى . . وعبد الرحمن . . وسيدة . . وكل عابر سبيل . . يستطيع أن يمنعنى من أن أضمه إلىّ أو أنعم بالهدوء إلى جواره .

حتى هذه الشمس الغـــاربة . . . تتحكم فىّ دون أن تدرى . . إنها تهوى بسرعة نحو الأفق . . كأنهـا على موعد وراءه . . أو كأنها تحسدنى على جلستى . . فهى تأبى أن تطيلهـا علىّ .

ويبدو أن شرودى قد طال . إذ أبصرت أصبع إبراهيم تمتد متسللة فتعبث بخصلة شعر دفعها النسيم إلى جبينى فأخذت تضطرب فوقه .

ونظرت إليه باسمة فأجابنى :

— صح النوم . . فيم كنت شاردة ؟

— فى الدنيا .

— مالها الدنيا ؟

— عجيبة !

— أى عجب بها ؟ !

— كل أحوالها . . عندما تهب . . تهب بحمق . . كأنها

سفيه يستحق الحجر . . حتى يبيت الإنسان من فرط إغداقها وهو غير مصدق أنه يعيش فى الواقع . . وأن ما به ليس حلماً من أحلام الدجى .

ــ ما ذا ترينها أغدقته عليك ؟

ــ كل شىء . . . لقد قلت ذات مرة لسيدة وأنا أسمعك تعزف من أجلى أحد ألحانك . . إنى كنت فيما مضى أحس بالسعادة وأنا أشارك الناس فيك كما أشاركهم فى الشمس والهواء . . . وسألتها ما ذا يكون إحساسها لو علمت أن الشمس قد طلعت لتضىء لها وحدها .

ــ ألم تسألها عن شعورها عند ما تجد أن الشمس قد أضحت ملكها ؟ ! بل ألم تسألى الشمس عن مدى سعادتها . . وهى تضىء من أجلك ؟

وكانت سيدة قد جلست على مقعد ناء وأخذت تتسلى بمضغ قطعة « لادن » ووجدت نفسى أبتسم وأنا أنظر إليها . وما لبثت أن قلت له :

ــ لا أظننى أستطيع أن أسألها الآن . . ولا أظننى أجسر على أن أسأل الشمس .

ومد إبراهيم كفه فبسط باطنها على ظاهر يدى وأخذ يتحسسه بحنان ويضغط أصابعى برفق . . كأنما يقول شيئاً . .

لولا الحياء .. لجسرت على أن أترجمه .. بلفظة « أحبك » .

وأحسست أنى أوشك من مسة يده وضغطها أن أذوب ، وأتى إلىّ صوته هامساً فى أذنى :

— الشمس التى تتحدثين عنها تستمد نورها منك .. من مشاعرك .. ومن إحساسك المرهف .. إنك ماتبصرينه بها من ضياء .. هو ضوء قلبك معكوس عليها .. كنت أحس بالوحدة والفراغ .. ولم يخطر لى ببال .. أن هذا الفراغ العريض يمكن أن تملأه مخلوقة فى مثل ضآلتك .. ومع ذلك فقد ملأته .. حتى بت أشعر أنك أصبحت لازمة لى .. بل جزءاً منى .

وازددت به التصاقاً .. حتى أحسست فعلا أنى جزء منه .. وعادت أصابعه تعبث بخصلة الشعر المتهدلة على جبينى وهو ينظر إلى عينى ... مما جعلنى أتلهف على الارتماء فى صدره .. والالتصاق به .. إلى الأبد .

وهمست به :

— أنا أيضاً أحس بما تحس .. ولكنى لا أجرؤ على التصريح به لأحد حتى لنفسى .. لأنى أتوهم أنك أكبر من أن أمتلكك .. إنى أحس بأنك معجزة .. وامتلاك المعجزة ليس من نصيب البشر .

– أنا أكره أن تقولى عنى ذلك .

– ولكنك كذلك .

– لو كنت كذلك بالنسبة للناس جميعاً فإنى أكره أن أكون كذلك بالنسبة إليك . . أكره أن تحبى فىّ المعجزة التى تتوهمينها . . أكره أن تحبى فىّ الضخامة التى تقولين عنها . أريد أن تحبى فىّ ما أحبه فيك . . المخلوق الفرد « البسيط » . أريد أن تحبى فىّ البشر الذى يكمن فى داخلى . . بمساخرى وسخافتى . . أريد منك أن تحبى فىّ الرجل القابع بلا ضوء ولا ضجيج ولا شهرة . . ولا ألحان . . فهذه كلها . . يحبها الناس جميعاً . . أما الباقى فلا يحس به أحد . . وما أشد شوقى إلى أن تحسى به أنت .

وأحسست من قوله بعبرة تطوف بعينىّ وتراودها على النزول . . فأمسكت يده بين يدى . . وتناسيت ما لحواء من كبرياء . . ورفعت كفه فمسستها بشفتى ، وهمست وأنا دافنة وجهى فى كفه وقد أخذ يتحسس بحنان ورفق :

– إنى أحبك كما أنت . . أحب المخلوق الذى أمامى كما هو . . لقد أحببت فى أول الأمر ألحانك وعبقريتك ، فلما لقيتك وجدتك خيراً من كل ألحانك . . بل من كل

موسيقى العالم . . أنت وحدك وسواك لاشئ . . لوسألتنى الآن ألا أسمع موسيقى أبداً للبيت طلبك .

وتخلل بأصابعه شعرى وضم رأسى إلى صدره وأجاب :

— لن أسألك هذا . . إن حب كل منا لصاحبه . . لن يمنعنا من حب الموسيقى معاً . . نحن أولا . . والموسيقى ثانياً . . مارأيك ؟

ورفعت إليه وجهاً باسماً وأجبته قائلة :

— أنت أولا . . ولا شىء بعد ذلك .

وسمعت سيدة تنادينى . . فأفقت لنفسى . . وللشمس الهاربة . . وللظلام المطبق . . وتذكرت جدّى ، وكرهت أن أهبط سريعاً من هيامى الطليق إلى حياتى المقيدة .

وكانت سيدة قد اقتربت منى قائلة :

— أظن الوقت قد أزف للعودة . . أخشى أن يقلق جدّك عليك .

ونهضت واقفة إذ لم أكن فى حاجة إلى تحذير سيدة . . وغادرنا المتنزه وسرنا متلاصقين وقد أطبقت يده على يدى وقد شغل ذهنينا تفكير واحد . . هو اللقاء التالى . . ولم يطل به التفكير حتى تساءل :

ــ متى سأراك ؟

ــ هذا ما كنت أفكر فيه .

ــ وإلام اهتديت ؟

ــ لم أهتد إلى شيء . . فلست واثقة من نية جدّى فى الغد . . كان يقول أننا مدعوون إلى الشاى عند أحد أصدقائه وأظن من الخير ألا نرتبط بموعد من الآن حتى لا أخلفه .

ــ إذاً نلتقى بعد غد ؟

ــ سأرسل سيدة لكى تبلغ مدبولى الموعد الذى يمكن أن نستقر عليه .

وكنا قد تركنا الخلاء وقاربنا إحدى الدور فقلت له :

ــ خير لنا أن نفترق الآن .

وضغط على يدى الضغطة الممتعة . . التى كنت أشعر منها بما تشعره كل ولهى . . عندما تلتقط أذناها همسة « أحبك » .

وافترقنا . . وسرت أنا فى طريق مستقيم مؤدى إلى المنزل رأساً . . واتبع هو بعض الطرق الدائرة حتى نتباعد ولا نقبل على دارينا معاً .

وعندما وصلت الدار حمدت الله لأن جدّى كان قد غادرها . . فلم أعرض لمشقة التأنيب على هذا التأخير .

وأصبح الصباح علىّ . . بعد ليلة سعيدة ملؤها الأحلام الممتعة . . ووقفت أستقبل الشروق وأنا أشعر أن الدنيا قد وهبت لى كل ما لديها من سعادة . . وأنها منحتنى نصيبى ونصيب الآخرين .

ولكن يبدو أنها كانت تحتفظ لى بالمزيد .. وأنها رغبت أن تؤكد صحة قولى أنها عند ما تهب تهب بحمق السفيه الذى يستحق الحجر . . إذ لم أكد أجلس إلى الإفطار حتى أقبل جدى مرتدياً ملابسه وأنبأنى أنه سيأخذ قطار الصباح إلى القاهرة . . لأن عبد الرحمن دعاه إلى الحضور لتسجيل بعض الأوراق فى محكمة الشهر العقارى . . وأنه سيمكث بضعة أيام حتى يحضر القضية الخاصة بأرض الأوقاف . . وأشياء أخرى لم أحاول وعيها لأن ذهنى قفز إلى ابراهيم . . تاركاً جدى يشرح أسباب سفره . . ويفصل مشاكله ويشرح ضيقه بأسهم كذا وكذا وسندات كيت وكيت . . ووجدتنى ألقى إليه بقيودى الثقيلة ليحملها معه إلى القاهرة فى بضعة الأيام التى سيتركنى فيها . . وأخذت أهيم مع ابراهيم . . حرة طليقة . . نضرب بين الحقول . . ونعدو على الشاطىء ، ونسبح فى الماء ، ونحلق فى الهواء .

وفجأة جذبنى جدّى من سماء أوهامى وبحور أمانى بقوله :

ـ لقد فكرت فى أن آخذك معى .

ـ معك ؟!

قلتها بلا إرادة كالملسوعة . . ونظرت إليه مبهوتة فاغرة الفاه . . ولكن بقية حديثه دفع إلىّ الطمأنينة مرة أخرى فقد أردف قائلا :

ـ . . ولكنى وجدتنى فى عجلة . . ولن تطول غيبتى . . وأظنك تستطيعين البقاء وحدك بضعة أيام ، إنك لم تعودى صغيرة . . لقد أصبحت « ست بيت » . . وسآمر السائق أن يبيت فى الدار خلال فترة غيابى . . والنقود موضوعة فى الدرج . . خذى كل مايكفيك .

ولم أحاول أن أنبس ببنت شفة . . فقد خشيت إن أنا نطقت أن أكشف فرحتى . . وأنا أقول له : « اذهب اذهب . . ولا تخش شيئاً . . إن سفرك الطارىء هو أقصى ما كنت أتوق إليه . . إنى لن أشعر بخوف ولا وحشة . . لأن ابراهيم سيؤنس وحشتى » .

واستمر هو فى نصائحه وتحذيراته . . حتى انتهيت من الإفطار وسألنى أن أجهز له الحقيبة الصغيرة .

وبعد نصف ساعة كان قد غادر البيت . . وكان لسان حالى يهتف بقول الشاعر : خلا لك الجو فبيضى واصفرى »

وكان أول ما فعلت . . هو أن وقفت فى الشرفة أملأ صدرى من النسيم العابر على الدار الأخرى . . كأن جدّى قد منعنى من استنشاقه . . وكان أول ما فعلته سيدة هو أن لحقت بى . . وقالت محذرة :

— إسمعى . . إياك والجنون . . شيئاً فشيئاً . . تذكرى أنه يوجد خدم ، وتوجد جيران .

ونظرت إليها متصنعة الدهشة وتساءلت :

— وماذا فعلت حتى تقولى هذا ؟

— لم تفعلى بعد . . ولكنى أعلم أنك ستفعلين . . لو سافر جدّك منذ شهر لما قلت لك هذا ، فقد كنت ما زلت فى عقلك ورزانتك . . أما الآن . . فيجب علىّ أن أرقبك جيداً . . بعد أن أطاش جارنا صوابك . . وأضاع عقلك .

— ما هذا الذى تقولينه ياسيدة ؟

— أقول الحق . . أقسم أنك لم تصبحى راجية أبداً . . أبداً . .

— أنا معك إنى لم أصبح كما كنت . . ولكنى أصبحت خيراً مما كنت . . أصبحت أشعر بالحياة وبالسعادة . . أصبحت أحس بقيمة كل ثانية تمر بى . . لأنها تحمل لى شيئاً . أما قبل ، فقد كانت فارغة . . وسواء لدىّ أمرّت أم لم

تمر . فما كان لها فى نفسى قيمة .

— لافائدة منك . . كلما حاولت نصحك . . حدثتنى بما لا أفهم . . وقلت لى كلاماً من كلام الكتب . . حيرتنى ، حيرك الله . . والله لولا إحساسى بأنك سعيدة ، لما تركتك تندفعين فى هــذا الطيش . . ولكنى أحبك . . وأكره أن أحرمك شيئاً من السعادة . . إنى كلما حاولت منعك خوفاً عليك . . قلت لنفسى . . دعيها تتمتع بيومها . . من يدرى مايأتى به الغد . . لعنة الله علىّ . . لوحدث لك شئ . . أو أصابك أى ألم مما تفعلين فلن أغفر لنفسى قط .

وكنت أحب سيدة ، وكنت أعلم أنها لا تحب فى حياتها كلها شيئاً أكثر مما تحبنى ، وكنت أعرف أن حبها لى هو السبب فى هذا القلق الذى تحسه من أجلى ، وقد تكون على حق فى قلقها . . ولكن أنّى لى أن أرى هـذا الحق وأنا أشعر أنى انطلقت من سجنى ، لأنعم ببضعة أيام من الحرية .

وسرت أتنقل من حجرة إلى حجرة وبى نشوة . . ولم أكن قط أكره جدّى . . بل كنت أحبه جداً . . وكنت واثقة من حقيقة شعوره نحوى . . ولكن كنت أكره وسيلته فى الحياة وطريقته فى التفكير ولذلك وجدتنى أشعر بسعادة فياضة وأنا أجول فى البيت وحــدى . . . وأشعر

أنى مسيطرة على البيت أستطيع أن أحيا طيلة يومى بالطريقة التى تحلو لى .

وكان أول ما علىّ أن أفعل هو أن أجلس لأدبر اللقاء .. وبدت لى الدنيا أضيق مما أبتغى ... إنى أريد فردوساً .. لأقضى به معه هذه الأيام .

وأخيراً وبعد طول تفكير ومشاورة مع سيدة استقر الرأى على أن نلتقى على الشاطىء .. فقد كانت الوحدة مضمونة ، والفراغ تاماً .. وكان الجو فى ذلك اليوم أميل إلى الحرارة .

وتسللت سيدة لتبلغ النبأ إلى مدبولى .. وقبيل الساعة الرابعة ركبنا العربة إلى سيدى بشر بعد أن زعمت سيدة للسائق والبواب أننا قاصدين إلى « الكابينة » لكى نحضر المظلة والمقاعد لإصلاحها استعداداً للصيف ، فقد أصرّت سيدة على أن تحكم تدبير خطواتنا بحيث تستطيع أن تواجه بها الجد عند عودته إذا ما سأل إلى أين ذهبنا .

وفتحنا « الكابين » وكانت الرمال قد غطت معظم الشاطىء وتراكمت فوق أرض « الكبائن » وبدا المكان صفصفاً خالياً .. ويد الإهمال قد خطت آثارها فى كل نواحيه ، والصدأ قد علا القفل الذى أغلق به الباب .

وجلست فوق المقعد الخشبي وأخذت سيدة تزيح الرمال من وراء الباب حتى تستطيع فتحه . . فقد صممت على أن تقوم بالعمل الذى جئنا من أجله .

وبدأت فى جلستى أشعر بلفح الريح . . وكانت قد أخذت تشتد وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وقذفت سيدة إلىّ بالصديرى الصوف الذى حملته معها لأنى رفضت أن أرتديه مكتفية « بالبلوزة » البيضاء الصيفى و « البنطلون » الكحلى ، وقالت لى فى لهجة الآمر :

ـ إلبسيه ولا تكونى عنيدة . . قلت لك عندما خرجنا أن الجو سيبرد .

ولم أرد أن أسلم بسهولة فقلت لها وأنا أضع « البلوفر » جانباً :

ـ لست أشعر بالبرد .

ـ ياحبيبتى ارتديه من أجلى ، إنك لاتحتملين البرد . . وشكلك فيه أجمل من ذلك القميص الذى يبديك كالولد . . إلبسيه وإلا رحلت بك حالا .

وكانت لسعة البرد قد اشتدت فتناولت البلوفر ودسست فيه ذراعىّ وشددته على صدرى .

وقالت سيدة :

— إغلق الأزرار . . الزرار العلوى .

— لا لن أزرره . . لقد ضاق علىّ .

ولم أكد أنتهى حتى سمعت وقع أقدام تطرق الأرض مقتربة من « الكابين » . . وبعد لحظة وجدته يقف أمامى وهو يحدق فى عينىّ فى شوق واضح ومددت يدى إليه متهللة وقلت له:

— تفضل .

— ألا نتمشى أفضل .

ونظر إلى سيدة التى انهمكت فى رص المقاعد وألقى عليها التحية :

— نهارك سعيد ياسيدة .

— نهارك سعيد ياسيدى.

— كيف الحال ؟

— الحمد لله .

— مدبولى يهديك السلام.

وضحكت سيدة قائلة :

— الله لا يسلمه . . ولا يكسبه . . ولا يربحه . . لست أدرى كيف تطيق عشرة هذا المخبول ؟

— إنه رجل طيب !

وجذبنى من يدى وسرنا على الشاطىء وصوت سيدة يقول منذراً :

ـ لاتغيبا .. نريد أن نعود إلى البيت قبل سقوط الظلام.

ونظرت إلى الشمس العنيدة . . العادية إذا ما مالت إلى الأفق . . فإذا بينها وبين الأفق مسافة طيبة . . فقلت لها :

ـ إن شاء الله .

وكعادتنا فى كل لقاء .. خيم علينا الصمت وتملكنا الشرود . . حتى وصلنا إلى صخرة نائية فى نهـــاية الشاطىء فأشار إلى مكان منبسط فى أقصاها أشبه بمقعد قائلا :

ـ أنجلس هنـاك ؟

ـ أجل .

وأمسك بيدى يعيننى على السير فوق نتوءات الصخرة حتى وصلنا إلى المنبسط . . فاتخذنا مجلسنا متجاورين .

ونظرت إلى الأفق البعيد والسحب المتلاحقـة والأمواج المتتابعة . . والرشاش يتطاير من ارتطامها بالصخرة . . وملأت صدرى بريح البحر الباردة . . وأطلقته فى زفرة حملتها الكثير من حرارته .

وأحسست برجفة من برود الريح فازددت التصاقاً به . . ومدّ ذراعه فأحاطنى به وضمنى إليه حتى أسندت رأسى إلى

صدره . . وبت أحس بتردد أنفاسه ودقات قلبه .

ومدّ أصابعه يتخلل بها شعرى ويعبث بخصلته وهمس فى أذنى :

— لماذا ترتجفين؟

— من البرد .

— فقط ؟

— والخوف .

— ممّ ؟

— من كل شئ . . من المستقبل . . والأيام . . والدنيا . ومنك . . ومن نفسى .

— كل هذا تخشينه ؟

— أجل . . أخاف من المستقبل لأنه يتراءى أمامى غامضاً مجهولا . . كهذا البحر البعيد المترامى أمامنا فى غير حدود . . دون أن نبصر ما وراءه . . ولا نعرف ما فى أغواره . . انه قد يحمل الحياة . . كما يحمل الموت . . وأخشى الأيام . . لأنها أسرع فى السراء من القطاة وأبطأ فى الضراء من السلحفاة . . إذا ما حملت بالسعادة تسرّبت من أيدينا تسرّب الماء مع الأصابع . . وإذا حملت بالشقاء أطبقت على أنفاسنا كالحمل الثقيل . . وأخشى من الدنيا لأنها عند ما تهب

بحمق تأخذ بجنون . . وعند ما تمنح بسفاهة . . تمنح بلؤم وخسة .

وصمت مطلقة تنهيدة أخرى .

وعاد يهمس :

— ومنى أنا ؟ ماذا تخشين ؟

— تبدّلك . . وتحوّلك .

— ومن نفسك ؟

— أخشى مطامعها فيك . . كنت فى أول الأمر أقنع بالحانك . . فبت الآن أطمع فى كل شئ فيك . . كنت أقنع بمشاركة الناس فيك . . والآن . . أفزع من أن يشاركنى فيك أحد .

وضمنى إليه أكثر ، ورفع ذقنى بيده ، وقال وهو ينظر إلى عينىّ :

— لا تخشى شيئاً . . لا تخشى الأيام . . ولا المستقبل ولا الدنيا . . ولا تخشينى ولا تخشى نفسك . . لأنى لك . . وسأبقى لك فى كل حين . . وما دمت معك . . فسنقهر الزمن والدنيا . . وكل شئ .

— ولكنك لن تكون معى دائماً !

— بل سأكون .

ـ إن اللقاء بيننا كما ترى عسيراً . . وسيزداد بعد ذلك عسراً .

ـ بل سيزداد يسراً .

ونظرت إليه وتساءلت فى دهشة :

ـ كيف ؟

ـ لأنه سيكون من حقى أن أراك . . وسيكون من حقنا أن نتقابل أمام الناس . . بدل هذا اللقاء المختلس .

وأحسست بضربات قلبى تشتد . . وأدركت بوحى مشاعرى ـ إذا لم يخذلنى الإحساس ـ أنه يوشك أن يلقى إلىّ بشىء خطير . . عجيب .

وقلت أستحثه فى صوت لا يكاد يخرج من شفتى :

ـ لست أفهم ما تعنى .

ـ أعنى أنى . . سأتقدم لخطبتك .

ـ تخطبنى ؟ ! !

وأحسست أنى ألهث .. لقد كان هذا أكثر مما أحتمل . أحقاً يمكن أن نصبح خطيبين ؟ وتملكتنى نشوة أفقت منها على صوته :

ـ مالك تدهشين هكذا ! أهى مسألة عجيبة ؟

— لا . . لا . . ولكنها مفاجأة .

— لم أكن أظنها أبداً مفاجأة . كنت أظنك تتوقعينها . إنى سأتقدم لجدّك . . ساعة عودته .

جدّى ؟ ! ! لقد نسيته تماماً . . لقد خيل إلىّ وأنا فى تمام فرحتى أنه سيخطبنى من نفسى ، وأننا سنتزوج ونرحل معاً فى لحظة دون أن يعرف أحد .

جدّى ؟ ! أهذا معقول ؟ . أمعقول أن يقبل جدى خطبته ؟ أمعقول أن يزوجنى إلى من يعتبر فى عرفه — حتى الآن — مجرد آلاتى ؟ !

أيمكن أن يقبل جدّى زواجى من آخر إنسان يفكر فى قبوله ! !

ولم يكن إبراهيم يتوقع منى ذلك الوجوم والإطراق . فأخذ يتحسس شعرى ويقول فى رفق :

— راجية ؟ ! ماذا بك ؟ أساءك حديثى ؟

— ساءنى ؟ ما أظننى كنت فى حياتى أسعد منى الآن . . إنى سعيدة جداً بما قلت . . ولكن . . .

وترددت برهة . . وعاد هو يستحثنى بقوله :

— ولكن ماذا ؟

— هناك عقبات .

– أية عقبات ؟

– إنى أقصد . . أن المسألة ليست بالسهولة التى تظنها .

– ولماذا ؟ . . حدّثينى بصراحة ؟

– أظن جدّى لن يوافق . . إنه يريد أن يزوجنى من عبد الرحمن .

– أتعنى أنك مخطوبة ؟

– لا . . لست مخطوبة تماماً .

– إنتهينا إذاً . . مادمت أنت راضية .

– أنا بالطبع راضية . . ولكن الرأى ليس لى وحدى . إنى أستطيع أيضاً أن أقاوم وأن أصر . . ولكن لست أدرى إلى أى وقت وإلى أى مدى . . وكيف يمكن أن تقابل مقاومتى لهم ومعارضتى لإرادتهم .

– إسمعى ياراجية . . مادام كل منا مؤمناً بصاحبه وواثقاً منه . . فكل شىء يمكن تذليله . . دعى الأمر لى . . إنى أعتقد أنى أستطيع اقناع جدك .

وكنت واثقة أنه آخر من يستطيع إقناع جدّى . . وأكاد أعرف سلفاً كيف يقابل طلبه إذا ما عرف حقيقة مهنته . . وبرغم أنى كنت أكره أن أوله ، وجدت من

واجبي أن أحذره حتى لايصدمه رأى جدّى .

وقلت له وأنا كارهة حديثه :

ـ أنت لاتعرف جدّى كما أعرفه . . إنه مخلوق مادى جاف . . لايعرف غير الحسابات والأرقام والأراضى والسندات . . ولا يعترف أبداً بأى نوع من أنواع الفنون ، بل هو كثيراً مايضيق بالموسيقى . . ويأمرنى بالكف عن هذه « الدوشة » ، ولست أظنه قد سمع موسيقى منذ أيام الحمولى والمنيلاوى . . . وهو يعتبر الموسيقيين جميعاً « مجرد آلاتيه » . . وهو يعتقد أن من واجبه أن يحافظ علىّ ويضمن لى مستقبلى .

وصمت . . وعجبت بعد أن قلت هذا . كيف جرؤت على قوله . . أيمكن أن أقابل خطبة إبراهيم لى بهذا الرد ؟ ! أبعد أن تزول كل العقبات التى توقعتها سيدة . . وأجده خالياً بلا زوجة ولا خطيبة ولا حبيبة إلا أنا . . أن أصدّه بمثل هذا القول ؟

ومع ذلك فقد كنت أشعر أنى أديت واجبى . . . وأنى مهدت الطريق فى نفسه لقبول الصدمة .

ولكن هبه تراجع ! !

وأحسست بخوف شديد .. وكأني طعنت نفسي ..
لماذا لا أجعله يحاول .. مادام مؤمناً بنفسه، واثقاً من
قدره؟! لماذا أبعث اليأس في نفسه وأحطم إيمانه وإرادته؟

وأصابني الندم .. ولكنه لم يطل .. فقد جاء ردّه على
قولي قوياً مليئاً بالثقة .. مزيلا لكل خوف .. مضيعاً
لكل ندم.

وقال وهو يمسك يدي ويرفعها إلى شفتيه في شبه تعبد:

— إني لن أحاول أن أقنع جدّك بفائدة الموسيقى
وتأثيرها ... ليكن له رأيه في شئون الحياة .. ولكني
سأقنعه بأني أحبك .. وبأن مستقبلك الذي يريد ضمانه ..
أنا أكثر منه حرصاً على ضمانه .. وأكثر منه حرصاً على
إسعادك وهنائك .. سأقنعه أن حبي لك أقوى من حبه
لك .. لأن حبه لك مبعثه عشرة السنين الطويلة .. أما
أنا فأحببتك أضعاف حبه من لقاءين في بضعة أيام .. سأقنعه
أني أريدك أنت. إن ما بي ليست نشوة طارئة، بل إحساس
عميق بأننا شطرين .. أو صنوين .. وما دامت المسألة كلها،
قائمة على إسعادك .. فأظنني الغانم لأني أقدر الناس على
ذلك .. وأنت نفسك الحكم في هذا .. أنا واثق أني أستطيع
حمله على الخضوع .. وإذا لم يخضع .. فسأختطفك وأهرب

بك بعيداً . . كل ما أريده منك هو إيمانك بى وثقتك فى حبى .

ولم أدر ما أقول له . . . لقد ملأنى إيماناً عجيباً وثقة لا حد لها .

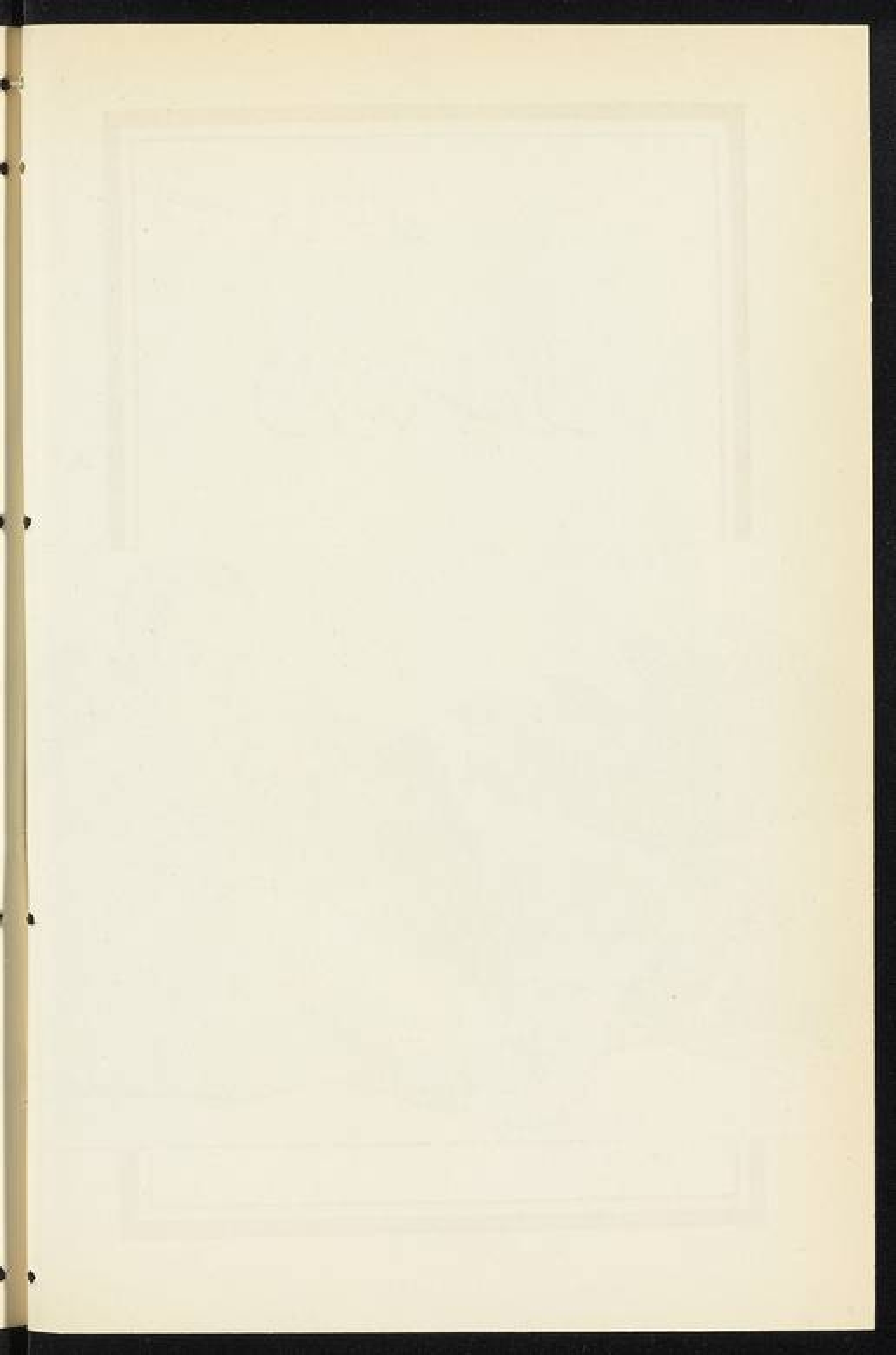
كنت فى جلستى بجواره .. ورأسى على كتفه .. وأنفاسه تلهب يدى . . أشعر أنى أستطيع من أجله أن أقهر كل قوى القدر .



الفصل الثامن

المعركة تبدأ





لم تطل غيبة جدى إذ لم يمكث فى القاهرة أكثر من يومين . . عاد فى ثالثهما . . ولم أضق بعودته . . فقد أحدث قول إبراهيم فى نفسى تطوراً كبيراً ، وملأنى رغبة فى خوض المعركة والتحدى والانتصار . . وأزال من نفسى ذلك الاستسلام لقضائى والخضوع لمصيرى الذى أساق إليه سوق النعاج .

لقد بدد برغبته وإصراره . . حالة العجز التى كانت تقصر مطالبى على الأوهام والأحلام ، والتى كانت تتركنى أقنع بجلسة فى الشرفة وشرود فى السماء وتحليق بين النجوم وتعزية لنفسى عن مرارة الحقائق بحلاوة الأمانى .

لقد أذاب بقوة إيمانه ثلوج اليأس والخوف والعجز ، وجعلنى أجرؤ على التفكير فى حقى فى الحياة الواقعية . . لا فى حياة الأفكار .

لقد وهب لى الشجاعة مرتين : الأولى عندما سألنى أن أحبه . . هو . . كما هو . . الكائن البسيط . . بلا عبقرية ، ولا ألحان ولا نبوغ .. إذ جعلنى أحس قدرة على الاستحواذ عليه وعلى الاستئثار به ، والمرة الثانية عندما أكد لى أنه لن تحول بيننا قوة ، فقد ملأنى جرأة على العقبات وتحدياً للموانع .

وهكذا لم أضق بعودة جدى السريعة . . فقد كنت أنتظره والقفاز فى يدى ، وكنت أتعجل المعركة . . حتى أصل إلى نهايتها ، ويصبح ذلك الشيء الذى تخيلته فى أول الأمر حلماً . . ثم أصبح مع الأيام متعة مختلسة . . يصبح حقاً لى . . . أستطيع امتلاكه أمام الملأ . . بلا خوف ولا خشية .

ألا يستحق ذلك أن أخوض من أجله المعركة . . وأتعجل النهاية ؟

وكان على إبراهيم أن يعلن القتال ، وأن يبدأ الجولة الأولى . . أما الجولة الثانية ، والأخيرة . . فقد قررت أن تكون من نصيبى ، وكان الاتفاق قد تم على أن أرسل إليه سيدة بمجرد حضور جدى ، ولم يكد يستريح جدى من عناء السفر . . حتى أرسلتها إليه ، ولم تمض فترة قصيرة حتى أرسل هو بطاقة مع مدبولى يستأذن فى الزيارة .

وكنت أجلس مع جدى عندما وصلت البطاقة . . وكنت أرقب التعبيرات التى ترتسم على وجهه جيداً . . فقد كنت أعتبر فيها . . تقريراً لمصيرى ، ولم يكن وقع البطاقة مبشراً بخير فقد وجدته يقلب شفتيه فى شبه ازدراء ويتساءل قائلا :

— إبراهيم محسن . . موسيقار . . يعنى إيه موسيقار ؟ !
« مزيكاتى » والا . . آلاتى . . أقد باتت هذه وظيفة توضع على البطاقات ؟ !

ثم التفت إلى « سيدة » التى أحضرت البطاقة من مدبولى وتساءل :

— ماذا يريد منى ؟ !

— أظنه يريد زيارتك .

— زيارتى أنا ؟ لعله يريد حسنة . . أهذه آخر طرق التسوّل ؟ ! تسوّل بالطاقات ؟

وأحسست بالدم يرتفع إلى وجهى وتملكنى ضيق شديد وهممت بأن أجيب عليه ، ولكن « سيدة » كانت ترقبنى جيداً وكانت نظرة منها كافية لأن تجعلنى أتمالك أعصابى .

هذه فاتحة لا تبشر بخير .

وقذف جدى بالبطاقة وصاح فى ضيق :

— لا أريد أن أقابل أحداً . . قولى له إنى نائم . . أو إنى خرجت . قولى له أى شىء ، اصرفيه بالتى هى أحسن .

ونظرت إليه « سيدة » وقالت له فى هدوء :

— يا سيدى هذا جارك . . رجل محترم ، وهو يريد زيارتك . . أتصر بعد هذا على أنه يطلب حسنة ؟

— جارى ؟

ثم صاح فجأة كأنه قد تذكر :

— آه . . هذا المخلوق المزعج . . الذى يسكن فى بيت الدكتور زكى والذى لا يكف عن إزعاجنا لحظة . . ماذا يريد من زيارتى . ؟ !

وأجابت سيدة فى هدوء الصبور الهادئة :

— وماذا يريد الناس من زيارة جيرانهم ؟ لعله يود التشرّف بمعرفتك ، وقد أرسل خادمه يستأذن فى الزيارة . رجل كله ذوق .

وكأنما تأثر جدى بهدوء سيدة وندم على اندفاعه وتسرّعه . . فقد قال فى لهجة أقل حنقاً وخشونة :

— قولى له يتفضل .

ونهضت أنا تاركة الحجرة . . ذاهبة إلى حجرتى ، وكنت فى حالة اضطراب شديد . . كمتهم يوشك أن يتلقى حكماً بالحياة أو الموت .

وجلست على حافة الفراش وقد ضاعت شجاعتى ، وفقدت كل رغبة فى الكفاح والتحدّى والنضال ، ووجدتنى برغمى أقرأ الفاتحة ، وكل ما وعيته من القرآن ، وأدعو الله أن يحقق كل أملى ولا يخيب رجائى .

وناديت سيدة لتجلس بجوارى أستعين بها على الموقف العصيب ، وقبل أن تأتى سمعت الجرس يدق والخادم يفتح الباب ويقول تفضل . . ثم سمعت وقع أقدام ابراهيم تتقدم إلى حجرة الاستقبال .

ودخلت سيدة فرأت اضطرابى ، ونظرت إلىّ وحاولت أن تبعث فىّ الطمأنينة بقولها :

— ما بالك تلهثين هكذا ؟! استريحى ، وتوكلى على الله . إن الخير فيما يختاره الله .

وقلت لها وأنفاسى تتلاحق كالمصدور أو العادى فى سباق :

— إنى خائفة .

— مم تخافين ؟ إن المقادير بيد الله . . إذا كان إبراهيم من نصيبك فلن يستطيع جدك ولا غيره من المخلوقات أن يفرق بينكما . . إن جدك لا يملك برفضه أن يحول إرادة الله ، فإياك أن يصدمك رفضه .

وأدركت أن سيدة تحاول بقولها التمهيد للصدمة حتى لا يكون وقعها المفاجىء أليماً .

وأخذت تردد حديثها عن القسمة والنصيب والمقادير لا يملكها إلا الله ، وعن وجوب توقعى كل الاحتمالات ،

وعدم اكتراثى لرفض جدى .

وقلت فى حنق وقد ضقت بأقوالها :

ــ أنا لا يهمنى الرفض .. إن كل ما أخشاه الآن هو أن يسىء إليه جدى . . فلا يحسن استقباله . . أو يعامله بطريقته الجافة . . إن الذنب ذنبى . . كان يجب ألا أعرضه لمثل هذه التجربة التى أعرف نتيجتها سلفاً . . أجل . . كان يجب ألا أتركه يضع نفسه فى هذا المأزق ، إن جدى لا يعرف قدره . ألم تسمعى قوله عنه أنه « مزيكاتى » ! ! إنه كان يرفض مجرد استقباله ، فما بالك إذا علم أنه قد أتى لخطبتى ؟!

وهكذا نسيت فى أزمتى وضعفى . . كل مادفعه فى نفسى من قوة وإيمان ، ولم أعد أرى لى حقاً يستوجب الكفاح بل أضحى كل ما أتمناه هو أن أجنب إبراهيم مرارة الخذلان وأن أعدو إلى حجرة الاستقبال فأسأله أن يعود من حيث أتى ، وألا نفكر فى الخطبة مرة أخرى . . وأن نقنع بأحلام الدجى ، واللقاء المختلس .

وسمعت وقع أقدام جدى تهبط السلم بعد أن ارتدى ملابسه ، وهممت بأن أعدو إليه لأعرفه بمن يكون زائرنا وأبين له قدره . . وأوضح قيمته . . وأقول له إنه مخلوق نسيج وحده . . وأن الأرض قد تنجب الكثيرين ممن

يجيدون الحساب ويحسنون استثمار المال ، ولكنها لا تهب لنا العباقرة إلا بقدر محدود ، ولأقول له . . إذا كان ينوى خذلانه فليترفق به وليحسن رده ويجمل لقاءه ويحترم قدره .

قلت هذا لنفسى لأفرج عنها . . وانتهى وقع الأقدام ودخل جدى حجرة الاستقبال وأنا منكمشة على طرف فراشى . . لا أملك من القدرة على الحركة إلا الارتجاف كريشة فى مهب الرياح .

ورفعت رأسى إلى سيدة وقلت متوسلة :

— إنزلى ياسيدة لعلك تسمعين شيئاً .

وربتت سيدة ظهرى وقالت فى حنان :

— هدئى روعك ، واستريحى قليلا . . تمددى فوق الفراش ، وسأنبئك بكل ما يحدث . . سأكمن وراء باب حجرة السفرة ، وسأسمع حديثهما .

وغادرتنى وهبطت إلى أسفل . . وجلست وحدى . . وكأنى أجلس كما يقولون على جمر الغضا أو شوك القتاد ، ونهضت من الفراش وقطعت الحجرة عدة مرات جيئة وذهاباً . . ثم جلست ثانية وتمددت ، وقضمت أظافرى ومزقت منديلى ، وهززت ركبتى ، وفعلت كل ما يمكن من حركات القلق والحيرة والانتظار . . حتى خلت أن دهراً

قد مضى ، وأخيراً نظرت فى الساعة فإذا العقرب لم يتحرك أكثر من عشر دقائق .

وغادرت الغرفة نافذة الصبر ، وخرجت إلى « الصالة » ووقفت على طرف السلم . . عندما أبصرت سيدة تهرول فى « الصالة » السفلى ثم تختفى فى « بئر السلم » وسمعت وقع أقدام تطرق أرض « الصالة » متجهة إلى الباب الخارجى فأسرعت بالاختفاء . . ووصل إلىّ صوت جدى يقول :

— مع السلامة .

وعدت مسرعة إلى غرفتى .

ومرة أخرى جلست ألهث على طرف الفراش . . وانتظرت أن تصعد سيدة ، ولكن غيابها طال ، أو هكذا خيل إلىّ من فرط قلق وضيق ، وأخيراً صحت أناديها ، وأتى إلىّ صوتها من أسفل قائلة إنها قادمة .

وأقبلت ، ولم يصعب علىّ أن أعرف من وجهها ماحدث ، ولكنى أردت أن أسمع منها التفاصيل .

قلت فى غضب مكتوم :

— ماذا حدث ؟ !

— لا شىء . . حدث ما كنا نتوقع . . إنها إرادة الله . يجب أن . . .

ولم يكن لدىّ صبر لسماع حكمها ونصائحها فصحت بها فى حدة :

ـ قولى لى ماحدث كلمة كلمة .

ـ صبرك ياسيدتى . . إهدئى . . أولا .

ـ أنا هادئة . . قولى ما حدث ؟

ـ لقـــد سلَّم عليه جدك وقدم إليه القهوة . . وأؤكد لك أنه لم يحاول قط أن يقلل من شأنه ، وتحدثا برهة عن هدوء السيوف . . وعن تحسن الجو . . واستطاع إبراهيم أن يستميل إليه جدك بلباقته ، وجرى الحديث بينهما سهلا هادئاً بلا تـكلف . . حتى بدأ ابراهيم يطرق الموضـوع . . ولم يستطع جدك أن يفهم تلميحه . . فقد كان ذهنه أبعد ما يكون عن تصوّر مجىء ابراهيم لهذا الغرض ، وأخيراً لم ير بدآً من الإفصاح ، وهنا . . فغر جدك فاه ، ورفع حاجبيه وقال فى دهشة :

ـ تريد من . ؟

وأجاب إبراهيم فى هدوء وثقة :

ـ راجية .

ـ راجية ؟ . . أرأيتها ؟

ـ أجل . . لمحتها بضعة مرات فى الشرفة .

– وتتقدم لخطبتها بمثل هذه السرعة .. من مجرد لمحها في الشرفة ؟ !

ولم يجبه إبراهيم فى الحال . . بل تفرس فى وجهه برهة ليعرف ماذا يقصد بقوله .. وأخيراً أجابه فى تؤدة :

– إنى لا أقدم على عمل إلا بوحى من إحساسى . . ولم يخطىء بى إحساسى مرة واحدة .

وأطرق الجد رأسه مرة ثم تلفت حوله كأنما يخشى أن يسمعه أحد وقال :

– إسمع يابنى . . خذها نصيحة منى . . مرة أخرى عندما تحاول الزواج . . لا تقدم عليه بمثل هذا التسرع . . إن الزواج ليس لعباً . . يجب أن تتروى جيداً ، وتسأل جيداً . . أما أن تبت فى المسألة بمجرد لمحة فى الشرفة فهذا فعل أقل ما يوصف به أنه تسرع وطيش ، وعلى أية حال هذه مسألة خاصة بك أنت . . أما بالنسبة لى فإنى أخبرك أن الفتـــاة التى تتقدم لخطبتها . . مخطوبة فعلا ، ولكى أكون معك أكثر صراحة . . وأرجو ألا تؤاخـذنى . . فإنى أحدثك حديث رجل لرجل . . إنى ماكنت لأعطيها لك لو لم تـكن مخطوبة . . أنت كما تقول موسيقار ، وأنا لا أعتبر الموسيقى عمل .

وكنت أتوقع من إبراهيم أن يغضب ، أو على الأقل يتجهم . . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . بل أجاب بهدوء وقد ارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه :

— يبدو لى أنه من الخير . . أن أكون أنا أيضاً أكثر صراحة فى الحديث . . لكى أشرح لك المسألة .

ولكن جدك أسكته بإشارة من يده وقاطعه بقوله :

— أرجوك . . لست أريد شرحاً . . ولا مناقشة . . لقد أنهيت الموضوع بقولى . . . ولست أريد أن أسمع فيه كلمة واحدة . . بل أرجو — أكثر من هذا — أن تتناسى أنت الموضوع . . وتعتبره كأن لم يكن . . أرجوك . . دع جيرتك لنا تمر على خير . . وإذا كان لديك موضوع آخر للحديث فإنى على استعداد لسماعه .

ولكن إبراهيم نهض واقفاً . . فنهض جدك وصافح كل منهما الآخر ورافقــــه إلى الباب . . هذا كل ما حدث كلمة . . كلمة .

وانتهى حديث « سيدة » . ولست أظننى كنت أتوقع خيراً من هذا . . بل لقد كنت أحاول أن أوطن نفسى على أسوأ منه .

ومع ذلك فقد تملكنى غضب أخذ يغلى فى صدرى كما

يغلى الماء فى مرجل مغلق . . وكانت « سيدة » دائماً تتهمنى بأنى « صفراوية » كتوم للغضب . . ولكنى فى ذلك الحين كان ما بى أشد من أن أستطيع كتمانه .

لقد بدد اليأس خورى واستكانتى . . وأضاع الغضب ذلك الاستسلام الذى ملأنى . . المعركة دائرة . . والنتيجة لم تستبن بعد .

كنت أفضل الانسحاب إلى عالم الأوهام . . رغبة فى أن أقى إبراهيم مرارة الهزيمة . . أما وقد وقعت الهزيمة ، وفاضت المرارة . . فما عدت أهتم بشىء ، أو أخشى شيئاً ، يجب أن أفى بوعدى ، وأن آخذ دورى فى المعركة . . . أجل . يجب أن أبدأ الجولة الثانية .

ووجدتنى أنفجر فى وجه « سيدة » صائحة :

— من قال إنى مخطوبة . . أنا لا أخطب برغم أنفى .

وذهلت « سيدة » من تهورى ومن صياحى وأسرعت بإغلاق الباب وعادت إلىّ محاولة تهدئتى :

— لا تصيحى هكذا وإلا سمعك جدك .

وصحت بصوت أعلى :

— أنا أريد أن يسمعنى . . إنى لست « جارية » عنده . . إذا كان يحاول فرض سيطرته . . مقابل صرفه علىّ ، فلن

أبقى فى البيت دقيقة واحدة .

– لا تكونى « مجنونة » . . إنك ابنته .

– لست ابنة أحد . . إنى حرة أقرر مصيرى . . كفاه استعباداً لى . . ألا يكفى خضوعى لحياته الجافة الخامدة فى كل ما مضى من حياتى . . حتى يحاول التحكم فى مستقبلى ؟ ! ألا يكفى أن يفرض علىّ ما يريد من ملبس ومأكل . . وأن يتدخل فى كل حركاتى وسكناتى . . حتى يحاول أن يفرض علىّ شريك الحياة . . هذا ظلم . . هذا استعباد . . إنى أكرهه . . أكرهه .

وكنت فى حالة من الهياج والثورة لم تعهدها « سيدة » . . حتى لقد اصفر وجهها وأخذت تلهث وهى تمسك بيدى تحاول أن تجلسنى على المقعد وهى تقول مضطربة خائفة :

– بسم الله الرحمن الرحيم . . ماذا حدث لك ياراجية ؟ لمَ يارب هذا ؟ ! لقد كنت دائماً هادئة وعاقلة . . إجلسى ياسيدتى . . كل شىء يحل بإذن الله . . ولكنه ليس بمثل هذا الغضب . . بل الصبر .

ووجدتنى أصيح بها فى غضب أشد :

– لا . . لن أصبر . . ليس لأحد أن يتحكم فى مصيرى . . إنه مصيرى وحدى .

— حاضر . . كما تشائين . . ولكن اخفضى صوتك . .
لئلا يسمعك جدك .

وفجأة فتح الباب وبدا جدّى وقد علت وجهه علائم
الدهشة وصاح متسائلا :

— ماهذا الصياح ؟ ! ماذا حدث ؟ !

وفزعت « سيدة » من صيحته وحاولت أن تنقذ الموقف
قدر استطاعتها فأجابت :

— لقد أصاب سيدتى راجية مغص .

ونظر إلىّ جدى وما زال الغضب والدهشة تعلوان
وجهه وكأنه يطلب منى تفسيراً . . أو تأكيداً . . وأحسست
بشىء من الخور يتملكنى ، وأنا أقف أمامه وجهاً لوجه . .
وكدت أتراجع فأصدق على قول « سيدة » وأتهاوى على
الفراش مدعية المرض . . ولكنى تذكرت إبراهيم . .
وتذكرت ما أصابه من مهانة فى سبيلى . . أنا التى لا أستحق
قلامة ظفره . . وغلى الدم فى عروقى . . وفار الغضب فى
صدرى ، فصحت متفجرة بلا وعى :

— لا . . ليس عندى مغص .

وزادت دهشة جدى . . وحار بصره بينى وبين « سيدة »
محاولا أن يفهم حقيقة الأمر . . ولكن « سيدة » لم تجد

ماتقول . . بعد أن أفلت الأمر من يدها ووجدت أنى قد ركبت رأسى ، وعزمت على ألا أتراجع .

ووقفت أنظر إلى جدى متنمرة وأوجه إليه نظرات ملتهبة كأنى أوشك أن أنقض عليه .

وعاد هو يسأل فى ذهول :

ـ ما بك ؟! تكلمى .

ولم أكن فى حالة تمكننى من التفكير وصياغة الحديث أو ترتيب القول . . بل كانت الألفاظ تندفع من شفتىّ كالطلقات .

قلت صائحة :

ـ أنا لست مخطوبة .

وزادت دهشة جدى . . . واندفع هو الآخر يصيح فى غضب :

ـ أمجنونة أنت ؟! ما هذا الذى تقولينه ؟!

واندفعت فى هجومى . . غير واعية ما أقول :

ـ أنا لست مخطوبة . . ولا يمكن أن أخطب برغم أنفى . . أنا لست جارية فى سوق عبيدك تمنحنى لمن تشاء . . وتمنعنى عمن تشاء . . إن لى رأياً فى مصيرى . . بل إن رأيى هو الأول . . أنا لست مجنونة ولا صغيرة . . حتى تتصرف

فىّ بغير إرادتى . . وتختار لى ما تشتهى . . أنا التى ستتزوج ولست أنت . . إذا كنت تكره الموسيقى فإنى أحبها . . وأفضلها عن كل أموالك . . وإذا كنت تعتبر الموسيقار عاطلا فإنى أراه سيد الناس .

وكانت الدهشة تزداد بجدى وأنا مندفعة فى صياحى إذ لم يدرك سر الموقف حتى بدأت أتلفظ بالجملة الأخيرة . . وبدأت الدهشة تزول لتحل محلها غضبة شديدة .

ولم يجبنى بصياح كصياحى ، بل تمالك أعصابه وأجاب فى سخرية :

– هكذا ! ! إذاً فالمسألة مبيتة . . والموضوع متفق عليه . . والعلاقة ليست مجرّد لمحة من الشرفة . . ولكن الذنب ليس ذنبك . . إنه ذنبى أنا . . لأنى لم أعرف كيف أربيك . كان يجب ألا أترك لك هذه الحرية التى أفسدتك ، ولكن لا بأس . . كل شىء سيصلح . . وسأعرف كيف أعيدك إلى وعيك .

ثم ألقى إلى « سيدة » نظرة تهديد وأردف قائلا :

– وأنت سأعرف كيف أجعلك تحرصين عليها جيداً . كان يجب أن تمنعيها عن هذا العبث . . أو تبلغينى خبره .

ثم غادر الحجرة . . وأغلق الباب خلفه بشدة . . وأخذ

وقع أقدامه يتباعد . . حتى اختفى . . وساد الغرفة سكون أشبه بسكون أرض المعركة بعد نهاية القتال .

وكما لايشعر المقاتل بجروحه ورضوضه إلا بعد انتهاء المعركة . . بدأت أنا أشعر بمدى الجهد الذى بذلته من دمى ومن أعصابى . . فانهرت على الفراش واندفعت فى نوبة عنيفة من البكاء .

وبكت سيدة من أجلى . . ثم أقبلت علىّ تحاول أن تكفكف من دمعى ، وتخفف من لوعتى ، وترفع كفها إلى السماء بين آونة وأخرى داعية الله أن يهدى جدى . . ويرقق قلبه .

ولكن جدى لم يهتد . . ولم يرق . . بل أمعن فى صرامته ، وبدأ يوقع الجزاء الذى ظن أنه سيقلعنى عن غيى ويكسر شوكتى ويهدينى سواء السبيل . . فلم يقبل الليل حتى كان قد ضرب الحصار حولى ، فأغلق النوافذ المطلة على بيت إبراهيم ، وأصدر أوامره لى بتحريم الخـــروج إلى الشرفات أو النزول إلى الحديقة . . وألا أغادر الدار إلا فى صحبته . . معتقداً أن نوبة الطيش الطارئة لاتلبث أن تزول بمثل هذا القمع والتضييق .

وهكذا أضحت الصلة بإبراهيم متعذرة ، أو على الأصح

مستحيلة . . لاأستطيع رؤيته أو الاتصال به ، ووجدتنى وحيدة منهارة يائسة . . حتى الأمل المستمد من أمله قد انقطع ، والإيمان النابع من إيمانه قد نضب . . فقد خيل إلىّ أن اليأس قد أصابه . . وأن ثقته قد تبددت وعزيمته قد فلت .

وآويت الى مضجعى وقد تكاثرت الوساوس على ذهنى وكان أكثر ماروّعنى خشيتى أن يكون قد خلفنى ورحل ، وأحسست كأنى أهوى فى بئر عميقة مظلمة لاقرار لها ، وأخفيت رأسى فى الوسادة أدفن فيها عبراتى ، وقد تملكنى من خاطرى حزن شديد ، وأحسست أنى بت فى محنتى وحيدة ، وأن الكل قد تخلى عنى . . حتى هو . . الذى أمدّنى بالثقة فيه والإيمان بحبه . . والذى كان يمكن أن يعيننى فى كفاحى من أجل حقنا فى الحياة قد خلفنى ورحل .

رحل ؟! . . لا . . لا . . انه لن يخلفنى وحيدة أبداً . . لن يتركنى .

وحاولت جهدى أن أدفع عنى الهواجس . . وهى تهجم علىّ بلا رحمة ولا هوادة .

ماالذى يدعوة الى البقاء . . بعد هذه الصدمة ؟! واذا لم يكن قد رحل فهو لاشك راحل . . بعد أن يرى النوافذ

المغلقة والقطيعة الجازمة المؤكدة .

لو أستطيع الاتصال به ! ! لو يعزف كما كان يعزف كل ليلة ! ! أو حتى لو أسمع منه همسة واحدة . . لو . . . .

وفجأة ، وجدتنى أرهف السمع ، وأخرج رأسى من تحت الوسادة وأنصت جيداً .

عجباً ! ! إنه هو . . أجل . . هو بعينيه . . يعزف لى ، إنه ينادينى بمقطوعته « راجية » .

وأخذت أنصت ، وأرهفت مشاعرى ، وشحذت قواى ، وركزت أعصابى فى أذنى . . وخيل إلىّ أن اللحن ينبعث خافتاً من وراء النافذة المغلقة ، وأحسست أن اليأس قد تبدد ، وأن الإيمان قد عاد ، وأن الروح قد ردّت . . وأنى بدأت أسترد أنفاسى ، لأعاود النضال .

وفيم أنا أرهف السمع لالتقاط الألحان الخافتة . . . وجمع الأنغام الهامسة المتقطعة دخلت سيدة وهى تدفع الباب وتضىء الحجرة وتسألنى أن أنهض للعشاء فصحت بها وقد أعشى النور عينىّ ، وأطار صوتها اللحن من أذنى :

— اطفئى النور . . واذهبى . . إنى لن أتناول العشاء .

ولم تذهب « سيدة » بل جلست على الأرض بجوار الفراش تربت كتفى . . تحاول أن تقنعنى بالصبر وترجونى

أن أتناول ولو بعض الفاكهة التى أحضرتها لى .

ولم أكن أحس بقابلية للأكل أو النـــوم .. كانت أعصابى من فرط الجهد متوترة ، وكان كل ما أتلهف عليه هو مزيد من ذلك الصوت السارى من وراء النافذة .

وصحت بها أن تسكت وتكف عن الثرثرة .. أو تتركنى وحدى .. حتى أنصت للحنى المحبوب .

وبدت على « سيدة » الدهشة وقالت متسائلة :

— تنصتين إلى ماذا ؟

— إلى « راجية » .. إنه يعزفها لى ، إنه ينادينى بها .. ألا تسمعين ؟ !

وعاد الصوت ينبعث خافتاً ، كأنه الهمس .

وانبسطت أساريرى ، وعدت أسمع فى إرهاف شديد وأنا أقول لسيدة :

— إسمعى .. إنه يعزف الآن .

وهزت « سيدة » رأسها فى دهشة وهى تتمتم قائلة :

— أنا لا أسمع شيئاً .

— كيف لا تسمعين ؟ أنا أسمع جيداً .. أجل . أسمعه . انصتى .

ولـكن « سيدة » لم تسمع شيئاً ! !

كنت أنا الذى أسمع وحدى .

أم ترى اللحن كله وهماً .. من صنع الأعصاب المتوترة والنفس المنهارة المحطمة ، وهم .. أو غير وهم .. إنه غذائى الوحيد .. إنه كل ما تبقى لى . لست أريد منهم شيئاً .. سوى أن يدعونى وحيدة أستمع إليه .

وعدت أنصت إلى النغم .. أو أتصيده من عالم الوهم . وعاد الصوت ينبعث خافتاً ، وعادت « سيدة » تربت ظهرى قائلة فى حنان :

ـــ ألا تستريحين قليلا ! ! ألا تنامين !

وصحت بها فى ضيق :

ـــ اصمتى .. لا تتحدثى .. إنك تضيعين الصوت .. اذهبى من هنا واتركينى وحدى .. لست أريد أحداً .

ونهضت « سيدة » ، وعدت أنصت .

وعاد اللحن ينبعث من وراء النافذة .

ولم أشعر بانقضاء الوقت .. بل لم أشعر بشىء أبداً .

وراقدة كما أنا .. مفتحة العينين مرهفة الحس .. ألتقط همس الألحـــان التى أتصيدها من الهواء خافتة متقطعة .. بدأت أستقبل أول خيوط الفجر .. دون أن يجسر النوم على أن يراود جفنى .

وقبيل الفجر أحسست بالصوت يزداد خفوتاً ، ولم تعد أعصابى المحطمة ولا سمعى المرهق . . تميزه ، إلا بجهد شاق وصعوبة شديدة ، وبدا لى كأنه صادر من آخر الأرض وخيل إلىّ أن فتحة يسيرة فى النافذة . . قد تمكنه من الوصول إلىّ واضح النغمات مميز النبرات ، ونهضت مترنحة أستند على الفراش ، ودفعت النافذة دفعة هينة ، وجلست على الفراش أنصت .

ولكن الصوت انقطع تماماً .

وأغلقت النافذة . . فعاد الصوت . . ينبعث خافتا . . متقطعاً . . ورقدت على الفراش أجمع النبرات المتقطعة فى أذنى . . حتى فتح الباب ودلفت سيدة .

ونظرت إلىّ « سيدة » وقد بدا الارتياع على وجهها كأنها ترى شبحاً .

وأقبلت علىّ تضع كفها على جبينى وقالت فى حزن شديد:

— ما هذا الشحوب البادى عليك ؟ . ألم تنادمى ليلتك ؟

وهززت رأسى بالنفى . . إذ لم تكن بى أقل رغبة فى الحديث ولا الإنصات .

كنت أشعر بقواى خائرة . . وبجسدى محطما ، ورأسى يكاد ينفجر ، وكنت أحس بحاجة شديدة إلى النوم حتى

أفر من تفكيرى وأوهامى وآلامى .. ولكن لا أكاد أغمض عينىّ حتى أحس بيقظة تامة ، وكانت حواسى ، ولاسيما مسامعى ، ترهف فى حدة ، كأنما تخشى أن يفر منها الصوت إذا ما غفت عنه .

وكان بنفسى عزوف عن الطعام .. فلم أذق مما حملته إلىّ سيدة شيئاً ، ومرّ اليوم كالليل ، وأنا مرهفة السمع ، شاردة الذهن ، مفتحة العينين .. أتنقل من الفراش إلى المقعد ومن المقعد إلى الفراش .. وانتهى اليوم وسقطت الظلمة ، وأقبل علىّ ليل ثقيل «كموج البحر أرخى سدوله » .. حتى بت من ثقله أهتف :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

بصبح وما الإصباح منك بأفضل

وأشرق فجر جديد .. دون أن يحمل إلىّ جديداً ، كنت كما أنا .. أتقلب على المرقد الجافى والمضجع النابى ، والسمع منى مرهف والجسد منهك محطم .

وقبيل الضحى أحسست فى البيت حركة غير طبيعية ، وسمعت صوتاً غريباً ، وأقبلت علىّ سيدة تنبئنى أن الطبيب قد أتى .

وصحت بها فى حدة :

— لست أريد طبيباً . . لا أريد أن يرانى أحد .

وأمسكت « سيدة » بيدى وقالت وعبراتها تسيل فى صمت على خديها :

— يا سيدتى . . إرحمى نفسك من أجلى ، ومن أجل شبابك .

— ارحمونى أنتم ، واتركونى . . إنى أبغضكم جميعاً .

واندفعت فى نوبة بكاء .

وأخذت « سيدة » تكفكف دمعى وتربت جسدى قائلة :

— كفى يا سيدتى . . كفى . . ماذا يقول عنا الطبيب ؟

وأخيراً تمالكت نفسى ، ومسحت وجهى بمنشفة مبللة ، ورقدت أنتظر الطبيب .

وأقبل علىّ . . ووجدته كهلا تبدو عليه الطيبة وكان فى صحبته جدى وعبد الرحمن ، وكانت المرة الأولى التى أرى عبد الرحمن فيها منذ أن رقدت ، وبدا لى أنه لم يكن لديه أقل فكرة عما حدث إذ كان قد قدم تواً من القاهرة .

وتقدم إلىّ عبد الرحمن وقد بدت على ملامحه دلائل الانزعاج وأمسك يدى برفق وسألنى فى لهجة شفقة حنون :

— مالك يا راجية ؟ ! ماذا بك ؟

ولم أجب بأكثر من « لاشيء » .

كنت أكرههم جميعاً .. بل كنت أكره الحياة كلها .

وتنحى عبد الرحمن ليفسح الطريق للطبيب الذى أمسك يدى وسألنى باسماً :

ــ كيف الحال ؟ ! كفى الله الشر ! بماذا تشعرين ؟ !

وهززت رأسى للدلالة على أنى لاأشعر بشيء .

وبدأ يجس النبض ويسأل :

ــ أظن ليس عندها حرارة ؟

وهزت « سيدة » رأسها قائلة :

ــ لم نقس الحرارة .. فحرارتها تبدو طبيعية .

ــ والهضم ؟

وعادت سيدة تجيب فى مرارة :

ــ أى هضم ؟ ماذا تهضم ؟ إذا كانت لاتأكل ؟ لقد مضت عليها ثلاثة أيام لم يدخل جوفها سوى فنجان شاى .

وكان جدى يبدو متجهماً ، ولم يكن قد حاول الدخول إلىّ خلال الأيام الماضية ، وإن كانت « سيدة » أبلغتنى أنه يبدو حزيناً غاضباً يثور لأقل سبب وأنه قد أضحى لايحتمل .

وسمعته يتمتم قائلا :

ــ « دلع .. ومسخرة » .. عندما يقرصها الجوع

ستضطر للأكل .

وأجابته « سيدة » بمثل تمتمته وكأنها تحدث نفسها :

– ألم يقرصها الجوع خلال ثلاثة أيام ؟ . لعلها جمل ! والنوم الذى لايقرب جفونها . . أهو « دلع » أيضاً ؟

ثم أشاحت بوجهها .

وأخرج الطبيب السماعة . . وجذب مقعداً جلس عليه بجوارى .

ورأيت عبدالرحمن يغادر الحجرة ويغلق الباب خلفه .

وأنهى الطبيب فحصه الشكلى الذى لم يكن منه بد . . ثم قال وهو يضع السماعة فى حقيبتها :

– كل شئ سليم والحمـــد لله . . وأعتقد أن أعصابك مرهقة قليـلا . . سأكتب لك أقراصاً تساعدك على النوم ، أكتب لك بعض الفيتامينات ، وسأمر عليك بعـد أسبوع ، وإن شاء الله أراك سليمة ويكون كل شئ قد زال .

ثم أخذ فى تحرير التذكرة . . وسيدة تنظر إليه وإلى الجد فى غيظ مكبوت .

وأخيراً نهض الطبيب . . وربت يدى فى رفق قائلا :

– شدّى حيلك . . لا داعى للوهم ، ليس بك شئ على الإطلاق .

وغادر الرجل الطيب الحجرة .. يتبعه جدى ، وكان عبد الرحمن يقف خارجهـا منتظراً .. فسلمه جدى تذكرة الطيب قائلا :

— خذ العربة .. وأحضر هذه الأدوية من أقرب صيدلية .

ثم هبط جدى السلم مع الطيب .

ورأيت « سيدة » تندفع خارج الحجرة .. وسمعتها تقول لعبد الرحمن بصبر نافد .. بعد أن فاض بها الغيظ :

— أية أدوية هذه التى ستحضرها ؟ أنخدع أنفسنا ؟ . أنترك الصبية تضيع « هدراً » ؟ حرام .. والله حرام .. إن ربنا لا يرضيه هذا .

وسمعت صوت عبد الرحمن يسائلها فى دهشة :

— ما هذا الذى تقولينه ؟ ! كيف نخدع أنفسنا ؟

ولم تتمالك سيدة من الاندفاع فى البكاء وهى مستمرة فى قولها :

— حرام . حرام والله .

وعاد عبد الرحمن يسألها ناهراً وقد زادت به الدهشة :

— ما هذا الحرام ؟ ! « حرمت عليك عيشتك » .. تكلمى ؟ ! أفهمينى ؟

— ماذا أفهمك ؟! أهو شيء يحتاج الى فهم ؟ . . من قال إن المسائل تؤخذ هكذا بالقوة . أهو حكم قراقوش ؟! أهي جارية لديه ؟

— لست أفهم شيئاً أبداً مما تقولين . . فسرى الأمر لى . . أرجوك .

— ألم يذكر لك سيدى الكبير شيئاً ؟

— أبداً . . إنى لم أصل إلا قبل الدكتور بدقائق . . وكل ما أعلمه من جدّى أن راجية مريضة ، وأنه قد أرسل فى طلب الدكتور ، وأنبأنى أنه عند ما تشفى سنعلن الخطوبة ونلبس « الدبل » .

— هكذا ؟! حتى يأتى على بقيتها . . ويقضى عليها قضاء مبرماً .

وتساءل عبد الرحمن فى دهش :

— يقضى على من ؟!

— على سيدتى راجية . . ياناس اتقوا الله !! أكل هذا يفعله فى البنت . . يغلق عليها النوافذ ويحرّم عليها الدخول والخروج . . كأنها سجينة . . حتى الحديقة يحرّمها عليها . . ولِمَ كل هذا . . أمن أجل أن تقدم لها خطيب ؟

— تقدم لها ماذا ؟

— خطيب .

— متى تقدم ؟ . ومن يكون ؟

— جارنا الأستاذ ابراهيم . . تقدم أول أمس .

— عجيبة ! ! كيف تقدّم ؟

— تقدّم ككل الناس .

— أعنى ماذا دعاه إلى ذلك ؟

— رآها وأعجبته .

— وماذا قال جدى ؟

— ثار وفار . . وهاج وماج . . وقال إنها مخطوبة . . وإنها لو لم تكن مخطوبة ما قبل أن يعطيها له . . ثم صعد إليها . . وسوّد عيشها .

— سوّد عيشها هى ؟ وما ذنبها ؟

— لأنها قالت إنها ليست مخطوبة . . وأنه ليس هنا من يستطيع أن يخطبها برغم أنفها . . إنها حرّة تختار من تشاء .

— أهى قالت له هذا ؟

— أجل . . ومعها حق .

— ولكن أتعرف ابراهيم ؟ ! أرأته ؟ ! أبينهما شىء ؟ !

— ربما . . من يدرى ؟ . . أيسلم الانسان . . وهبها قد أحبته . . أقد حرم الحب ؟ ! أليست بشراً لها قلب ولها

شعور ؟ ! أنقتلها من أجل ذلك ! ! أم نعتبره قضاء الله . . فيها . . وفينا . . وعلينا أن ندبر الأمر بالتى هى أحسن !

ومضت فترة صمت سمعت صوت عبد الرحمن يقول كأنما يحدث نفسه :

ـ إذاً هذه هى المسألة . . هـذا هو سبب المرض . . عجيب !

ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من الحجرة ، ولـكن « سيدة » اعترضت طريقه قائلة :

ـ إلى أين ؟ !

ـ دعينى أحدثها .

ـ ماذا تريد أن تقول لها . اتركها وحدها أرجوك . كفى ما فعله بها جدّك .

ـ لا تخشى شيئاً . . إنى أعرف كيف أحدثها .

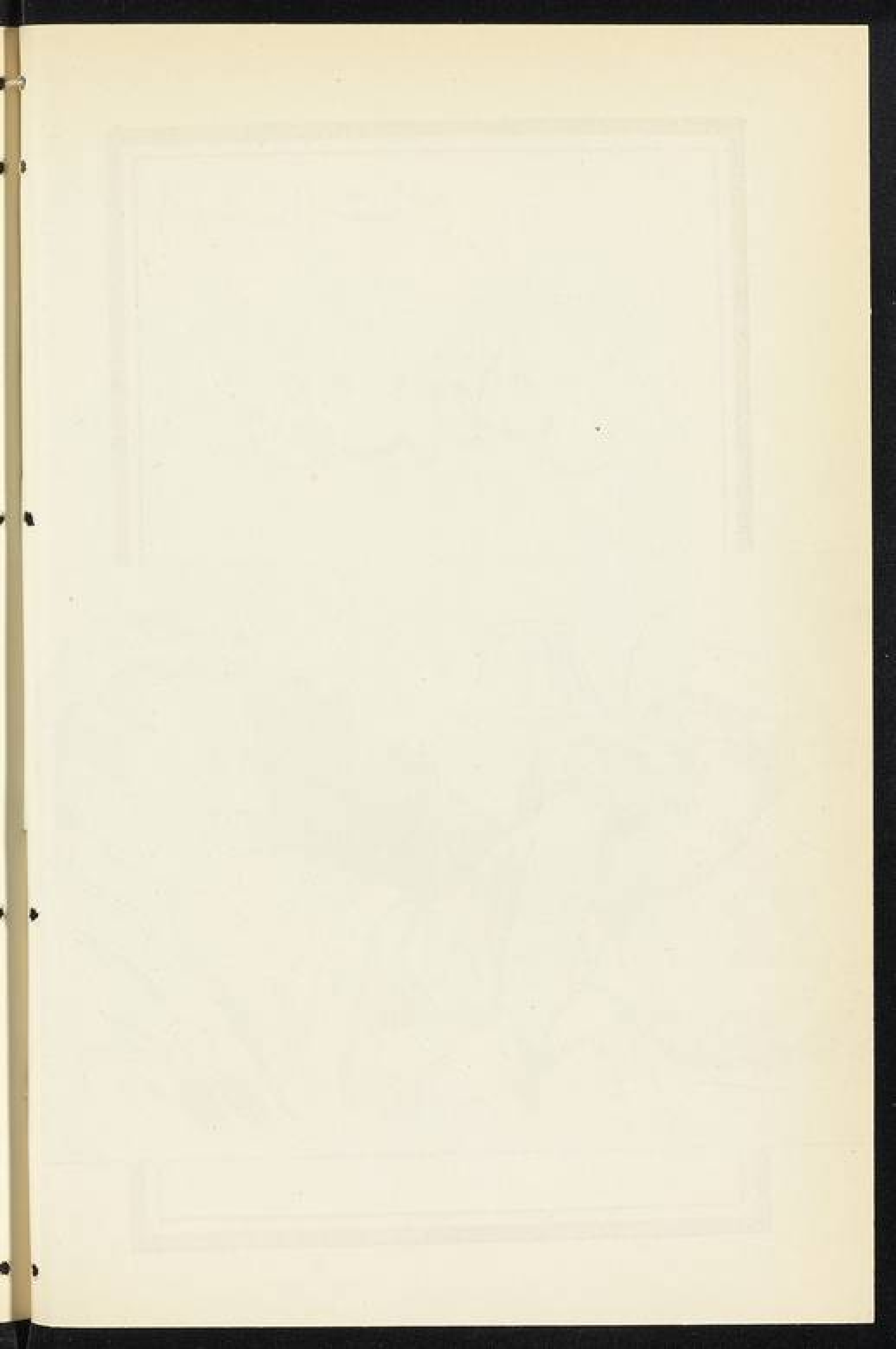
ثم سمعت صوت أقدامه تقترب من باب الحجرة .



الفصل التاسع

وجهة نظر





عبر عبد الرحمن الباب ووقف أمامى يبتسم فى رفق .. ولم أرد على ابتسامته .. إذ لم أكن فى حال يساعدنى على الابتسام .. وكنت أحس له شعوراً بالعداء .. رغم أنه لم يشترك فى المعركة .. إذ كنت أراه خصما بحكم مركزه .

وجلس عبد الرحمن على حافة الفراش وأمسك يدى بين يديه ولم يكن بى من القوة ما أحاول به نزعها .. فتركتها فى موضعها وقال لى فى صوت رقيق ينادينى باسم التدليل الذى تعوّد أن ينادينى به منذ الصغر :

ـ ماذا بك ياروجة ؟ ! ماذا يضايقك ؟

ـ لاشىء .

ـ بل بك شىء .. حدثينى بصراحة ولا تخفى عنى شيئاً اعتبرينى عبد الرحمن أخاك .. قولى ما بك ؟

ـ قلت لك ليس بى شىء .. وأرجوك أن تدعنى .. فإنى متعبة لا أستطيع الحديث .

ـ إذاً فلأتحدث ولأكن أنا أكثر صراحة .. أنت تعلمين ياراجية .. أننا نشأنا معاً كأخوين .. وأن لك فى نفسى موقع الأخت ، وأنى أكره كل مايؤلمك أو يضايقك ، وإذا كنت قد صمت عن حديث جدك فى خطبتنا صمت

الموافقة . . فلم يكن صمتى هذا إلا لأن المسألة لاتعدو مجرد لغو لا يستحق الجدل . . لغو طبيعى يحدث فى كل عائلة بها قريبان مثلك ومثلى ، ولست أعنى بذلك أنك لم تكونى فى نظرى أهلا لى ، بل إنى أراك دائماً خير الفتيات وأصلح الزوجات . . ولكننى لم أفكر قط فى أن تكون المسألة قسراً ولا فرضاً . . كنت أعتقد دائماً أن الخِطبة إذا تمت فلن تتم إلا برغبة مشتركة من كلينا ، وأن حرصك على إتمامها لن يقل عن حرصى . . ورضاءك عنها لن يقل عن رضائى . . أما أن تفرض عليك كما تقولين فرض الاستعباد وتقيدين بها قيد الأسر فهذا لم يخطر لى على بال قط ، فليس بى نحوك وله يعمى بصيرتى عن مصلحتك ولا حب يسمنى بطابع الأنانية ، وكل ما أحسه لك إعجاب بخلقك وتقدير لك وأنت تعلمين أن طريقتى فى الحياة دائماً غير شاعرية أو هوجاء وأنى لا أتصرف فى أمر إلا بعد تفكير وروية . . وأنه إذا ما استعصى علىّ أمر . . ففى غيره بديل عنه . . وأن حكمتى فى الحياة هى :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ماتستطيع

أقول لك هذا عن نفسى ، وأنا أكره الحديث عنها . . حتى أطمئنك من ناحيتى . . وأعتذر عن كل ما حدث مما لم

يكن لى به دخل . . ولأؤكد لك أنى سأفتح لك الباب على مصراعيه وأفسح لك الطريق على سعته ، ولست أتخلى عنك من باب التضحية وإنكار الذات . . بل لأنى أحبك حب الأخت . . ولأنى لست أشعر بحاجة ملحة إلى الزواج . . وعندما أشعر أعتقد أن الذى خلقك لم يعجز عن خلق سواك ، أو كما قال المثل الإنجليزى « لم يزل فى البحر من السمك أكثر مما خرج منه » .

اضحكى الآن . . وأرينى أسنانك الحلوة . . ودعى عنك هذا التمارض أيتها الماكرة .

ووجدتنى . . على غير ارادة منى . . قد ضحكت .

وعاد يقول مازحاً :

ــ أهكذا كنت عبئاً ثقيلا عليك ؟ ! تخونك العشرة . . واللعب الذى لعبناه معاً .

ولم أدر كيف أجيبه ، لقد فعل فىّ حديثه فعل السحر . لم أكن أتوقع منه كل هذا . . لا لأنى أعرفه أنانياً نهازاً للفرص ، بل لأن الأحداث التى مرّت بى وحطمتنى لم تدع لى بارقة أمل فى أحد وأضاعت ثقتى بالجميع .

وبرغم أن حديثه أدهشنى كمفاجأة لم أتوقعها . . أجده ــ إذا حاولت استعادته لنفسى ــ لايزيد على أنه خير معبر

عن نفسه تمام التعبير وأن ذلك هو خلقه وتلك هى طبيعته وأن هذا هو التصرف الذى كان يتصرفه فى كل مايصادفه من شئون الحياة .. وأننا ماتنازعنا فى صبانا على شىء إلا تركه لى بمنتهى السهولة والترحيب .

ونظرت إليه وقتذاك . . والدهشة مازالت تعقد لسانى وكأنى غير مصدقة ماقال . . وهتفت به :

— أتقول حقاً ياعبد الرحمن ؟

— ألا أقول حقاً ! ! هذه أعتبرها إهانة . . منذ متى تعوّدت أن أكذب عليك ؟

— أنا متأسفة . . أنا أعرف أنك لاتكذب ، ولكن مامرّ بى جعلنى محطمة الأعصاب .. لاأثق فى أحد ولا أصدق أحداً . . اعذرنى ياعبد الرحمن . . لأنى كرهتك برغمى ، وبرغمك . . كرهتك لأن جدى حاول أن يصنع منك قيداً يأسرنى به .

واندفعت فى نوبة من البكاء .

وأخذ عبد الرحمن يربت ظهرى فى رفق محاولا تهدئتى وهو يقول :

— أو تعلمين أنى أكون قيداً . . ولك أنت ياراجية ؟ خففى عنك . . ودعى البكاء جانباً . . انهضى من فراشك

واضحكى . ، وألق عنك الهم والتفكير .

وأخذت أضحك خلال العبرات التى لم تجف بعد . . وقلت لعبد الرحمن :

ـ كان يجب أن أثق بك أكثر من هذا . . ولكنى كنت أخشى أن تكون مصراً على الخطبة وأن تكون فى صف جدك .

ـ من الآن . . تأكدى أنى فى صفك .

ـ أجل ، ولكن . . جدى ؟

وخيمت على وجهى سحابة حزن . . وتساءل هو :

ـ ماله جدك ؟

ـ ماذا ستقول له ؟

ـ اتركيه لى . ، أنا أعرف كيف أتفاهم معه .

ـ ولكن هبه لم يقتنع ؟

ـ يقتنع بماذا ؟ المسألة لا تحتاج إلى إقناع . . سأقول له فى يسر إنى قد صرفت عن الخطبة نظراً . . وأنى لا أريد الزواج منك .

ـ أو تظن أنه سيقبل قولك بسهولة ؟

ـ بسهولة أو بصعوبة . . ليس أمامه إلا قبوله .

ـ وهبه ثار . . وغضب . . وهدّدك بأقصى ما يمكن

أن يهدّد به ؟

— مثل ماذا ؟

— مثل . . مثل قطع علاقته بك والاستغناء عنك ، وحرمانك إرثه ؟ !

وضحك عبد الرحمن . . ضحك بشدة لم أتوقعها ، كأنما ألقيت إليه بنكتة مستملحة ثم قال بعد أن انتهى من ضحكه :

— الظاهر أنك حسنة النية . . ولكنك معذورة لأنك خالية الذهن من كل شئوننا . . ولست أظن أن هناك وقتاً لكى أشرح لك كل شئ . ولكن لكى أثبت لك أنه لايستطيع قطع علاقته بى ولا الاستغناء عنى . . أخبرك أنى عندما تسلمت أعماله . . كانت ثروته كلها بما فيها الأراضى موشكة أن تضيع ، وأنى فى بضعة الأعوام التى توليت إدارتها . . زادت إلى ثلاثة أمثالها . . ولست أزعم أنى صاحب معجزات . . ولكنى أؤكد أنى فعلت له الكثير . . وأن الحظ ساعدنى أكثر ، ومن هذا يتبين لك أنه لايستطيع بسهولة أن يستغنى عنى . . أما مسألة حرمانى الإرث فأنا لم أفكر فى إرثه قط . . ولا طمعت فى أمواله ولا أموال غيره . . أنا أحب الكفاح والعمل ، وطَلِبَتى فى الحياة هى أن أرقب ثمرة ما أكافح من أجله وأراه ينمو ، وأن

أمسكه بيدى وأبصره بعينى .. تلك هى أقصى بغيتى فى الحياة .. هى عندى كالموسيقى عندك .. أنا أكره اللقمة الجاهزة .. التى لم أتعب فى تحصيلها ، وإرث جدك الذى سيورثنى ويورثك إياه من صنع يدى .. والذى قدّرنى على عمله يقدّرنى على عمل غيره ، وغيره .. لاتحملى لى هماً .. أنا أعرف كيف أقنعه إذا احتاج الأمر إلى إقناع .

ونزل علىّ حديثه برداً وسلاماً ، ولكن الذهن الذى لايهجع عاد يخلق المصاعب ويبرز العقبات ووجدتنى أطرق برأسى ثم أقول فى صوت خافت ملؤه الحياء :

ــ ولكن .. هل تظنه يقبل الخطبة الثانية ؟

وأطرق عبد الرحمن برأسه وصمت ، وبدأت أحس بالندم على قولى .. ماله هو ولهذا حتى أقحمه فيه ؟! ألم يكفنى أن فكّ عنى القيد وأفسح الطريق ؟ وهممت بالاعتذار .. ولكنى وجدته يرفع رأسه ويقول متسائلا :

ــ اسمعى يا راجية .. أتحبينه ؟

واندفع الدم إلى وجهى ، ولم أستطع أن أقول شيئاً .

ولكنى أومأت برأسى إيماءة خفيفة علامة الإيجاب .

وعاد يسأل :

ــ حب متئد رزين عميق .. غير طائش .. ولا مندفع ..

أعنى حباً يربط حياة اثنين وليس نزوة طارئة ؟ !

ومرة أخرى أشرت برأسى وعيناى مثبتة فى غطاء الفراش .

واستمر هو فى أسئلته التى خلتها لن تنتهى :

— وهو ؟ أيحبك كما تحبينه ؟

وهو ؟ . . أأستطيع أن أكرر له مناجاته ؟ ! أأستطيع أن أتلو عليه آياته التى أحفظها عن ظهر قلب ؟ ! طبعاً لا . إن كل مااستطعت أن أقوله هو :

— أظن ذلك .

— أتعتقدين أنه سيكون لك زوجاً وفياً . . وأنه سيمنحك حياة طيبة ؟

وكان يتحدث بلهجة متئدة . . كأنه أحد القسس الذين يعقدون مواثيق الزواج كالذين رأيتهم فى « السينما » .

ومرة أخرى أومأت له برأسى . . نعم .

وانتهى الاستجواب . . ونهض عبدالرحمن وهو يقول :

— سأبذل كل جهدى . . وربنا يسهل .

وربت يدى ثم أدار ظهره مغادراً الحجرة . . وقبل أن يبلغ الباب نظر إلىّ وقال مبتسما :

— سأقوم بالمهمة بشرط . . .

ــ سل ماتريد ؟

ــ أن تضحكى وتزيحى عنك ذلك العبء الذى تزحين تحته .

ــ لقد أزحته أنت .

ــ إذاً فانهضى . ودعى عنك ذلك النوم الذى يمرض السليم وسأذهب إلى جدك الساعة .

ونهضت من الفراش ، وقمت لأغتسل وقد تبدد اليأس من نفسى وحلّ مكانه أمل وليد .

ومرة أخرى جلست فى الحجرة على طرف الفراش وحيدة أتمتم بالفاتحة ، وببقية الآيات القرآنية التى أعرفها . . وأدعو الله ألا يخذلنى هذه المرة .

ومضى الوقت وبدأت أرقب عقرب « المنبه » وأعد دقاته وأخذ اليأس مرة ثانية يتسرّب إلى قلبى .

أجل . . لو أن عبد الرحمن قد أفلح فى سعيه . . لما غاب عنى تلك المدة ولأقبل علىّ يبشرنى بالنتيجة .

أنا أعرف جدى وأعرف عناده . . لابد أنه قد نهره كما نهر ابراهيم ورفض الاستماع إليه أو مناقشته .

ولكن لماذا لم يصعد عبدالرحمن لينبئنى بالنتيجة أياً كانت ؟ لِمَ يتركنى هكذا معلقة بين اليأس والرجاء ؟

أتراه قد خدعنى ؟ !

ولكن لا . . ليس هو الذى يفعل ذلك . . إنى أعتقد أن جدى قد ثار عليه .

لعنة الله علىّ . . لقد ورطته كما ورطت ابراهيم .

أجل . أنا السبب فى كل هــذا . . كان يجب ألا أستسلم للأمل من أول الأمر .

وطفقت العبرات تسيل صامتة من مقلتى .

ودفنت رأسى فى الوسادة . . عندما أحسست فجأة بالباب يدفع ، وبالوسادة ترفع من فوق رأسى . و « سيدة » تنحنى علىّ وتضمنى اليها وتقبلنى وأنفاسها لاهثة متقطعة وهى تقول كأن بها مساً من جنون :

— مبروك ياست راجية . . انهضى .

ثم تركتنى فجأة . . ورفعت يدها الى السماء :

— إلهى يخليك ياسيدى عبد الرحمن . . إلهى يسعدك ولا يريك سوءاً فى حياتك أبداً .

ولم أتركها تسترسل فى دعواتها . . فقد كنت أعتقد أن باب السماء مفتوح فى أى وقت لتلقى الدعوات . . وأنه لا ضير على « سيدة » ، ولا على « عبد الرحمن » . . إن هى أجلت

دعواتها فترة ، أما أنا فستصيبنى جنة لو لم تعجل لى بالشرح .

قلت لها فى لهفة مجنونة :

— ماذا حدث يا سيدة ؟! أخبرينى ! تكلمى !.

— صبرك علىّ يا سيدتى حتى ألتقط أنفاسى .

ولكن قبل أن تلتقط أنفاسها كان عبد الرحمن قد أقبل فى تؤدة ، وقد بدت على وجهه علائم لست أدرى كيف أصفها ولا إلى أى كفة أرجحها أهى فرح .. أم حزن .. أم خليط من هذا وذاك غلب عليه شعوره بالانتصار وبأنه أسدى إلى إنسان جميلا أزال به شقاءه .

على أى حال لقد أقبل علىّ فضمنى إليه ولثم جبينى وقال :

— الحمد لله أن وفقنى إلى إسعادك .. كنت أودّك لى ، ولكن لا بأس .. لقد حق علىّ المثل « تكون فى بقك وتقسم لغيرك » .. وبيدى يا راجية .. لا بيد عمرو .

ورفعت عينىّ إليه ، وخيل إلىّ أنى قد طعنته من حيث لا أدرى ، قد عميت إلا عن نفسى ، وقلت له :

— أضايقتك يا عبد الرحمن ؟

— لا تكونى مجنونة ، يكفينى هذه السعادة التى أنت فيها ، ويكفينى أنى خلصت عن نفسى قيداً كنت أوشك أن أضع يدى فيه .. أنا أحب الحرية وأحب العمل والكفاح .

ووقع بصره على النافذة المغلقة . . فمدّ يده وفتح مزلاجها ودفعها دفعة فتحتها على مصراعيها وقال :

— انتهينا . . لا قيود بعد اليوم . . لقد فك الحصار .

وكنت فى لهفة شديدة لأن أسمع من فمه التفاصيل فقلت له :

— اجلس . . وقل لى كل ما حدث .

— كل ما حدث . . تستطيع قصه عليك هذه «الحيوانة» التى كانت تسترق السمع من وراء الباب ، والتى لولا انهماكى فى الحديث . . وخشيتى من أن أضيع المسألة . . لقمت وحطمت رأسها . . قولى لها يا سيدة ما حدث . . أظنك تعرفينه أكثر منى ؟ !

ورفعت سيدة يديها إلى أعلى وعادت تواصل دعواتها :

— إلهى يسعدك ياسيدى عبد الرحمن ، إلهى يخليك ،

وعاد عبد الرحمن يقول :

— أما أنا . . فأستأذن للذهاب إلى ابراهيم . . لكى أعتذر له . وأدعوه لزيارة جدى ، يجب أن نطرق الحديد وهو سخن ، قبل أن يعدل .

وغادر عبد الرحمن الحجرة ، وتركنى وسيدة ، وأقبلت على سيدة أجذبها من عنقها وأنا أضحك فى شبه جنون :

— اجلسى هنا . . قولى ما حدث . . كلمة . . كلمة .

— اصبرى علىّ يا سيدتى قليلا مالك تجذبيننى هكذا ؟!
لقد مزّقت ثوبى . . دعينى أصلحه أولا .

— تصلحينه ؟ اجلسى أيتها البلهاء ، قولى ماذا حدث ؟

— حدث ياسيدتى . . خير والصلاة على النبى ، دخل سيدى عبد الرحمن على جدك وقد أمسك « بالروشتة » فلم يكد جدك يراه حتى صاح به :

— ألم تذهب بعد لشراء الدواء ؟!

— هناك بضع كلمات أود أن أسر لك بها .

— بعد . . بعد . . الدواء أهم .

— بل ما سأقوله أهم كثيراً من الدواء .

— ليس هناك شئ أهم من الدواء . . إنى قلق جداً على راجية .

— ولهذا أفضل أن أحدثك قبل أن أذهب لشراء الدواء . . إنى أود أن أحدثك أيضاً بخصوص راجية .

— بخصوص راجية ؟! ماذا تريد أن تقول ؟!

— أريد أن أقول إنى عدلت عن خطبتها .

وفغر جدك فاه ، وقفز من مقعده ، كمن لسعه عقرب ،

وصاح بعبد الرحمن :

ـ ماذا تقول ؟ عدلت عن خطبتها ؟ ! أجننت ؟

ـ جننت لماذا ؟ ! أتعتبر عدول الإنسان عن خطبة لم تتم . . جنوناً ؟

ـ لعلك أنت الآخر . . تحب ؟ !

ـ لا . . أنا لا أحب . . ولا أريد أن أخطب .

ونظر إليه جدك فى دهشة ، وبدا له أن عبد الرحمن يهذى فقال له محاولا إنهاء الحديث :

ـ اسمع ياعبد الرحمن . ليس هذا وقته . . إن بى ما يكفينى . . دع هذا الحديث الآن . . واذهب أولا لشراء الدواء . . وعند ما تشفى راجية . . يحلها ربنا .

ـ الدواء لن يشفى راجية . . نحن نعرف جيداً دواءها . . فلا داعى لأن نتغابى ، ونخفى رءوسنا فى الرمال ، يجب أن نواجه الحقائق .

ـ أية حقائق هذه التى تريد مواجهتها ؟ لقد واجهتها وحدى بطريقة حاسمة .

ـ وكانت النتيجة كما ترى .

ـ المسألة تحتاج إلى قوة وعزيمة . . اذهب أنت لشراء الدواء . . ودع لى الأمور أدبرها كما أرى . . غداً

ستشفى وتعقل . . ويتم كل شيء على مايرام .

— أنا واثق أن الدواء لن يفعل بها شيئاً . . ثم أى شئ هذا الذى تظنه سيتم على ما يرام ؟! هل تتخيل أنى أقبل أن أفرض نفسى عليها فرضاً ؟

— من قال أنك ستفرض عليها نفسك !! إن ما بها نزوة طارئة سرعان ماتزول ؟

— طارئة أو غير طارئة . . إنى لا أريد الخطبة ولا هى تريدها .

— أنتما مازلتما أولاداً صغاراً . . لا تعرفان مصلحتكما إنى أعرف مصلحتكما خيراً منكما . . وإن لى وجهة نظر فى المسألة . . سأعرف كيف أسويها .

— هذا هو الخطأ . . يجب أن تسوى الأمور من وجهة نظرنا نحن لا أنت . . إن كل إنسان له وجهة نظره فى الحياة . . بل إن الإنسان الواحد تختلف وجهة نظره فى مختلف أطوار حياته ، ولكن شر ما فى الأمر أنه يأبى على غيره أن ينظر إلى الحياة إلا من وجهة نظره الخاصة . . حقيقة أنت الآن محنك مجرّب . . وحقيقة أنك تنظر إلى الحياة نظرة اتزان وجد وحكمة وروية وتزن كل أمورها بميزان العقل والمصلحة . .

فأنت تكره لعب الصغار وتسخر من نزق الشباب وحرارة مشاعره ، وتنسى أنك فى وقت ما كنت طفلا وأن دنياك كانت دنيا لهو ولعب وأنك كنت شابا . . وكان النزق هو الأصل فى الحياة وكانت الحكمة سخافة وغباوة . . والروية جموداً والعقل غباوة ، وأنك كنت ترى الحياة الحب والحب الحياة . . إنك تنسى كل هذا وتأبى إلا أن ينظر الناس على مختلف أعمارهم إلى الأمور نفس نظرتك . فإن لم يتصرفوا التصرف الذى يتفق مع وجهة نظرك . . كانوا حمق مجانين . . وكانت كل أفعالهم خرق وطيش وجنون . . لا . . لا . . دع كل امرىء يدبر أمره من وجهة نظره هو . . إنه أدرى بمطالبه ومشاعره . . وهو مسئول عن حياته . . وعن نتائج أعماله ، وإذا كان لا بد لك من أن تدبر أمره فافهم نفسيته وقدّر مشاعره وليكن تدبيرك ما أمكن من جهة نظره وبطريقة تفكيره .

— ما شاء الله . . أنت تحاول أن تعطينى درساً ؟!

— ليس هذا درساً . . ولكنه رجاء . . رجاء بأن تغير طريقتك التى توشك بها أن تدمر حياة أعز الناس لديك . . ألست تحب راجية ؟

— أحبها أكثر من أى شئ فى هذه الحياة . . أكثر

منك ومن نفسي ، ولهذا أضن بعمرها أن يذهب هباء وأكره أن تتنكب الطريق السوى .

— ليس هناك طريق سوى وغير سوى . . إن استواءها نسبي . . يختلف باختلاف النظر والتفكير . . فما تراه أنت سويا يراه المائل عنك غير سوى . . وما يراه هو سوياً تراه أنت غير سوى . . وليس هناك مقياس للاستواء ثابت فى حياتنا يمكن أن يقاس إليه فأى طريق مستقيم يميل إذا ما ملت عنه ويستقيم إذا سرت فيه .. ماذا تنكره على راجية ؟ ! أتنكر عليها أنها أحبت ؟ !

— أتجرؤ أنت على أن تقولها بمثل هذه السهولة ؟

— ولِمَ لا ؟ ! إذا كنت تنكر عليها مجرد الحب فى حد ذاته ، فهذا محض خطأ . . وهذا ما لا يقرك عليه إنسان . . فالطبيعى أن يحب المرء وغير الطبيعى ألا يحب . . وإذا كنت أنت أو أنا لم نحب . . فقد تكون طبيعة مشاعرنا جامدة . . أو قد يكون العمل استنفد كل إحساسنا . . فلم يبق منه شئ لنوجهه إلى الحب أو قد تكون الظروف أبت علينا الحب . . ولكن ليس هذا معناه .. أن نحرم على غيرنا الحب .. أما إذا كنت تنكر عليها أنها أحبت هذا الشخص بالذات . . فهذا هو العجب العجاب . . لأنه ليس مفروضاً عليها أن تحب

من تريد أنت أن تحب .. بل ليس المفروض أن تحب من تريد هى أن تحب .. لأن الحب .. كما لا شك تسمع .. إذا كنت لم تجرّب .. شئ يفعله الإنسان بلا إرادة منه .. بل أغلب ظنى أنه يصاب به كما أصاب أنا وأنت بالأنفلونزا أو الصداع .

— ما شاء الله .. لم أكن أعرف أنك أصبحت فيلسوفاً أو محامياً .

— ليست هذه فلسفة أو دفاعاً .. إنها مجرد توضيح لحقائق أود ألا تخفى عنك .. وأنت تقرر مصير أعز الناس لديك حتى لا تظلمها وتفسد مستقبلها .

— إنى أظلمها وأفسد مستقبلها إذا زوّجتها من هذا « المزيكاتى » .. ماذا تظنه يكون أكثر من هذا ؟ !

— أنا لا أناقش فى أنه « مزّيكاتى » ، أو « قرداتى » . المهم كيف تراه هى .. هى التى ستشاركه حياته .. بعد بضعة أعوام - أمد الله لنا فى عمرك وأطال فى حياتك - ستذهب أنت وتتركها تتحمل وحدها نتيجة اختيارها .. إنها هى التى ستجنى الثمرة .. وهى وحدها التى عليها أن تنتخب البذرة .

— وهذا مايجعلنى أصر على رأيى .. إنى أحب أن

أضمن لها حيـاة سعيدة بعد أن أتركها وحدها ، وأنا أبعد منها نظراً . . وأسلم تفكيراً .

— إذاً فلتسد إليها النصح ، وتوضح لها الرأى . . وتنبئها أية كفة ترجح ثم تترك لها حرية الاختيار . . فإذا أخذت بنصيحتك كان بها ، وإن لم تأخذ فقد أديت واجبك وأرحت ضميرك . . أما أن تفرض عليهـا رأيك بمثـل هـذه القسوة وتـكرهها عليه إكراهاً . . فهذا ما يسمونه الاستعباد . . ونتيجته كما ترى . . إذا كنت تنوى أن تقتلها . . فاستمر فى طريقتك . . وتفضل . . إليك « الروشتة » . . هات لها الدواء عسى أن ينفعها . . أما أنا فقـد أديت واجبى ونفضت يدى من الأمر كله .

وترك عبد الرحمن « الروشتة » على المنضدة واتجـه إلى الباب يهم بالخروج .. ولـكن جدّك قفز من مقعده وصاح به:

— تعال . . اجلس .

وتراجع عبد الرحمن وعاد إلى مقعده .

وأطرق جدّك برأسـه برهة ثم زفر زفرة حارة ورفع وجهاً بدا عليه الانهيار والاستسلام ، وقال فى صوت خافت:

— أتظن ياعبد الرحمن أنى راضى عن حال راجية ! !

إنها تمزق قلبى . . ألا تعرف قيمتها فى نفسى . . كنت أود أن

يحقق الله أمنيتى . . وأراها عروساً لك . . ولكن ما حيلتى إذا كنا نقدر ، فتضحك منا الأقدار . لقد ظننت أنى أستطيع نزع مابرأسها بالقسوة . . فقسوت عليها وقلبى موجع . . وظننت الغمة ستنقشع بعد بضعة أيام . . وقلت لنفسى إن مستقبلها يستحق أن تتحمل هى وأتحمل أنا معها بعض الألم . . وكنت أتوقع منك العون والمساعدة . . ولكنى وجدتك عوناً لها علىّ ، وأنا أعرفها عنيدة مكابرة ، ولكنى لم أتصوّر أن العناد يبلغ بها الحد الذى يجعلها لا تأكل أو تنام.

— ليست المسألة عناداً . . إن أعصابها منهارة .

— لتكن ما تكون . . ماذا تريد منى الآن ؟ لقد أصبحت أنا المخطىء وأنتما صائبان . . إنى تارك لك الأمر لتتصرف كما تشاء . . كل ماأرجوه منك أن تسرع بإحضار الدواء . . لأنى لاأطيق أن أراها كما رأيتها اليوم .

وأسرع عبد الرحمن فزق « الروشتة » شر ممزق وقال له :

— هذه هى « الروشتة » . . قد انتهى أمرها حتى تريح نفسك منها . . إنى كفيل بشفائها . . دع الأمر لى . . سأذهب الآن إلى إبراهيم لأعتذر إليه وأدعوه إلى مقابلتك الليلة .

وهزّ جدك رأسه وأجاب :

ـــ افعل ماتراه .

واندفعت إليك . . وأنا أكاد أجن .

وصمتت سيدة . . وصمت أنا . . وأحسست بكثير من الندم على ذلك الشعور البغيض الذى كنت أحسه لجدى . . ما كان يجب علىّ أن أبغضه ذلك البغض . . وأن أندفع أمامه ذلك الاندفاع الأحمق الذى اندفعته بعد أن أضاع رفضه صوابى .

كان يجب أن أعرف أن كل مابيننا هو اختلاف فى وجهات النظر . . إن غرضنا واحد . . ولكن الوسائل اختلفت . . كلانا يبغى سعادتى . . ولكنى رأيتها فى ابراهيم ورآها فىّ عبد الرحمن .

كان يجب ألا أعتبره خصما لى يبغى القضاء على مستقبلى وأى مصلحة له فى هذا ؟

ولكن أنى لى أن أفكر هذا التفكير وقتذاك ! !

لو استطعنا أن نسيطر على مشاعرنا وكبحنا جماح غضبنا لأمكننا أن نحصل على أفضل مما نحصل عليه إذا أطاش الغضب صوابنا .

أم ترى أن المسألة ما كانت تتم . . لو لم أندفع لخوض المعركة . . بمثل هذه الثورة . . وأنى ماكنت أحصل على

ما حصلت عليه إلا بالكفاح والنضال والآلام ؟!

الله وحده أعلم ؟

كل مايهمنى الآن . . هو أن أملى قد تحقق . . وأوهامى قد باتت ملء يدى . . وأنى وإبراهيم . . قد انتصرنا فى معركة حياتنا المشتركة . . ومصيرنا المرتقب .

ووجدتنى أذكر الله ، وأقول من كل قلبى « الحمد لله » .

وكما صاحبتنى الدموع فى أحزانى .. وجدتها تهبط منسابة من عينى . . لتصاحبنى فى فرحتى .

ووددت لو أقفز من النافذة وأعدو إلى إبراهيم فأضمه بين ذراعى وأضع رأسى فى صدره . . وأنبئه أن كرامته قد ردّت ، وأن جدّى سيعتذر له . . ويقول له إنه يشرفه أن يزوّجنى إياه . . .

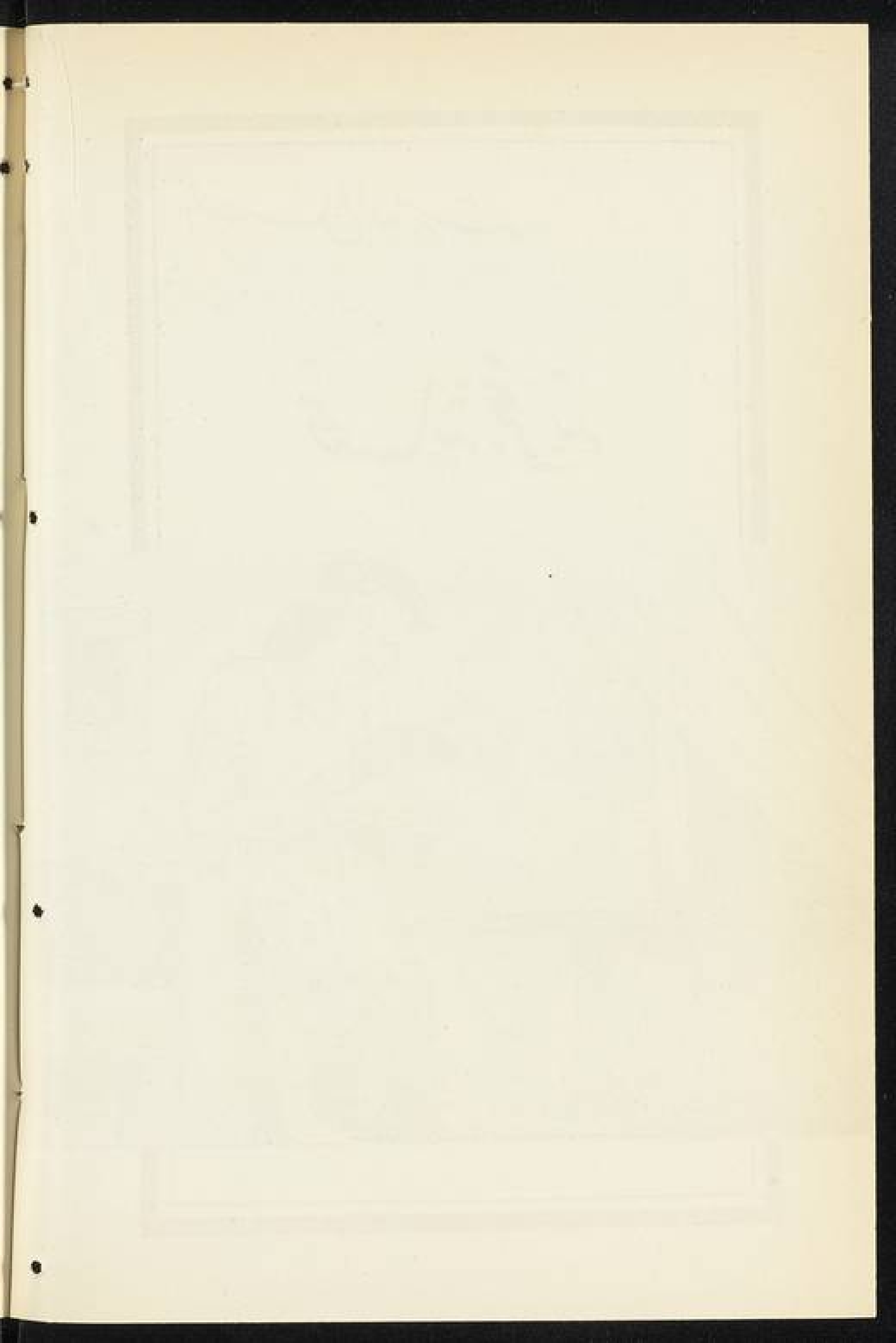
أجل . . لقد كان أكثر مايسبب سعادتى . . هو إحساسى بأنى لم أخذل ابراهيم .



الفصل العاشر

نهاية تجربة





وهكذا تبددت فجأة غيوم اليأس المعتمة التى كانت تملأ سماء حياتى .. وإذا جلاميد الصخر التى كانت تحول بينى وبين إبراهيم .. أو على الأصح .. بينى وبين الحياة .. والتى كنت أراها توشك أن تنقض علىّ فتتركنى حطاماً .. قد تفتتت وذابت .. وأضحى الطريق إلى أمنيـــة النفس سهلا معبداً .

ورحت من فرحتى أشبه بالسكرى أو المأخوذة لا أكاد أعى ما حدث فى بضع الساعات التاليـة .. كل ما أحسسته وأنا قابعة فى غرفتى أن فى الدار حركة غير طبيعية ، وأن أقداماً تروح ، وأقداماً تغدو .. وعلمت من سيدة أن عبد الرحمن زار إبراهيم .. وأن إبراهيم أتى لزيارة جدى .. وأنهما تفـاهما بسرعة عجيبة .. وأن جدى كان رقيقاً معه .. واتفقا على إعداد « دبل » الخطبة لـكى نلبسها فى أقرب وقت.

وانتهت المسألة فى يسر وسهولة .. وكان الإعيـاء قد بلغ منى أقصاه ، فلقد أنهكتنى الانفعالات الشديدة التى مرّت بى ولم أعد أملك إلا الرقاد والاستغراق فى سبات عميق .

وفى اليوم التـالى تمت الخطبة .. ولست أظن شرح سعادتى بالأمر السهل .. لقد كنت فى كثير من الأحيان

عند ما أخلو لنفسى ، وأذكر كيف كنت أعتبر سعادتى فى سماع إبراهيم مع ألوف الناس . . ثم كيف أصبحت أشعر بعد ذلك أن السعادة قد فاضت بى وأغرقتنى عند ما كان يعزف لى .

كنت عند ما أذكر هذا لا أكاد أصدق أنه قد بات ملكا لى . . وأن من حقى أن أجلس معه . . وأحدثه . . وأناجيه ويناجينى . . وصار هذا حقاً مقرراً من الناس والتقاليد . . لا حقاً مختلساً أو مسلوباً .

كانت سعادتى تفوق الوصف . . ولم يكن يخيفنى إلا تخيلى فى بعض الأحيان أنى أمر بحلم . . نهايته اليقظة .

واستيقظت أول فجر بعد الخطبة على صوت أنغام يحملها النسيم من دار إبراهيم ، وتذكرت أول مرة ذهبت إليه عبر السور . . وأحسست برغبة جارفة تدفعنى إلى أن أكرر ما فعلت .

وغادرت الحجرة هابطة إلى الحديقة . . وصعدت إلى السور وقفزت منه إلى الأرض . . وبنفسى إحساس بمتعة عجيبة . . متعة السارق . . الذى يعرف أنه لا سلطان لأحد عليه . . أو متعة الذى يأتى ما كان محرّماً عليه . . لكى يشبع فى نفسه رغبة الاستهتار .

وأخذت أتسلل إلى الشرفة على أطراف أصـــابعى . . ولم يكن فى هذه المرة صوت المسجل هو الذى يعلو . . بل كان هو نفسه جالساً أمام « البيانو » واستمررت فى الاقتراب حتى وقفت وراءه . . ثم مددت يدى ووضعتها على عينيه .

وسمعته يهتف فى صيحة جذل ودهشة :

ـ راجية ؟ ! !

ـ كيف عرفتنى ؟

ـ من مسة يدك . . وهبـــة عطرك . . إنى أعرفك لو مررت بى من بعد ميل . . أعرفك من نسمتك كما قال الشريف الرضى :

هبت لنا من رياح الغور رائحة

بعـــد الرقاد عرفناها برياك

ـ أنا لا أفهم الشعر .

ـ وأنا أحب ترديده والترنم به . . إنه أقرب الكلام إلى الموسيقى . . تعالى .

ثم جرّنى من يدى إلى حجرة مجاورة فرأيت رفاً صفت عليه الكتب . وأردف قائلا وهو يشير إلى بعض الكتب :

ـ هذه كلها دواوين شعر . . ألجأ إليها وقت الراحة .

— والباقى ؟

— فى الأدب والموسيقى .. وهناك كتـــاب فى علم الأرواح ، وآخر فى علم النفس .

— لم أكن أظن أن لديك وقتاً للقراءة .

— إنى أحب القراءة .. وأخلق لها الوقت .

— وأنا أيضاً أحبها .. ولدىّ مكتبة سأريكها عندما تأتى إلىّ .. ولكن معظمها روايات وأقاصيص .. إنى لا أطيق الشعر .

— أنا أيضاً لدىّ بعض القصص سأعيرها لك .. إن كنت لم تقرئيها .

— ولكن كيف تجد وقتاً للقراءة وللتلحين ؟

— كل شئ مستطاع مادمت فى حالة نفسية طيبة .

— وإذا لم تكن ؟

— أجارك الله .. لقد مضى علىّ بضعة أيام عقب أن خذلنى جدّك ، كنت لا أكاد أفعل شيئاً .. سوى الحملقة والشرود .. ويخيل إلىّ أنه لو طال بى الوقت أكثر من هذا .. لفقدت عقلى .

— وبعد ذلك ؟

— فى أول ليلة .. لم أفعل شيئاً من فرط الفرحة

والطرب . . وبعد ذلك فعلت فى يومين . . ما لم أستطع عمله فى شهر بأكمله .

ــ أحقاً وضعت ألحاناً جديدة ؟

وكنا قد عدنا إلى حجرة « البيانو » وقد تشابكت أصابعنا وجلسنا على الأريكة متجاورين . . وأجابنى قائلا :

ــ وضعت ما أعتقد أنه أجمل ألحانى . أتريدين سماعه ؟

وكنت أحس بمتعة من الجلوس بجواره تكاد تغلب متعتى من سماع ألحانه ، وقلت محاولة أن أستبقيه إلى جوارى:

ــ أنا لا أريد أن أتعبك .

ــ لن أتعب فى شئ . . سأسمعه لك بواسطة المسجل .

وبدأنا نستمع إلى المسجل وقد أسندت رأسى إلى كتفه وتركته يعبث ــ كعادته ــ بخصلة شعرى .

ولم يكد ينتهى اللحن حتى سمعت فى المسجل صوتاً يقول:

ــ راجية ؟

وآخر يسأل :

ــ وكيف عرفتنى ؟

واستغرقنا فى الضحك فقد ميزنا فى الحديث صوتى وصوته وأدركت أن الجهاز لم يكن قد أوقف عندما دخلت عليه .

وقلت فى جذل :

ــ هذا الجهاز لطيف جداً .. إن الإنسان يستطيع أن يسجل عليه أجمل ما قيل له .. كى يستعيده إذا ما أحس بالحاجة إليه .

ــ إذاً سأعطيك إياه .. برغم ثقتى بأنك لن تحتاجى إليه .. لأن أجمل ماقيل لك .. سيقال لك دائماً .. بل سيقال لك خيراً منه .

وأحنى رأسه علىّ ، ثم وضع أنفه فى خصلة شعرى وهمس قائلا :

ــ أحب رائحة شعرك .

وانزلقت شفتيه ببطء على أنفى واستقرت برهة على طاقتيه ثم هبطت إلى شفتى .

ووجدتنى أستنشق أنفاسه فى شهيق طويل وأهمس به :

ــ وأنا أحب رائحة أنفاسك .

* * *

وعدت إلى البيت من السور .. وتسللت إلى حجرتى وسرعان ما رقدت فى الفراش وبعد لحظات كان « مدبولى » يدق الجرس حاملا جهاز التسجيل ومعه بعض التسجيلات .

وأقبلت « سيدة » تحمل الجهاز وتضعه على المنضدة

فى غرفتى . . قائلة :

ـ سيدى ابراهيم أرسل هذا مع المخبول الذى يدعى مدبولى

ولما لم تجد منى بوادر دهش ولا سؤال عما يكون هذا الصندوق الذى حملته إلىّ فى الصباح المبكر تساءلت قائلة :

ـ أتعرفين ما هذا ؟ .

ـ أجل . . أعرف .

ـ كيف ؟

وضحكت قائلة وأنا أنهض وقد رفعت عنى الغطاء ووقفت أمامها « بالجيب والبلوزة » .

ـ انظرى ! !

وضربت سيدة على صدرها وقالت :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . . أكنت نائمة بملابسك ؟

ـ لقد كنت أحلم أنى أتنزه فى الخارج . . وعندما فتحت عينى وجدت نفسى بملابسى هذه .

ـ يانصابة . . ياكذابة . . أين كنت ؟

ـ كنت عند ابراهيم . . قفزت السور كالمرة السابقة .

ـ يافتاح ياعليم . . هكذا على الصبح . . إنت جنسك إيه . . شيطانة ؟ ! . . وما هذا الصندوق ؟ ! . ماذا به ؟

ـ أتريدين أن تعرفى ماذا به ؟

— أجل .

— أديرى وجهك إلى الناحية الأخرى .

وأدارت « سيدة » وجهها وهى تمصمص بشفتيها وتقول : « حكم » .

وبدأت أدير الجهاز للتسجيل كما علمنى إبراهيم . . ثم صحت بسيدة :

— هل تستطيعين الغناء ؟

— طبعاً أستطيع . . إن صوتى يفوق منيرة المهدية فى زمانها .

— إذاً غنى .

— ليس هذا وقتـــه .

— قلت لك غنى .

— لا أستطيع الغناء هكذا « حاف » بلا تخت .

— غنى ولا تضيعى الوقت .

وبدأت سيدة تغنى أحد المواويل .. وأخيراً صحت بها :

— كفى . . أديرى ظهرك واسمعى .

ثم بدأت أدير الجهاز للإذاعة . . ووقفت سيدة جاحظة العينين ، فاغرة الفم . . وهى تسمع الحوار الذى دار بيننا ، ثم تسمع صوتها يغنى . . وأخيراً قالت متسائلة :

— ما هذا ؟ . . كأن بجوفه عفريتاً .

وبعد الظهر دعونا إبراهيم لتناول الشاى . . وعقب الشاى سحبته من يده وقلت له ضاحكة :

— تعال . . سأريك مفاجأة .

واتجهت به إلى حجرتى . . وقبل أن يجتاز الباب قلت له :

— أغمض عينيك .

ووقف إبراهيم بباب الحجرة مغمض العينين وهو يقول :

— أتنوين أن تسحبينى إلى السور كما فعلت بمدبولى ؟

— لا . . انتظر لحظة واحدة . . والآن افتح عينيك .

وكنت قد أخرجت الصورة التى رسمتها له والتى أخفيتها خلال « الأزمة » فى أسفل الدولاب .

وبدت عليه الدهشة والإعجاب وهتف :

— مدهشة . . أحقاً رسمتها من الذاكرة ؟ .

— طبعاً . . ألا تشبهك تماماً ؟

— إنها تشبهنى حقاً . . ولكن لا أظن الأصل وجيهاً . . كالصورة . . أتظننى وجيهاً بهذا الشكل ؟

— على أية حال . . لقد رسمتها من الأصل المقيم فى ذهنى . . وسواء أكنت هكذا أم لم تكن . . يكفى أنى أراك هكذا .

— وإلى متى سأستمر فى ذهنك هكذا ؟ متى « أبهت » ؟

— لا أظنك « تبهت » أبداً . إنك منقوش فى الذهن . . محفور فى القلب . . ليس لك زوال ولا نهاية . . رسمك فى نفسى أشبه بنقوش الفراعنة .

وقبل أن يجيب أشرت إليه بأصبعى :

— انتظر هناك مفاجأة ثانية . . اغمض عينيك .

وأغمض عينيه فقلبت الصورة وقلت له :

— افتح .

ولم يكد يفتح عينيه حتى صاح مقهقهاً وهتف :

— يا مدبولى الكلب . . والله هو بعينه وغباوته وبلهه . . خسارة فيه الرسم . . والألوان . . والجهد .

— لقد رسمته للتمويه أولا . . حتى إذا دخل علىّ أحد قلبت الصورة . . ولتسلية سيدة ثانياً . . فهى تمرّن لسانها فى الصورة على السباب . . على أية حال لقد حكم على الصورة بالسجن فى الدولاب فى فترة مرضى ولم يفرج عنها إلا بعد انفراج الأزمة .

— لقد كنت أنا أيضاً أشعر أنى فى سجن ، بل أكثر من هذا . . كنت كالمحكوم عليه بالإعدام .

— أرجوك لا تذكرنى بتلك الأيام . . إنى لم أر

ألعن منها . . لقد كنت فى حالة . . أشبه بالموتى . . هيا بنا أريك الحجرة .

ثم أمسكته من يده وأخذت أعرض عليه محتوياتها قائلة :

ــ هذه هى المكتبة التى حدّثتك عنها . . كلها قصص . وهذا هو « ألبوم » الصور . . تفرّج عليه على مهل . . وهذا هو « الأوتوجراف » الذى لم تتكرّم بإمضائه حتى الآن .

ــ سأمضى فى قلبك . . وليس فى الأوتوجراف .

ــ لقد أمضيت من زمن طويل .

ثم استمررت أعرض عليه بقية المحتويات قائلة :

ــ وهذا هو دولاب الرسم والأشغال .

ثم مددت يدى إلى الرف العلوى وجذبت « كمان » مخبأة فوقه وقلت :

ــ وهذه أعزّ ما أملك . . إنها « كمان » كان يعزف عليها أبى . . وقد احتفظت بها لنفسى بعد وفاته .

ــ أكان أبوك يجيد العزف ؟

ــ يقولون هذا .. أنا شخصياً لم أسمعه .

ــ إذاً فقد ورثت عنه الميل إلى الموسيقى . . إنها ليست بدخيلة عليك ؟

ــ إن سيدة تقول إنه كان يهوى الموسيقى والغناء . إنها

لم تر أرق ولا أطيب ولا ألطف منه .

ثم مددت يدى إليه « بالكمان » وأردفت قائلة :

— إنها خير مالدىّ لأهديه لك ، نخذها إذا كنت تجدها تستحق .

وتناول « الكمان » وهو يقول :

— متشكر جداً يا راجية . . لا أدرى كيف أشكرك .

— أنا أعرف أنها ليست قدر المقام ولكنك لا تتصور قيمتها عندى . . إنى أقدم أعزّ ما أملك ، لأعز الناس علىّ .

وبدأ إبراهيم يجرى القوس على أوتارها ويربط مفاتيحها وهو يقول :

— إنها « كمان أصيلة » . . إنها فى حالة جيدة جداً . . إنى لن أعزف بعد الآن إلا عليها .

وسرّنى حسن قبوله لهديتى . . ورضاؤه عنها ، وعدت أعرض عليه بقية ممتلكاتى . . قائلة :

— وهذه أول هدية منك لى .

ومددت يدى فى أحد الأدراج وأخرجت منديلا .

وهتف هو فى دهشة :

— هدية منى أنا ؟

— ألا تذكر . . المنديل الذى ربطت به قدمى !!

ــ ألا زلت تحتفظين به حتى الآن؟! لو علمت هذا .. لربطتها بشئ أثمن . . أو لوضعت فى قدمك خلخالا من الذهب .

ــ إنه عندى أثمن من ذهب العالم كله . . إنه تذكار لأول رؤيتى لك وحديثى معك . إنه يحمل إلىّ أعز الذكريات .

وخرجت به إلى الشرفة وبدا أمامنا منظر السور ، والأشجار المتكاثفة ومن خلال فروعها بدت شرفته .

وعندما وجدت نفسى أقف فى شرفتى بجواره أحسست أن الله قد منحنى شيئاً كثيراً ، ووجدتنى أتنهد تنهد الاستقرار والحمد والشكر . . ودعاء الله أن يديم علىّ فضله ونعمته .

وقلت لإبراهيم فى صوت خفيض وقد رق منى الحس وأرهف الشعور :

ــ هذه هى الشرفة التى سمعتك فيها أول مرة . . كنت أجلس هنا على هذا المقعد . . وقد شرد منى الذهن . . وسبحت ببصرى بين النجوم . . ورحت أمسح وجهى فى السحب الهشة المتناثرة . . عندما حمل إلىّ النسيم لحناً عجيباً ، سرى هادئاً كأنه حفيف الشجر . . كانت لحظة خالدة لن أنساها مدى الدهر . . لأنها بداية حياتى . . كنت من قبل أحس أنى ضالة تائهة .. لاأعرف لِمَ وجدت فى هذه الدنيا

ولا ماذا أريد منها . . ولكنى شعرت بعد ذلك . . أنى لم أعد ضالة ولا تائهة وأن الدنيا بها مايستحق الحياة ، وأن هناك أملا أعيش لأبلغه . . وأمنية أحيا لأدركها . . واخترت الشرفة بعد ذلك معبداً . . ألجأ إليه لأملأ بالإيمان نفسى . . وأصبحت إذا ما جلست على هذا المقعد أحس براحة عجيبة ، حتى تعوّدت ألا أسمعك إلا وأنا مضطجعة عليه ، شاردة ببصرى فى السماء .

وكنت أقف إلى جانبه وقد وضع يده على رأسى وأخذ يتحسس شعرى ونظر إلى عينىّ مبتسما وقال :

— إذاً فأنت لا تستطيعين سماعى إلا فى شرفتك وعلى مقعدك ؟

— أجل . . هكذا تعوّدت .

— إذاً فليس لى أى فضل فى إطرابك . . الفضل كله للشرفة وللمقعد . . على أى حال . . أنا على استعداد لأن أعزف لك لحناً جديداً . . مادامت الشرفة قائمة والمقعد موجوداً .

— والكمان جاهزة ؟!

— أجل . . لاينقصنا شئ . . سوى أن تضطجعى على المقعد وتنظرى إلى السماء .

وأمسك « بالكمان » يصلح أوتارها . . ثم قال لى :

— ها . . إنى جاهز . . أجاهزة أنت ؟

وكنت قد جلست على المقعد ولكنى قفزت فجأة قائلة :

— انتظر . . كدت أنسى شيئاً هاماً .

وعدوت إلى جهاز التسجيل فأعددته ثم عدت إليه قائلة :

— تصوّر . . كدت أنسى أن أسجله . . وكاد تعبك يذهب هباء . . سأحتفظ بهذا التسجيل . . حتى أسمعه إذا ما غبت عنى .

وبدأ إبراهيم العزف ، وجلست فى مقعدى . . وأغمضت عينىّ ورحت فى نشوة .

وحملتنى الألحان بعيداً إلى السماء وكأنى أطوف بالفردوس وصمت الصوت . . وأنا ما زلت محلقة فى عليائى ، مغمضة العينين شاردة الذهن .

وأحسست بأنفاس حارة تلفح وجهى وشعرت بشفتين تمسان شعرى ثم تطوفان بخفة فى وجهى ماسة جبينى وعينى وأنفى وخدى وعنقى وذقنى ، وأحسست بالرحلة قد طالت وشفتىّ قد زاد بهما الظمأ . . ولم يستطيعا الانتظار حتى تصل إليهما الشفتان الأخريان . . فتعجلت اللقاء . . واختصرت الطريق ووثبت إليهما . . واستقرت شفتاى عليهما فى ظمأ

ونهم . ومددت ذراعى فضممته إلىّ .

وبدا لى كأنى ما زلت أهيم فى شرودى . . وأن ما أفعله ليس سوى حلم . . وهمست به :

— أين أنا ؟

— بين ذراعى .

— خيل إلىّ أنى أحلم ، وخشيت أن أفتح عينىّ حتى لا يتسرّب الحلم ويختفى .

— افتحى عينيك ولا تخشى شيئاً . . إن حلمك . . باق إلى الأبد . . لن أوقظك منه مهما فتحت عينيك .

ومضت لحظة صمت ثم همس فى أذنى :

— راجية . . أتحبيننى ؟ ! قوليها لى . . فإنى أحب أن أسمعها من شفتيك .

وفتحت عينىّ ونظرت إليه وأطلقت تنهيدة حارة . . وهززت رأسى ببطء وأجبته هامسة :

— لن أقولها لك . . إن ماعندى ليس حباً . . إنه أكثر من هذا . . عندما يحب المرء . . يحب مخلوقاً آخر . . ولكنى لا أحس أنك آخر . . إنك أنا . . أنت فى دمى وفى كيانى . كل ذرّة فىّ معها ذرّة منك . أعرفت من تكون بالنسبة إلىّ ؟

— أنا أيضاً أحس كما تحسين . . لم يعد لى غنى عنك لحظة

واحدة . . أشعر كأنى لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجاً بأنفاسك . . وأشعر أن حياتى مستمدة منك . . أنت أحد عناصر الحياة لدىّ . . بل عنصرها الأول . . بغيرك لاأستطيع الحياة . . لاأستطيعها أبداً . . أبداً .

وضمنى فى لهفة .

وفى تلك اللحظة . . وصل إلى مسمعى صوت أدركت منه أن المسجل ما زال دائراً وأننا قد نسينا وقفه .

وقلت لإبراهيم فى دهشة :

— إبراهيم . . إننا لم نعطل المسجل ؟

وهتف إبراهيم وهو يتلفت نحوه :

— أجل .. لقد نسيناه تماماً .

واتجه إليه فعطله ثم عاد إلىّ وهو يقول ضاحكا :

— تصوّرى يا راجية . . لقد سجل كل ماقلناه ؟

وصحت فى شبه ارتياع :

— يا خبر ! ! لم أكن أدرى أن هناك من ينصت إلينا ويسجل علينا أقوالنا . . لو سمعه أحد . . ستكون فضيحة . كم أنا خجلة ؟

— لاتقلق إنى أستطيع مسحه .

وعاد إلى المسجل مرة أخرى ليمسح الشريط . . وقبل

أن يهم بمسحه قلت له عابثة :

— دعنا نسمعه أولا .

وأدار الشريط . . وسمعنا أولا اللحن الذى سجله . . ثم مرّت فترة لم أسمع فيها شيئاً . . فقلت له وكأن بى خيبة أمل :

— إنه لم يسجل شيئاً . . الظاهر أنه خجل من نفسه ؟

وضحك إبراهيم وأجاب :

— انتظرى قليلا . . إننا لم نكن قد بدأنا الحديث بعد.

كانت شفاهنا مشغولة بشىء أهم . . شئ لايستطيع المسجل تسجيله . . ولله الحمد .

وقبل أن أجيبه بدأ الصوت يقول فى همس :

— أين أنا ؟

— بين ذراعى .

— خيل إلىّ أنى فى حلم .

واستمرت المناجاة حالمة هائمة . . حارة ذائبة . . حتى انتهت بقوله :

— بغيرك لا أستطيع الحياة . . لا أستطيعها أبداً أبداً .

ونظر إلىّ إبراهيم وقال متمما لصوت المسجل :

— أبداً . . أبداً . . أبداً .

وعاد يضمنى إليه ، ثانية ، وثالثة ، ورابعة.

ومرّت بى بعد ذلك أسعد أيام حياتى .. أيام منحتنى الدنيا من السعادة ما يعتبر كرمها الأول بجواره بخلا وتقتيراً . . كنت أنطلق فى مرعى من النعيم لا حدود له ولا قيود فيه .

وبدا لى أن القدر قد نسينى . . وغفل عنى بمصائبه وأحداثه وأحزانه . . أو أن القضاء قد انتقانى من سجل البشر ليفرد لى صفحة خالصة من السعادة لا تشوبها شائبة كدر ولا ضيق .

كنا لا نكاد نفترق إلا ساعات النوم .. وفى خلال النهار كنا نرتع بين الحدائق أو على شاطىء البحر ، وكان الوقت ربيعاً ، والأوراق الجديدة اللامعة على فروع الشجر وأكداس الأزهار المتفتحة المتزاحمة فى الأحواض ، وبيض السحب العابثة فى مراح الزرقة الصافية ، كل ذلك قد جعلت منه الطبيعة إطاراً رائعاً تحيط به ينبوع السعادة المتدفقة من قلبينا .

وإنى لأسائل نفسى الآن ، وأنا أستعيد لذهنى ما كنت فيه . . هل يتهيأ لمخلوق . . أن يظل حياته كلها فى مثل هذا الفيض من النعيم ؟ ! وهل يتفق للدنيا . . أن تفجر لمخلوق ينبوعاً من السعادة لا ينضب له معين ولا يجف له نبع ؟ !

وهل يغمض القدر عن مخلوق فيغفل عنه بأحداثه إلى الأبد .

عندما أسائل نفسى الآن .. أجزم أن هذا غير معقول.. ولكنى . . هائمة فى مرتعى كما كنت . . شاردة سابحة . . أعب وأنهل . . لم يخطر ببالى قط أن ما بى من الهناء يمكن أن يصل إلى نهاية ، وأن حياتى تستطيع أن تسير على غير هذا النمط من المتعة والنشوة .

لم أكن أفكر أن سفاهة الدنيا فى المنح لابد أن يعقبها إفلاس . . وأن هذه الفترات ذات النعيم المركز . . لايمكن أن تستمر مدى الحياة لأنها أشبه بروح العطر ، يمكن أن نفرّق على قنينات العمر . . لكى تجعل العمر كله عطراً ، وأنها زاد من الذكريات يجتر ليمنح الإنسان قوة يستعين بها على مشقة الطريق حتى يصل إلى نهاية عمره ، أو بارقة تضىء لنا لحظة لكى ترينا فى ظلمات الطريق مفاتن الحياة حتى نعيها فى أذهاننا إذا ما ادلهمت الظلمة مرة أخرى .

لم أذكر كل ذلك وأنا منطلقة فى مراح النعيم . . حتى أحسست فجأة أنى أنزلق من قمة المنحدر . . أو أهوى من حالقه ، وأن الشىء الصلب الذى كنت أطبق عليه يدى فى ثقة وطمأنينة قد بدأ يذوب ، وأخذ يتسرّب من أصابعى

دون أن أستطيع الاحتفاظ به .

لست أدرى كيف بدأت الكارثة . . فقد كانت المسألة كلها خاطفة كلمح البرق . . ولكنى أذكر أن الأمر بدأ بشرود منه وذهول لم أعهده . . وتجهم يعلو وجهه عندما يغيب عنى بذهنه . . فإذا ما استدعيته إلىّ . . فك عقدة وجهه وحاول جهده أن يفرج أساريره .

ثم أحسست بعد ذلك أن شروده قد زاد ، وأن السد الذى بدأ يقوم بينى وبينه قد علا واشتد . . وأن الصلة التى أحالتنا إلى شخص واحد قد أخذت تنفصم عراها ، وتتمزق روابطها ، وأنه قد أخذ يبتعد عنى رويداً رويداً . . حدث كل ذلك بلا مبررات ولا مقدمات ولا دواعى معقولة .

وخلت أن هناك مايضايقه مما قد يكون حدث على غير قصد منى ، وأنى قد أستطيع إزالته ، وحاولت أن أستفسر منه وقد جلسنا متجاورين فى حديقة دارنا فسألته :

— ماذا بك ياإبراهيم ؟

ورفع رأسه عائداً من شروده قائلا :

— لاشئ .

— إنك لست كعادتك . . إن بك ضيقاً من شئ . . قل ماهو ؟

ـ ليس هناك شيء .. قلت لك .

ـ أضايقك من جدّى شئ ؟

ـ لا .

ـ ولا عبد الرحمن ؟

ـ ولا عبدالرحمن .

ـ إذاً . . ماذا بك ؟

وأخيراً فتح الله عليه بعذر شكلى لم أستطع إلا قبوله فقد قال :

ـ إن بى صداعاً خفيفاً .

ـ أأحضر لك اسبريناً ؟

ـ أخذت .

ولم أحاول أن أضيق عليه بالسؤال مرة أخرى ، وحاولت أن أعزّى نفسى بأن ما به قد يكون حقاً صداعاً أو إجهاداً ، أو على أسوأ الفروض ، نوعاً من ملل الإنسان الذى يصيبه نتيجة الإفراط فى شيء . . ولو كان إفراطاً فى السعادة .

وصممت على أن أتصرف بحكمة ، ولا أفزع ولا يطير عقلى شعاعاً . . . وأن أفعل كل ما أستطيع حتى لا أزيده ضيقاً ، ولم أحاول قط أن أسبب له ما يزعجه . . أو أثقل عليه بما لا يريد .

ولكن يبدو لى أن القضاء كان قد وقع ، ولم يكن لى فى ردّه حيلة ولا على دفعه قدرة .

ففى يوم . . أغبر مشئوم . . وجدته قد أقبل علىّ وفى وجهه شحوب وفى سيماه تجهم . . وبدا كأنه واقع تحت عبء ثقيل وكنت أقف فى الحديقة لأجمع بعض الورد هششت له وصحت محيية :

— أهلا إبراهيم .

ولكن لم يكن لديه القدرة ، أو الرغبة ، فى أن يهش لى بل أجاب فى ضيق وهو يزدرد ريقه كأنه يعانى أزمة :

— راجية . . إنى أريد أن أسر إليك ببضع كلمات . . تعالى . . أرجوك .

وسرت معه حتى وصلنا إلى خميلة فى ركن الحديقة تعوّدنا أن نجلس بها معاً .

وجلس أمامى وقد أخذ يعتصر جبينه كأنما يلح عليه صداع شديد ، وأخيراً أطلق زفرة حارة وقال فى صوت خفيض :

— لست أعرف كيف أبدأ . . أنا أعلم أن ما سأقوله سيكون شديد الوقع عليك . . وأؤكد لك أنه لم يكن هناك أبغض على نفسى من أن أسبب لك ألماً . . ولكنى مع ذلك

أجدنى مجبراً على أن أقول ما سأقول . . لأن مصايرنا ليست بأيدينا . . بل هى فى يد قوة أكبر ترسمها كما تشاء وتوجهها حيثما تشاء . . كنت أود ألا أتخلى عنك أو أخذلك ، وأن نكمل السير فى الطريق معاً . . ولكن القدر يأبى علينا ذلك ، ولابد لنا من الافتراق .

وأقول الحق إن الصدمة كانت مروّعة . كانت مذهلة . ولم تستطع كل المقدمات السابقة أن تمهد لها وتخفف من وقعها.

وهتفت به وأنا مأخوذة مشدوهة :

— لا يا إبراهيم . . لاتقل هذا أرجوك . . نحن لايمكن أن نفترق . . ليس هناك قوة على الأرض تستطيع أن تفرّق بيننا . . ألا تذكر قولك أنك بغيرى لا يمكنك العيش أبداً . . أبداً ؟

وأطرق إبراهيم برأسه وعض على نواجذه :

— أرجوك يا راجية . . كفى عن هذا . . لقد انتهى الأمر . . لا فائدة من الحديث فيه .

— ولكن . . ما السبب ؟ ! قل لى أرجوك !! أرحنى ! ! هل أساء إليك أحد فى المنزل ؟ ! أرجوك . . اشرح لى الأمر فقد يكون هناك حل .

ولكنه لم ينبس ببنت شفة . . كأنما قد أصم أذنيه عن

سماع حديثي ونهض واقفاً وقد بدا على وجهه التجهم والشرود ودون أن ينظر إلىّ . . أو يلق إلىّ تحية وداع . . وجدته قد أدار وجهه وسار متجهاً إلى باب الحديقة . . وخلفنى من فرط الذهول لا أكاد أملك حراكاً ولا نطقاً ، كأننى فى كابوس مزعج وحلم مخيف .

وعندما اختفى عن ناظرى هممت بالعدو وراءه والتعلق به والتوسل إليه ألا يتركنى . . ولكننى لم أفعل . . إذ كنت كالمشلولة .

ولم أبك . . فقد جفت مآقى . . وجفّ كل شئ بى . . حتى كنت أحس أنى شبح يتحرك . . وتسللت إلى حجرتى وكأنما أخشى أن يرانى أحد . . حتى أويت إلى حجرتى وأخفيت رأسى فى الوسادة . . مغمضة عينىّ . . محاولة الفرار من الواقع المروّع . . جاهدة فى وقف تفكيرى ووقف حياتى . . لو كنت أستطيع .

وهكذا انتهى الأمر وذهب كل شئ بلا أدنى سبب . . وبلا أمل فى عودة . . وسحب القدر الأحمق يساره كل ما أعطاه بيمينه . . وخلفنى بالضبط كالهاوية من قمة جبل إلى قاع بئر .

وأغلقت علىّ باب الحجرة ولم أحاول أن أحدث

أحداً .. حتى أنبأتنى «سيدة» بعد ذلك بما حدث له من ذهول، وبسفره مع الدكتور زكى إلى مصر .

وزادت دهشتى .. وأحسست أن أعصابى لم تعد تتحمل أكثر مما تحملت .. وحاولت أن أعزّى نفسى بأن هجره لى لايعدو أن يكون من الأزمة التى أصابته .. وتمنيت لوأستطيع أن أكون بجواره وأن أفعل له شيئاً .

ولكنى كنت أحس أن صلتى به — بعد أن عرف جدى بالفرقة — قد باتت متعذرة إن لم تكن مستحيلة .

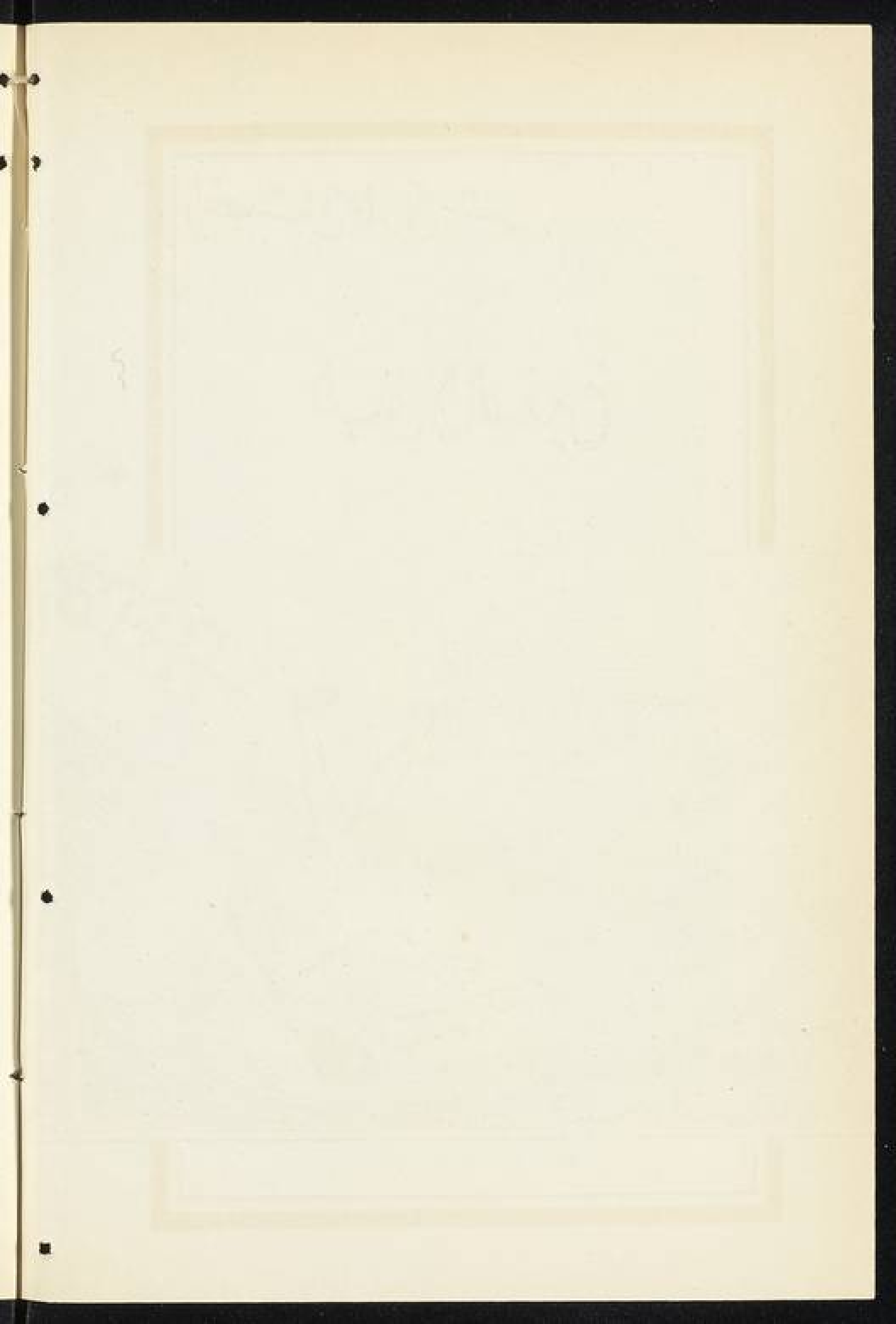
وكنت أخشى أن أواجه جدى طوال الأزمة .. كنت أخشى ثورته .. ولم أقل له أكثر من أننا اختلفنا وافترقنا ، ولكنه كان أكرم مما توقعت .. ورحم ضعفى وانهيارى .. فلم يحاول أن يزيد متاعبى أو يلح فى الأسئلة وقال لى فى رفق :

— كنت أعلم أن هذا الحب المندفع لايمكن أن يكون أساساً متيناً لحياة طويلة مشتركة . هذه أعراض طارئة تصيبنا فى فترة من فترات العمر فلا يجب أن نبنى عليها مستقبلنا بل يجب أن نحكم عقولنا فى كل مايمس مصائرنا . إنه مصيرك وأنت حرة فى تقريره . إنى لن أتدخل ثانية . إنى أحبك ولا أرجو سوى سعادتك ، ولقد أوضحت لك الطريق وأنت أدرى بنفسك وبما يسعدك .. إنها تجربة .. والتجارب خير مايعلم الإنسان .

الفصل الحادى عشر

ليلى الصغيرة





وأخيراً صمتت راجيـة . . وأفاق توفيق إلى نفسه . . بعد أن استغرق فى الاستماع بكل مشاعره ، ونظرت راجيـة إلى ساعتها فإذا بها الثانية عشرة والنصف ، وتمتمت معتذرة وهى تلفظ زفرة حارة :

ــ لقد أضعت وقتك يادكتور ، ولكنك أنت الذى طلبت ذلك . . هــذا هو كل ما حدث . . إنى أحس بشئ من الراحة كأنى لفظت من صدرى جمرات كانت تتأجج به .

وأطرق توفيق برأسه وهو ينقر بقلمه على مكتبه وقال كأنما يحدث نفسه :

ــ عجيبة ! . كنت أظن أول الأمر أن الصدمة حدثت نتيجة شئ وقع بينكما . أقصد ـ بصراحة ـ شيئاً صدر منك .

ــ أنا ؟! إنى منـذ رأيته لم يصدر منى مايخدشه أو يضايقه أقل ضيق ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة التى بدأت أحس تغيره فيها .

ــ ألا يمكن أن يكون قد حدث منــك شئ عن غير قصد ؟

ــ لاأظن ، وإلا أخبرنى به . . أو على الأقل لمّح لى .

ــ ألا تظنى هناك شأناً لجدك أو لعبد الرحمن بالمسألة ؟

— لاشئ مطلقاً .. لقد سألته أنا نفسى .. إذ خطر ببالى أن يكون جدى قد عاد إلى رأيه الأول وأنه ندم على موافقته وأراد أن يفسد مابيننا .. ولكنه أكد أن جدى لادخل له فى الأمر .

— ألا يحتمل أن يكون هناك عنصر دخيل .. أعنى امرأة أخرى ؟!

وبهتت راجية وبدت عليها علائم ألم وضيق ولكنها هزّت رأسها بشدة كأنما تطرد الخاطر من نفسها وقالت فى لهجة جازمة :

— لا .. من أين تأتى المرأة الأخرى وأنا لا أكاد أفارقه لحظة ؟!

— على أية حال .. لابد أن هناك شيئاً .. وهذا الشئ إما أن تكونى أنت محوره .. أو يكون غيرك .. فإذا كنت أنت محوره .. وإذا كان شعوره نحوك مازال كما هو ، وأنه لم يتركك إلا وهو تحت تأثير طارىء لاإرادة له فيه .. فأنا أعتقد أنك وحدك التى تستطيعين شفاءه .. فإذا فرضت أيسر الفروض .. وهو أن ما به صدمة عاطفية .. نتيجة خذلان أو خيبة أو فشل أو غيره وهو ماتستبعدين أنت حدوثه .. كنت مضطراً أن أدخله فى دائرة

الاحتمال . . ولا سيما أنه مخلوق حساس جداً وليس أسهل من خدش شعوره . . وقد يكون فضل الانسحاب أثر الصدمة فى صمت وسكون .

ـ ولكن هذا مستحيل . . أنا واثقة .

ـ أنا أقول إن هذا فرض . . إننا جميعاً نجهل الحقائق المطموسة فى ذهنه . . وليس أمامنا إلا أن نفرض كل الفروض ، ونحاول أن نتمشى مع جميع الاحتمالات . . حتى نتبين الحقيقة ونكشف عنه تلك الظلمات التى تغرقه .

ـ هب هذا الفرض صحيحاً . . ماذا يمكن فعله ؟

ونزع توفيق منظاره وتشاغل بمسحه برهة . . ثم قال :

ـ من رأيى أن أعرضه لصدمة عاطفية أخرى .

ـ كيف ؟

ـ أفاجئه بك فى منظر يثيره .

وتصاعد الدم إلى وجه راجية . . وأطرقت برأسها . . وتمتمت قائلة :

ـ ولكن . . .

ـ هذا مجرّد عرض . . أنت حرّة فى قبوله أو رفضه ، فأنت قد تقدّمت للمساعدة بمحض رغبتك . . وأنت كما أعتقد أكثر الناس حرصاً على شفائه . . والمسألة لن يكون

بها ما يضايقك . . إنها مجرّد تمثيل . . ستقفين هنا مثلا فى هذه الحجرة ومعك أى إنسان وقد تقاربتما فى وضع غرامى يوهم الداخل أن بينكما صلة حب . . فإذا أقبل هو عليكما وأبصركما فى هذا الوضع . . فقد تثار غيرته وتلهب مشاعره وتوقظ عاطفته . . وقد تنفض تلك الانفعالات الحادّة الأتربة المنهالة على ذاكرته وتبدد الغيوم الملبدة فى ذهنه .

وصمتت راجية وهى ما زالت مطرقة برأسها .

وعاد توفيق يسأل :

— ما رأيك ؟

وبدا عليها التردد والحيرة ثم أجابت :

— كما تريد . . إنى أثق بك وإنى على استعداد لأن أفعل كل شئ من أجله .

— هذا حسن ، وأنا أعرف أنه طلب ثقيل ومهمة شاقة. وما كنت لأجرؤ على عرضها عليك لولا يقينى من سعة إدراكك أنها مجرّد محاولة للعلاج والمسألة لن تستغرق أكثر من دقائق .

ودق توفيق الجرس ودخل الخادم فطلب منه أن يدعو الدكتور زكى وأقبل زكى وهو يقول :

— لقد طالت القصة . أرجو أن تكون قد استطعت الوصول إلى شئ .

— سنجرّب أحد الحلول الذى عرضته على الآنسة راجية.

— ما هو ؟

وشرح له توفيق ما اتفقا عليه ثم أردف قائلا :

— لنتفق على موعد . . تحضر فيه راجية . ثم تأتى به أنت فى أعقابها وتدخله فى حجرتى هذه . . عندما أطلب منك . أظن المسألة ستتم بسهولة ، وسأقوم أنا بعمل الرجل الآخر — برغم أنى لا أجيده — حتى تكون التجربة فى أضيق نطاق . . أليس هذا أفضل ؟

وأشارت راجية برأسها علامة الموافقة .

وعاد توفيق يسألها :

— أى موعد يوافقك ؟

— أعتقد أنى أستطيع الحضور غداً فى نفس موعد اليوم . . ألا يناسبكما هذا ؟

— بالتأكيد . سأكون فى الانتظار .

ونهضت راجية وهى تمد يدها مصافحة :

— إذاً أستأذن . وإن شاء الله نلتقى فى الغد .

وقال زكى وهو يسير بجوارها إلى الخارج :

— أتريدين أن أوصلك ؟

— متشكرة جداً . . سأعود بعربة أجرة كما أتيت . .

وأرجوك أن تطلب من الخادم أن يستدعى واحدة .

وهبط كلاهما فى المصعد بعد أن ودعا توفيق ، وعادت هى إلى بيت عمتها . . وعاد هو إلى عيادته .

وفى اليوم التالى قبل العاشرة كانت راجية تدق جرس العيادة وقادها الخادم إلى حجرة توفيق . . وبعد أن تصافحا قالت راجية :

— أظنهما لم يأتيا بعد ؟ ! .

ونظر توفيق إلى الساعة وقال :

— الساعة العاشرة تماماً . . أعتقد أنهما سيصلان خلال ربع الساعة .

وكان اليوم حاراً ذا ريح راكدة ، وأوراق الأشجار ثابتة على الأغصان لاتهتز ولا تتحرك ، والجو فى داخل الحجرة لا يكاد يحتمل .

وأخرجت راجية منديلها ، وأخذت تجفف قطرات عرق تصببت حول عنقها . وقال توفيق وهو يدير مروحة كهربية على مكتبه :

— أظن المروحة قد تلطف الحرارة بعض الشئ . . تفضلى على المقعد الآخر كى لا تتعرضى لتيارها .

وأبدلت راجية مقعدها . . وفى نفس اللحظة طرق

الباب ودخل الدكتور زكى .

ولم تكد تراه حتى همت من مقعدها وقد أصابها اضطراب شديد وسألته فى لهفة :

– هل أحضرته ؟ ! .

– أجل . . إنه يجلس فى الشرفة .

– كيف حاله ؟ .

– كما هو .

وسأله توفيق :

– والحقيبة ؟ .

– مازال يحملها .

ونهض توفيق واتجه إلى أريكة فى مواجهة الباب وأشار لراجية قائلا :

– تفضلى هنا .

ثم أردف موجهاً الحديث إلى زكى :

– سنجلس هنا فى مواجهة الباب وسأمسك بيدها وأجعلها تستند برأسها إلى صدرى وسأبعث بأصابعى فى خصلة شعرها .

ثم سأل راجية :

– أهكذا كان يفعل ؟

وأطرقت راجية رأسها وقد بدا عليها شرود ووجوم .

وعاد يقول لزكى :

ـ اذهب أنت الآن وأحضره .

وخرج زكى إلى الشرفة حيث جلس إبراهيم وقد أخذ يتنقل بعينيه بين النيل والنخيل ومنبسط الخضرة الممتد أمامه على مدى البصر ، وربت زكى كتفه قائلا فى رفق :

ـ هيا بنا .

ولم يجب إبراهيم . .

إلى أين هذه المرة ؟ ! لِمَ لايسأل ؟ ! ماذا يضيره من السؤال ؟ ولكن ما فائدة السؤال . . وهو لايعى شيئاً مما يقال له ؟ ! مافائدة السؤال عن شئ بذاته . . وهو لايدرى شيئاً عن أى شئ .

لا . . لا . . لا فائدة . المهم هو أن يطبق جيداً على هذه الحقيبة . . التى لايدرى لِمَ يحرص عليها .

أجل . . ماذا بها ؟ ! ولماذا يتعلق بها كل هذا التعلق ؟ ! لابد أن بها أشياء هامة . . وإلا لما أطبق عليها هكذا . . إن بها شيئاً خطيراً . . أجل . . أجل .

وكان زكى قد وصل إلى باب الحجرة المغلق . . وطرقه طرقات خفيفة ثم دفعه بيده ، وأشار لإبراهيم أن يتفضل .

وتردد إبراهيم برهة . . لِمَ لايدخل صاحبه أولا . .

لقد تعوّد دائماً أن يتبعه . . ولكن زكى لم يترك له فرصة للتردد وعاد يقول :

— تفضل . . تفضل .

ليتفضل إذاً . . إنه لم يتعوّد المقاومة .

وعبر الباب ومضت لحظة صمت . . وهو يحدق أمامه ، وساد فى الحجرة سكون مطبق . . كاد كل من فيها أن يكتم أنفاسه . . ووسط هذا السكون كان يعلو صوت واحد هو أزيز المروحة الكهربية تلف فى مكانها حتى تبلغ أقصى اليمين ثم تعود إلى أقصى اليسار .

واسترعى الرجل والمرأة الجالسان على الأريكة نظره لحظات قصار وما لبث أن تحوّل انتباهه فجأة إلى صوت الأزيز ولم يعد يحس فى الحجرة سواه .

وببطء وحذر أخذ بصره يتحوّل عن الكائنين المجهولين الجالسين أمامه . . إلى الصوت المريب الذى يئز فى الناحية الأخرى .

وفجأة صرخ صرخة رعب .

لقد وقع بصره على المروحة وأحس بأذرعها تتضخم وتتضخم . . وتقترب منه حتى تطبق عليه وتطويه فى لفاتها الفظيعة ، وأحس بالحجرة تدور حوله بسرعة . . ويصبح

عاليها أسفلها وأسفلها عاليها . . وكان جسده يوشك أن يتحطم ورأسه أن ينفجر .

ومدّ ذراعيه محاولا إتقاء شبح المروحة المطبق عليه . . وسقطت الحقيبة إلى الأرض وفتحت وبدت محتوياتها واضحة للعيـان . .

ووجه زكى بصره بسرعة إلى ما ظهر من محتوياتها . . ثم تقـدم ليسند إبراهيم الذى أوشك أن يتهـاوى إلى الأرض وأجلسه على أحد المقاعد .

وانهارت راجية على الأريكة وقد أصابها يأس قاتل . . ورعب شديد .

كانت مفاجأة عجيبة لم يتوقعها أحد .

لقد كانت صرخته وانفعاله وانهيـاره أمراً متوقعاً . . ولـكن توقعه كان يجب أن يكون نتيجة المنظر المثير الذى أعد لمواجهته .

أما أن يكون ناتجاً من رؤيته المروحة . . فهذا آخر ما كان يخطر على بال أحد .

وكان توفيق أول من تمالك نفسه فنهض بسرعة . . ليلقى نظرة فاحصة على محتويات الحقيبة . . عله يجد بها شيئاً يلقى الضوء على كل هذه المعميات .

وبسرعة فحص مابها . . فزادت به الدهشة .

ما هذه الأشياء الخطيرة التى يحرص عليها هذا المخلوق العجيب ؟ .

« إشارب » ، ونظارة شمس ، وكتاب يبدو أنه قصة كتب عليه بالإنجليزية « حذار من الشفقة » .

أهذا كل ما بالحقيبة ؟ ! أهذا هو ما يحرص عليه ذلك الحرص العجيب ؟ . ومايخشى أن يراه أحد ؟ !

وهمس توفيق لراجية وهو يتساءل فى دهشة :

ـ أهذه الأشياء لك ؟ !

وهزّت راجية رأسها والبكاء يكاد يخنقها وأجابت :

ـ لا .

وأحس توفيق أن راجية قد تحملت أكثر ما تستطيع وأن تجاهل إبراهيم إياها قد سبب لها يأساً فظيعاً .

وربت كتفها وقال هامساً برفق :

ـ أظنك تستطيعين أن تتفضلى بالعودة . . آسف جداً على ما سببته لك ، ولكنى أعتقد أن تعبنا لم يذهب سدى ، دعى الأمر لى . . وسأبذل من أجله كل ما أستطيع من جهد .

وتمتمت راجية وهى تتجه فى انهيار نحو الباب :

ـ لست أظن أن هناك أملا . . لقد نظر إلىّ كأنه لم يرنى من قبل .

— لاتخشى شيئاً ، إن الحالة ليست عسيرة كما تتصورّين . بإذن الله سنتمكن من شفائه . . . اذهبي أنت إلى البيت ، واستريحى ، وعندما نحتاج إلى معونتك سأبلغ الدكتور زكى .

وخرجت راجية . . ووقف زكى ينظر إلى توفيق فى دهشة ويأس وقال :

— ما كل هذا ؟ ! ماعلة ما حدث ؟

— انتظر لحظـــة .

ثم دق الجرس وعندما أقبل الخادم قال له :

— قل « لامتثال » أن تجهز الحقنة .

وانصرف الخـــادم .

وكان إبراهيم قد استقر فى مقعده وتصبب العرق من جبينه وقد بدت عليه علامات الألم ، وراح فى نوبته .

وأمسك زكى بالحقيبة فوضعها بجواره .

ولم يكد يحس بها حتى أطبق عليها . . وأخذت أنفاسه تتلاحق كأنه يعدو فى سباق .

واتجه توفيق إلى دولاب زجاجى فى ركن الغرفة قد صفت به بعض العقاقير وأخرج منه زجاجة فوضعها على المكتب .

وسأله زكى :

— ما هذه ؟

ـ حقنة مخدّرة . . تعطى فى الوريد . . وتجعل المريض فى شبه غيبوبة ، أعنى أنه يكون مانسميه نصف نائم أو «دائخاً» وتجعله يفصح بأشياء كثيرة كامنة فى نفسه لايستطيع الإفصاح عنها وهو فى تمام وعيه .

وأقبلت الممرضة بالحقنة . . وطلب توفيق من زكى أن يساعده على نقل إبراهيم إلى الفراش الصغير حتى يستريح عليه تماماً .

وانتقل إبراهيم إلى الفراش فى استسلام المنهك الخائر القوى . . واستقر عليه فى استكانة واسترخاء .

ودفع توفيق بالإبرة فى ذراعه . . وبعد لحظات كان إبراهيم يقلب رأسه يمنة ويسرة ثم راح فى شبه إغفاءة .

وجذب توفيق مقعداً وجلس بجواره وقال لزكى :

ـ قل للممرّض .. لايدع أحداً يدخل .

وعاد زكى بعد لحظة وجلس على مقعد بجوارهما .

وبدأ توفيق حديثه فى صوت خافت موجها القول لإبراهيم :

ـ كيف حالك الآن ؟ ! أهناك مايضايقك ؟

وبعد فترة صمت أجاب إبراهيم بصوت خافت :

ـ لا .

— أبداً ؟ !

— أبداً !

— ولا المروحة ؟!

واضطرب إبراهيم فى مضجعه وبدا كأنه يعـــانى ألماً شديداً ، وأمسك توفيق يده فربت فوقها برفق وقال :

— لا تخشى شيئاً . . ليس هناك أبداً ما يستدعى كل هذا الذعر . . أنت هنا فى أمان تام .

ومد إبراهيم يديه وكأنه يدفع شبحاً مخيفاً :

— ابعدوها .

— ما هى ؟

— هذه المروحة المخيفة . . ابعدوها . . ابعدوها .

— لقد أبعدناها تماماً . . لم يعد لها أثراً . . وإن كنت لا أجد بها مايستدعى كل هذا الذعر . . ماذا تخشى منها ؟

— إنها هى السبب.

— السبب فى ماذا ؟

— فى كل ماحدث.

— حدث لك ؟

— بل لهـــا .

— من هى ؟

ـ ليلى .

ـ ليلى ! ! من تكون ليلى ؟

ـ ليلى أختى .. ليلى الصغيرة الجميلة .. لقد كان هذا الشبح القائم كالمارد ذو الأذرع الممتدة إلى عنان السماء هو السبب.

ـ أى شبح هذا الذى تعنيه ؟ وما صلته بالمروحة ؟

ـ إنها مروحة هواء . . مروحة ذات أذرع تديرها الريح لرفع المياه من باطن الأرض .

ـ وأين كانت هذه المروحة ؟

ـ فى الصحراء .

ـ وماذا فعلت بأختك ؟

ـ قتلتهـــا .

ـ قتلتهـــا ؟

ـ أجل قتلتها تماماً .

ـ هذه حكاية عجيبة لا يعرفها أحد ؟

ـ لقد مضى عليها زمن طويل .

ـ أتذكرها جيداً ؟

ـ أجل كأنى أراها رأى العين .

ـ قصها علىّ .. قصها بحذافيرها وحاول ألا تنسى شيئاً .

وأخذ إبراهيم شهيقاً طويلا وأخرجه زفيراً أطول ،

وبدأ بصوته الخافت وعينيه نصف المغمضتين يقص القصة العجيبة قائلا :

— كان ذلك منذ عشرات السنين وكنت لم أزل بعد طفلا فى التاسعة . وكانت أختى « ليلى » فى الخامسة من عمرها.. وكان بيننا ما بين كل طفلين من عراك دائم وتنازع مستمر على الدمى والألعاب ، وعلى الطعام والشراب وعلى كل تافهة مشتركة بيننا ، وكنت أشعر فى كل معركة بيننا أن أبى وأمى يخذلانى وينصرانها . . ويؤنبانى ويدللانها ، ولا أكاد أتشابك وإياها من أجل لعبة من اللعب حتى أجد أحدهما انتزعها منى وأعطاها لها صائحاً فى وجهى :

— عيب . . إنها أختك الصغيرة .

ويصيح الآخر مؤيداً :

— قلت لك مائة مرة لا تضايقها . . أنت كبير ويجب عليك أن تكون أعقل من هذا .

ثم يربتان كتفيها ويقبلانها .

وفى خلال هذه المعارك الصبيانية كنت أحس لها بالبغض وكانت كراهيتى لها تتزايد . . عندما أشعر أنها قد انتزعت منى حب والدىّ . . واستأثرت بتدليلهما وعطفهما . وعندما يشتد بى الغيظ أحياناً كنت أتمنى لو لم تولد . . فقد خيل إلىّ

أنى كنت أسعد حالا قبل ولادتها . . وأن كل ما كنت أتمتع به من تدليل ودمى وألعاب قد تحوّل إليها .

وكنا نقضى الصيف فى الاسكندرية عندما ذهب بنا أبى للنزهة ذات يوم فى مكان قرب العامرية يسمى كنجى مريوط .

وإنى أذكره جيداً كما أذكر الطريق إليه . . وقد تفرّع من الطريق الصحراوى وانحدر بين الرمال التى تنبت بها الأزهار البرية . . وعلى جوانبه وقف الصبية يحملون طاقاتها الزاهية يعرضونها على المارة .

وأذكر أن أول ما بدا لى فى المكان مراوح الهواء المتعالية فى الأفق القائمة على الآبار وسط المزارع المتناثرة وبجوار البيوت المتفرقة هنا وهناك .

وسارت بنا العربة وأنا أشير لليلى إلى المراوح كلما مرّت بنا مروحة . . حتى وصلنا أخيراً . . إلى الاستراحة القائمة فى نهاية الطريق .

وكانت الاستراحة أشبه بفندق صغير فى أسفله مقهى تحيط به الأشجار المتكاثفة . . تجرى خلالها قنوات المياه النابعة من الآبار ، وتترامى على مدى البصر حقول الشعير الخضراء تتناثر بها أشجار الزيتون .

وجلس والدينا على منضدة فى الحديقة بين الأشجار

وأخذت أعدو وليلى تلهو مع بقيـــة الصبية المنطلقين فى الحديقة يلعبون بالكرة أو يركبون الحمير .

ونادى أبى الساقى فعدونا لننال نصيبنا من المرطبات وسألنا أبى عما نرغب فطلبت « جلاس » ، وطلبت ليلى « كازوزة » وطلب أبوانا « قهوة » .

وعدت وليلى نواصل اللعب ، ووالدتى تصيح بى :

— خذ بالك من أختك يا إبراهيم .

وعندما عاد الساقى بالطلبات عدنا مرة أخرى ، ومددت يدى آخذ « الجلاس » فصاحت ليلى ، إنها تريده ، ونظرت إليها فى ضيق وقلت لها محذراً :

— لقد طلبت أنت « كازوزة » يا ليلى .. خذى زجاجتك ياحبيبتى .

— ولكن أريد « جلاس » .

وأحسست بحنق يزداد وخشيت أن تصر على عنادها فاختطفت « الجلاس » وأنا أقول لها :

— أنا الذى طلبت « الجلاس » .

وكان الساقى قد فتح الزجاجة ، ولم يكن هناك سبيل إلى إعادتها . وأخذت ليلى تصيح كعادتها فى عناد وإصرار :

— أريد الجلاس .

ووجدت أبى ينظر إلىّ ناهراً ويقول منذراً :

ـ اعطها الجلاس . . ولا تعاندها .

ـ ولكنى أنا الذى طلبته .

ـ لابأس . . خذ أنت الكازوزة . . هذه المرة .

ونظرت إلى ليلى فى ضيق . . وصحت بها :

ـ لماذا لم تطلبى « الجلاس » . . مادمت تريدينه . . لن أعطيك شيئاً .

واشتركت أمى فى المعركة مؤيدة ليلى وقالت :

ـ اسمع كلام أبيك واعطها « الجلاس » .

وكان الجلاس قد بدأ يسيح . . وأخذ ليلى تبكى . فصاح أبى :

ـ اعطها إياه وإلا كسرت رأسك .

ودفعت بالكوب إليها . . وقد بلغ منى الغيظ مبلغه . وصحت بها :

ـ خذى « إن شا الله تموتى » .

وهكذا كان الحال فى كل شئ . . كنت أستسلم فى النهاية ، مفرجاً عن غيظى بدعوتى عليها أن تموت .

لم أكن أكره ليلى ، ولكن أبواى بتدليلهما إياها أثارا فى نفسى البغضاء والكراهية .

ولم نكد ننتهى مما فى أيدينا حتى كنت قد تناسيت الأمر برمته . . وأقبلت على ليلى أعدو وإياها لاهين .

ومرّ بنا أحد « الحمير » التى يؤجرها أصحابها للمتنزهين فصحت بوالدتى أسألها أن تركبنى « حماراً » .

وكانت تتشاغل ببعض أعمال الإبرة فى يديها فأجابتنى ناهرة دون أن ترفع رأسها :

— ألا تكف لحظة عن الطلبات ! ! إذهب وخذ بالك من أختك .

— كل الأولاد يركبون الحمير . . لِمَ لا أركب أنا ؟

وكان الرجل قد اقترب منا . . فأخذت ألح عليها ولم تجد بداً من الموافقة تخلصاً من الإلحاح فقالت للرجل :

— دعه يركب .

وهنا صاحت ليلى :

— وأنا يا ماما ؟

وأجابت أمى :

— وأنت أيضاً اركبى .

وعدونا كلانا إلى « الحمار » . وصاحت ليلى :

— أنا أركب الأول .

وعادت المجادلة مرة أخرى فصحت بها :

ــ أنا الذى قلت الأول . . وسأركب الأول .

وفى هذا قضى الرجل صاحب « الحمـــار » الخلاف قبل أن يستفحل فقد قال مهدئاً :

ــ لاتتعاركا . . اركبا أنتما معاً .

ورفعها أولا ثم رفعنى وراءها وسار بنا ووالدتى تصيح محذرة التحذير الدائم :

ــ لاتبعدا كثيراً . . وحافظ على ليلى .

وعندما ابتعدنا عن أبوينا واختفينا عن نظريهما فى أول منعطف بين الشجر قلت للرجل وأنا أضرب الحمار بساق :

ــ دعه يجرى .

وبدأ « الحمار » فى العدو عندما صاحت ليلى مذعورة :

ــ يا ماما . .

وقلت لها مهدئاً :

ــ لا تخافى ياليلى إنى ممسك بك .

ولـكنها استمرت فى الاستغاثة والصياح ، فاضطر الرجل إلى تهدئة سير الحمار .

ووجدتنى أضغط على نواجذى فى غيظ وقلت لها :

ــ إذاً انزلى برهـة . . ودعينى أجرى . . ما دمت تخشين الجرى .

وأجابت فى عناد كعادتها :

— لا . . لن أنزل .

وكان شوقى إلى العدو « بالحمار » قد بلغ حداً لايعادله إلا غيظى من ليلى وحاولت أن أرجوها فى هدوء فقلت لها متوسلا :

— يا ليلى يا حبيبتى . . كونى لطيفة . . انزلى برهة . . وسأجعلك تركبين ثانية .

ولكنها تمادت فى عنادها .

ولم أجد بداً من خداعها والضحك عليها . . فقلت لها وأنا أشير إلى مروحة هواء مركبة على بئر فى مزرعة ملاصقة للمقهى :

— أنظرى يا ليلى . . ألم تشاهدى هذه العروس التى تغمض وتفتح عينيها ؟

ولم يكن هناك أحب إليها من حديث العرائس فالتفتت إلىّ وسألت فى لهفة :

— أين هى ؟

— هناك بجوار المروحة .

— إنى لا أراها .

— إنها فوق .

– وكيف أتوصل إليها ؟

– إذا ماصعدت على السلم . . أمكنك رؤيتها .

– إذاً دعنى أنزل . . إنى أريد مشاهدتها .

وأحسست بفرحة الانتصار .. وفى غمضة عين كانت ليلى على الأرض تعدو إلى الطاحونة ، وكنت أنا أعدو « بالحمار » .

ولففت به لفة ثم عدت إلى حيث كنت ونظرت إلى أعلى .. ولشدة ما كانت دهشتى إذ وجدت ليـلى مستمرة فى الصعود فوق الهيـكل الحديدى المرتفع وقد أوشكت أن تبلغ القمة .

وتملكنى عليها ذعر شديد وصحت أناديها .

وعندما بلغتها صيحتى وجدتهـا تتلفت إلىّ . . ولم يكد بصرها يقع على الأرض فى أسفلهـا . . وتدرك العلو الشاهق الذى بلغته وتحس بتعلقها فى الهواء حتى أصابها اضطراب شديد ، وخارت قواها ، ودارت رأسها . . فصرخت صرخة فزع مدوية وأفلتت قدمها من حديد السلم فهوت من أعلى .

وأغمضت عينى وسقطت من فوق الحمـــار واندفعت أعدو إليها .

وإنى لأذكر منظرها وقتذاك وهى ملقاة على الأرض وقد تهشم رأسها وسال الدم مـن فمها فأحس أن شيئاً فى جوفى يكاد يهبط إلى أسفل . . وأن يداً تطبق على عنقى ، وكأنها تزهق أنفاسى .

ومن العبث أن أذكر مبلغ ارتياعى وفجيعتى .. وإحساسى بالجرم .. كنت أشعر فى قرارة نفسى أنى قتلتها . . ألم أدفعها إلى الطاحونة ؟! ألم أزين لها الصعود ؟ . ألم أصح بها بعد ذلك وهى معلقة فى قمتها . . فجعلتها تنظر إلىّ وتهوى إلى الأرض .. وفوق ذلك كله .. ألم أكن أحس ببغض لها عندما تتعارك ، وأتمنى فى كثير من الأحيان لو لم تولد ! ! ألم أدع عليها منذ بضع دقائق قائلا :

« إن شا الله تموتى » .

كل هذا كان يملأ قلبى شعوراً بالذنب .

وأحسست فى تلك اللحظة بمبلغ حبى لها . . وتمنيت لو أمكننى استردادها ثانية . . وإعادتها لتلهو معى ، ومنعها من أن تذهب وتتركنى وحدى . . وتمنيت لو استطعت أن أفتديها بعمرى . . وأن أموت أنا وتبقى هى .

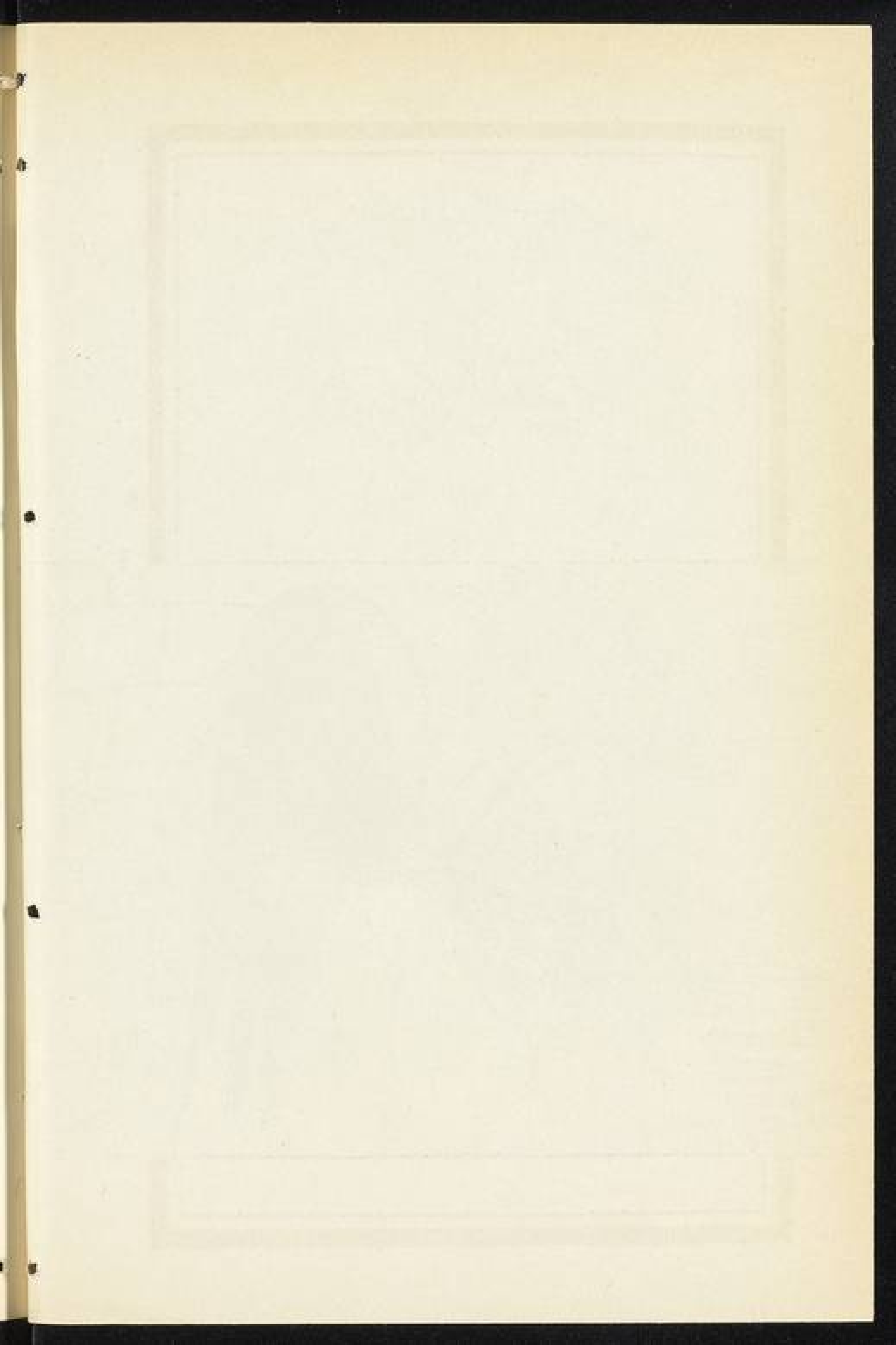
ولكن كل هذا لم يجد شيئاً . . وماتت ليلى . . وحملها أبواى اللذان روّعتهما الصدمة وتركتهما مشدوهين مذهولين وذهبت أسير وراءها خافض الرأس ذليلا حزيناً محسوراً .

ذهبنا كلنا وبقيت المروحة ، كما هى ، باسطة ذراعيها إلى عنان السماء كأنها مارد مخيف .

الفصل الثانى عشر

نائم بين القبور





وصمت إبراهيم وبدت على وجهه علامات الألم والإرهاق الشديد .

وهزّ توفيق رأسه فى دهشة ، وانتظر برهة ثم قال فى صوت خافت :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

ولم يجب إبراهيم وأطلق من صدره زفرة ضيق .

وانتظر توفيق فترة أخرى ثم عاد يسأل :

— تذكر . . أهذا كل ما يخيفك من المروحة ؟ ! إنها حكاية قديمة جداً . . ماذا أثارها فى ذاكرتك ؟ ! ما الذى أيقظها ثانية ؟ تذكر . . .

وتململ إبراهيم وقال فى شبه همس :

— أنا متعب جداً .

— كفى هذا . . إذاً . . لاداعى لأن ترهق نفسك . . استرح . . .

ثم تلفت إلى زكى وقلب شفته السفلى ورفع كتفيه فى شئ من الخذلان ثم أشار إليه برأسه .

ونهض الاثنان إلى ناحية المكتب بعيداً عن إبراهيم .

وقال توفيق :

— عجيبة !! يبدو لى أن المسألة تتعقد أكثر .

— ولكن كل ما قال لاصلة له بالموضوع .

— كيف ؟ . . إنه هو نفسه الموضوع . . إنى أعتقد جازماً . أن هذه الحالة التى أصابته فى طفولته هى التى سببت له العقدة الأولى . . إنها هى الداء الكامن فى نفسه من قديم العمر . . ولكنى أعتقد أيضاً أنه لابد أن هناك ما أيقظها . . فقد كان ممكناً أن تبقى كامنة إلى ماشاء الله . . ولكن شيئاً جديداً أثارها .

— وما هو ؟!

— من يدرى .

— ولِمَ لانسأله ؟

— لا . . لن يقول شيئاً . . لقد استنفدت كل قواه .

— أتظن أنه يمكن أن يفصح عنها فى مرة ثانية ؟

— الله وحده أعلم . . المسألة كما قلت لك معقدة جداً .

— أتقصد أنه ليس هناك أمل ؟

— لم أقل هذا . . ولكنها تحتاج إلى جهد كبير . . هناك أشياء كثيرة مجهولة . . لا أظنه سيفصح عنها . . لابد أن يكون قد وقع له من الأحداث فى الفترة الأخيرة ما أهيج كامن مشاعره . إن الفترة التى قضاها فى الإسكندرية يجب

أن تبحث جيداً .

ـ وكيف يمكن بحثها ؟

وبدا التردد على توفيق وصمت برهة ثم أجاب :

ـ كنت أود أن نسافر به إلى الاسكندرية . . حيث مسرح الأحداث نفسه . . إذ يخيل لى أن الوسائل هناك قد تكون أفضل ، ولكنى فى هذه الفترة مشغول جداً . . لدىّ بعض المرضى الذين أتولى علاجهم . . ومن العسير علىّ تركهم فى هذه المرحلة من العلاج . . ولذا فإنى أرى أن نقتصر على علاجه هنا . . وأن نحدد له ثلاث جلسات فى الأسبوع . . والمسألة تحتاج إلى بعض الصبر والتؤدة . . وكل شئ يحل مع الزمن .

ولم يبد على زكى الاقتناع وقال فى رجاء واستعطاف :

ـ أنا أعلم أنى قد أثقلت عليك . . ولكنى لا أحدثك كطبيب أو كزميل . . بل أحدثك كأخ . . إن إبراهيم عزيز علىّ كنفسى . . وأرجو ألا تعتبره مجرد مريض ، بل اعتبره أخاً لك كما هو أخ لى . . إن مسألته لا تحتمل الصبر والتؤدة ما دامت أمامنا وسيلة . . فلمَ لا نطرقها . . إن مرضاك يمكن الصبر عليهم بعض الوقت .

وبدا الحرج على وجه توفيق وأخذ ينقر بإصبعه على

المكتب ثم قال أخيراً :

— أعدك بأن أحاول جهدى . . اترك لى فرصة حتى أرى إذا كنت أستطيع أن أدبر أمرى .

— إنى واثق أنك ستستطيع ، سأتصل بك فى الغد فى مثل هذا الوقت لأسمع موافقتك على السفر ولكى نحدد موعداً له.

— إن شاء الله سأبذل جهدى .

وكان إبراهيم قد بدأ يفتح عينيه ونهض من الفراش فى تثاقل . . وكان أول مافعل أن مدّ يده فاختطف الحقيبة التى كانت مستقرة بجواره وأطبق عليها بذراعه ثم تلفت حوله فى دهشة .

وأخذ ينفض عن رأسه مايثقلها واستطاع أن يميز صاحبه فشعر بشئ من الطمأنينة . . كما يحس الأعمى عندما يتحسس عصاه . . ولمَ لا ؟ ! أليس هو العصا التى تقوده ؟ ! ألم يتعوّد أن يتبعه إلى حيث يذهب دون أن يسأله أو يعلم منه ما الغرض من كل هذا التنقل ؟ !

واقترب منه صاحبه وبجواره الرجل الآخر الضئيل الحجم ذو العوينات السميكة .

وتأبط صاحبه ذراعه ومد الآخر يده لمصافحته .

إذاً فهو سيترك المكان . . أجل . . لا شك فى هذا . .

ومد يداً للمصافحة وأخرى للتأبط واتجه خارج الحجرة وهو يرد على مودعه بتمتمته غير المفهومة .

وبعد الظهر عاد توفيق إلى عيادته ليستقبل مرضاه . . وذهنه لم يستقر بعد على رأى .

إن به حتماً رغبة أكيدة فى علاج إبراهيم . . فهو يقدّره ويحبه . . ويكره أن يضيع عبقرى مثله . . ولكنه أيضاً لا يستطيع ترك مرضاه والتنقل فى الاسكندرية ليستقصى أسباب العلة . . كأنه مخبر سرى . . إن واجبه كطبيب نفسانى لايحتم عليه ذلك . . إن ذلك أكثر مما يطلب منه كطبيب .

وجلس على مكتبه . . وطلب المريض الأول .

وفتح الباب . . ولم يدخل أحد المرضى بل دخلت راجية .

وبدت عليه الدهشة وسألها وهو يمسح منظاره محاولا إخفاء دهشه :

— خيراً . . .

— إنى آسفة جداً لإزعاجك وإضاعة وقتك . . ولكنى أرجوك أن تعتبرنى أنا الأخرى إحدى مرضاك . لقد سألتنى فى أول الأمر معاونتك . . ولقد بذلت كل ما أستطيع . . وأنا الآن أسألك معاونتى .

— ليس هناك قط ما يدعو لهذا الاعتذار . . إنى أحب

معاونتك من كل قلبى . . ماذا تريدين ؟

— لقد عرفت من الدكتور زكى كل ما حدث . . وسمعت منه قصة ليلى والمروحة . . وعلمت أن هناك عقدة كامنة فى إبراهيم أثارتها حوادث جديدة ، وأن العلاج قد يكون أتم لو سافرنا إلى الإسكندرية وأنت معنا . . ثم علمت أنك متردد فى السفر .

— ليست المسألة مسألة تردد . . ولكنها ارتباط بواجبى نحو مرضاى الآخرين .

— إنى أتوسل إليك يا دكتور . . لقد سمعت منى كل قصتى معه . . سمعت منى ما لم أجسر على قوله لأحد . . لأنك بعثت فى نفسى الثقة . . فأرجو ألا تتخلى عنى . انقذه من أجلى . . إن حياتى معلقة به . لاتدع القدر يحطمنى . . ويبدد أمانىّ .

ولم تستطع أن تكبت دموعها . . فانسابت من عينيها وأخذت ترتجف أمام الطبيب .

ونهض الرجل الطبيب الرقيق فربت كتفها فى حنو قائلا :

— كفى . . كفى هذا . . لاتخشى شيئاً . . سأذهب معك ولن أتركه حتى أسلمه لك معافياً بإذن الله . . إنك فتاة تستحق أن يكافح الإنسان من أجلها . . كفى عن البكاء . .

إنك ـ بإيمانك ووفائك ـ أقوى من أن تسيل لك عبرة .

وفى خلال يومين كان الجميع قد عادوا إلى السيوف أو إلى مسرح الأحداث .

وبدأت أولى محاولات توفيق مع إبراهيم .

طلب توفيق من راجية أن تحضر له المسجل . . وقبيل المغرب حملت « سيدة » الجهاز وهبطت راجية من حجرتها تتبعها إلى الخارج ولمحها الجد وقد جلس فى حجرة المكتب مع عبد الرحمن الذى انهمك فى بحث بعض الأوراق وصاح بها الجد متسائلا :

ـ إلى أين ياراجية ؟

ـ سنحمل المسجل إلى بيت إبراهيم .

ـ ولمه ؟

ـ لقد طلبه الطبيب المعالج حتى يجرى به على إبراهيم بعض المحاولات .

ـ ولماذا لا ترسلينه مع سيدة ؟

ـ لقد طلب منى الدكتور الحضور .

ـ ولكن . . أتظنين من اللائق بعد ما حدث أن يراك الناس تترددين على بيته ؟

ـ لن يرانى أحد ياجدى . . وإنى غير ذاهبة للتسلية ،

أو اللهو .. إنى أحاول أن أساعده فى محنته ، وأعتقد أن هذا واجب علىّ .

– تقصدين أنه كان واجباً عليك ؟

– وما زال . . .

– ليس هناك ما يحتم عليك الذهاب إليه .. وليس هناك أبداً ما يبرر صلتك به بعد أن فكت خطبتكما .. وعقول الناس لا تفهم غير ذلك وألسنتهم لا ترحم أحداً .

– لا يهمنى الناس ياجدى .. إنى أفعل ما أراه صوابا ، وليقولوا مايشاءون . إن إبراهيم مصاب وأنا أملك له بعض المعونة .. فليس من المعقول أن أمنعها عنه لأنى أخشى كلام الناس .. إنها مسألة إنسانية بحتة .. إن الإنسان يجب أن يقدم للمرضى كل ما يملك من معونة .. ولو لم يكن له بهم أدنى صلة .

وبدأ الجد يفقد هدوءه وقال فى حدة :

– لا تكونى عنيدة ياراجية .. ألم يكفك ما حدث ؟ لو سمعت نصيحتى من أول الأمر لما . . .

ولم يكن عبد الرحمن قد نبس ببنت شفة ولكنه عندما وجد أن جده بدأ يثور وأنه يوشك أن يخوض فى حديث مثير لن ينتهى .. بدأ تدخله مقاطعاً جده :

— دعها وشأنها ياجدى . . إن إبراهيم محطم منهار . . ويجب أن نقدم كلنا ما استطعنا من مساعدة . . إنه إنسان لم يسىء إلينا ولم يخطىء فى حقنا . . ولا يستطيع أحد أن يعرف الظروف المحيطة به .

— ولكن يا عبد الرحمن . . يجب أن تفهم راجية . . أن الوضع . . .

— إنها تفهم كل شئ . . راجية ليست صغيرة . . إنها إنسانة عاقلة ولقد قلت لها إن التجارب خير معلم لها ، فدعها وشأنها . . خذ هذا حساب السندات الأخيرة التى اشتريناها من شركة الحرير .

وأنهى عبد الرحمن بهذا الحديث مع راجية وأفلتت راجية وراء سيدة إلى بيت إبراهيم .

وكان توفيق قد جلس فى الشرفة وفى الداخل جلس ابراهيم بحقيبته على إحدى الأرائك بجوار الدكتور زكى وقد بدت عليه السكينة والهدوء .

وأشار توفيق لسيدة بأن تضع المسجل فوق منضدة فى الشرفة . وقال لراجية :

— أأحضرت الشريط الذى سجل عليه حديثكما ؟

— أجل . . هذا هو .

ثم أخرجته من صندوق صغير للأشرطة .

— أرجوك إذاً أن تبدئى بإذاعته . . دعى الصوت خفيضاً حتى لا يصدمه .

— إن الشريط يبدأ باللحن الذى سجله أولا فهل أذيعه كله ؟

— أجل . . لا بد من إذاعته . . حتى يهيىء لنا الجو المطلوب ويمهد للحديث .

ووضعت راجية الشريط . . وبعد لحظة علا اللحن رقيقاً خفيضاً .

ووصل اللحن إلى مسامع ابراهيم . . وأخذ فى الانتباه واليقظة . . وأرهف أذنيه . . وأحس براحة لذيذة واللحن ينساب فى نفسه .

هذا لحن جميل . . إنه ليس غريب على مسامعه . . إنه حبيب إليه . . وأراح رأسه على ظهر الأريكة وأغمض عينيه فى متعة .

وانتهى اللحن . . ومضت فترة وهو فى استرخاء لذيذ ، حتى سمع فجأة صوتاً يهتف :

— أين أنا ؟

وصوتاً آخر يجيب :

ــ بين ذراعى .

وتملكته رجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

واستمر الحديث ، وازدرد ريقه وكأن فى حلقه غصة . وتوترت أعصابه . . وتلاحقت أنفاسه . . وحاول أن يصم مسامعه عن الصوت المندفع إليه . . ولكنها زادت إرهافاً وأخذت تلتقط الألفاظ المنسابة فى وضوح :

ــ راجية . . أتحبينى ؟! قوليها لى فإنى أحب أن أسمعها من شفتيك .

وازداد توتر أعصابه وأحس بشئ يعتصر فى باطنه فيسبب له ألماً شديداً . . وحاول مرة أخرى أن يبعد مسامعه عن الصوت . . ولكنه ازداد وضوحاً :

ــ لم يعد لى غنى عنك لحظة واحدة .

ووجد نفسه يعدو لاهثاً والصوت يلاحقه كأنه المطارق تهاوى على رأسه :

ــ بغيرك . . لاأستطيع أن أعيش . . أبداً . . أبداً .

واستمرت المطارق تهوى عليه :

ــ أبداً . . أبداً .

وندت عنه صرخة مروّعة وهو يصيح :

ــ كفى . . كفى .

وأسرعت راجية فأوقفت الجهاز .

واستغرق إبراهيم فى نوبته . . وتصبب العرق من جبينه وهو يعدو بين الرمال . . هارباً من شئ . . أو عادياً وراء مجهول . . وخيم عليه الضباب وتلاطمت حوله الأمواج .

وهز توفيق رأسه وقال :

ـــ لا فائدة . . أعيدى الجهاز ياسيدة .

وأخفت راجية وجهها بين كفيها واهتز جسدها بالبكاء وأقبل عليها توفيق مهدئاً :

ـــ لا داعى لهذا . . إنها مجرد محاولة . . أمامنا غيرها ، محاولات أخرى كثيرة .

وتوالت المحاولات بعد ذلك . . وتوالى الإخفاق . . وازداد اليأس ، وحاولت راجية جهدها . . أن تستعيد إلى نفسه ذكرياتهما معاً . . فصحبته إلى كل مكان كان لهما به ذكرى محببة . . قال عنها إنها ستخلد فى نفسه . . صحبته إلى الشاطىء . . وإلى المتنزه النائى بجوار الحقول . . وإلى الحدائق ، وإلى معرض الرسم .

ولكن كل ذلك ذهب سدى . . كان يتحرك كأنه آلة صماء . . لا وعى ولا فهم ولا إدراك . . لاشئ سوى

الاستسلام المطلق والشرود والذهول .. والإطباق على الحقيبة ذات المحتويات التافهة .

وذات صباح جلس توفيق فى الحديقة وأقبل مدبولى يحمل الشـاى .

وجرى حديث بينهما أشبه بالثرثرة .. « والدردشـة » .

قال توفيق متلطفاً مع الرجل وهو يصب له الشاى :

— كيف الحـال ياعم مدبولى ؟

— والله ردىء يا سيدى الدكتور .. كلمـا رأيت سيدى إبراهـيم وهو على حاله هذه أحسست أن سكيناً يمزق أحشـائى .. سيدى إبراهيم الرجل الطيب الأمـير يحدث له هـذا ؟! أمعقول أنه لايعرفنى ؟ عشرة هـذه السنين الطوال ؟ ثم ينظر إلىّ وكأنه ينظر إلى خادم غريب .. ومن غير سبب !!

— ليس هنـاك شىء من غير سبب يا مدبولى .. لابد أن يكون هناك سبب .

— والله يا سـيدى من غير سبب .. لم يحدث له شئ أبداً .. ولا حاول أحد أن يزعجه أو يضايقه .. لقد كان « مبسوطاً » أربعة وعشرين قيراطاً ، وما أظننى رأيته فى حياتى أسعد مما رأيته هنا .

— أكان سعيداً طول المدة ؟

— أجل . . عدا الفترة التى ردّه فيها سيدى عبد الوهاب ولكن الأزمة ما لبثت أن انفرجت وأضحى كل شئ على ما يرام . . وظل يرتع هو وسيدتى راجية . . كأنهما طفلان صغيران يلهوان . . حتى بدأت تظهر عليه علامات ذهول وشرود .

— منذ متى لاحظت هذا ؟

— قبل إصابته بيوم أو يومين . . ولكننى لم ألق إليه بالا . . فإنى أعرف أنها فترات يغرق فيها فى ذهوله . . ويقول لى إن الوحى يهبط عليه . . . وقد ظننت أنها نوبات وحى كما كان يقول لى . . ولم أدرك أنها بوادر كارثة ستحل بنا ، حتى وقعت الواقعة . . إنها ياسيدى « عين أصابته » .

— ومتى رأيته أول مرة على حاله هذه ؟

— فى الصباح . . وقد أقبل علىّ شاحب الوجه زائغ البصر يضم الحقيبة تحت إبطه .

— وأين كانت الحقيبة ؟

— لا أعرف .

— ألم ترها من قبل ؟

— أبداً . . ولا أدرى عنها شيئاً . . إنها لم تصل إلى يده

إلا هذا الصباح لأنى عندما أعددت له الفراش فى الليلة السابقة لم يكن لها أثر .

– إذن من أين أتى بها ؟

– من يدرى .

– ألم يزركم أحد ؟

– مطلقاً .

– أواثق أنت ؟

– لقد كنت آخر من نام فى الدار . . وأغلقت الباب بيدى هذه .

– إذاً فكيف وصلت إليه ؟

– ربما قد أتى بها من الخارج .

– متى ؟ . إذا كان قد نام وليس لها أثر ، فكيف يأتى بها من الخارج ؟

– فى الصباح وهو يستريض كعادته . . ربما وجدها فى الطريق أو على الشاطىء .

– أكان عائداً من الخارج عندما رأيته ؟

– أجل .

– أمن عادته الخروج كل صباح ؟

– تقريباً . . إنه دائماً يستيقظ مبكراً . . ومنذ أن

حضر نا إلى هنا . . تعوّد أن يرتدى القميص والبنطلون وحذاء خفيفاً . . ويخرج للسير أو للسباحة ثم يعود بعد ذلك للإفطار .

— وماذا فعل فى هذا اليوم ؟

— خرج كعادته .

— أرأيته عند الخروج ؟

— لا . . لقد خرج قبل أن أستيقظ .

— وهل كان يبكر دائماً فى الخروج كما بكر فى هذا الصباح؟

— غالباً . . فأنا لا أراه إلا حين عودته ، وقد أعددت له الشاى والإفطار .

— ألديك فكرة عما كان يفعله فى خروجه ؟

— لاشئ أكثر من المشى أو السباحة .

— فى أى جهة ؟

— ليست لديه جهة معلومة . . أحياناً يسير بين الحقول ، وأحياناً يتجه إلى الشاطىء وهو يحب السير الطويل . . لقد خرجت معه ذات مساء وسار بى حتى خارت قواى ولم تكد تحتملنى قدماى .

— وفى اليوم الذى حدثت فيه الإصابة . . هل تدرى إلى أين ذهب ؟

ـ والله لا أعرف بالضبط . . ولكنى أظن أنه منذ بضعة أيام قال لى من باب التفاخر : أتدرى إلى أين ذهبت اليوم يامدبولى ؟ فلما أجبته بأنى لا أعرف . قال : حذر . . وظل يسألنى حتى قال لى أخيراً أنه ذهب إلى . . إلى . . . .

ـ إلى أين . . ؟ ! .

ـ إلى . . إلى . . لقد كنت أذكره .

ـ حاول أن تتذكر .

ـ ولكنى لست واثقاً أنه كان هناك فى هذا اليوم .

ـ لابأس . . ليس هذا مهم . . تذكر .

ـ إلى . . إلى . . اسم غريب . . كان اسم طير . . أجل . . أجل . . تذكرت . . إلى العصافير .

ـ تقصد . . العصافرة ؟

ـ أجل بالضبط العصافرة . . لقد سار إلى هناك .

وفى تلك اللحظة أقبل الدكتور زكى وتناول مقعداً ، وجلس بجوار توفيق وتساءل مدبولى :

ـ أأحضر لك شاياً يا سيدى ؟

ـ لا . . متشكر .

وحمل مدبولى أدوات الشاى وعاد إلى الدار .

وقال توفيق :

– كنت أتحدث مع مدبولى وعلمت منه أن إبراهيم كان يستريض على الشاطىء صبيحة ذلك اليوم الذى أصيب فيه .

– وماذا فى ذلك ؟

– لقد عاد ومعه الحقيبة وهو فى حالة الذهول التى أصابته .

– أتظن قد حدث له فى أثناء سيره ما يمكن أن يكون له علاقة بالحادثة ؟

– ولِمَ لا !

– ولكن كيف يمكن أن تعرف ما حدث له ، والشاطىء طويل لا حدود له ؟

– لقد قال مدبولى أنه منذ بضعة أيام سار إلى العصافرة .

– وماذا يفيدنا من ذلك ؟

– من يدرى . . على أية حال . . لست أرى ضرراً من الوصول إلى هناك والسير على الشاطىء . . ألديك مانع ؟

– أبداً .

* * *

وفى صباح اليوم التالى استيقظ الاثنان مبكرين وقاد زكى عربته وبجواره توفيق . وتحركت العربة من السيوف فعبرت تقاطع شارع أبى قير عند « الكوبرى » الواقف عنده

عسكرى المرور ثم اتجها إلى فيكتوريا عابرين مزلقان السكة الحديدية ثم دارا يميناً حول كلية فيكتوريا حتى وصلا الشاطىء واتجها إلى سيدى بشر وتجاوزاه حتى بلغا أحد أكشاك السواحل وبدأ زكى يتمهل بالعربة حتى وقف وهو يقول :

— أظن هذه هى العصافرة ؟

وقرأ توفيق اللافتة :

— أجل هنا .

ثم تلفت كل منهما حوله وقال زكى :

— لست أجد مايسترعى الالتفات .

— دعنا نترك العربة ونجول قليلا .

وهبطا من العربة وكانت الريح شديدة تقذف بالموج متعالياً نحو الشاطىء فلا يلبث أن تتكسر حدته وينبسط فوق الرمال .

وكاد المكان يكون خالياً إلا من جندى الشاطىء بمنظره العتيق وحزامه ذى الطاسة النحاسية العريضة .

ولم يطل بهما السير حتى عادا إلى العربة وقال زكى فى يأس :

— لا فائدة . . ماذا يمكن أن نجد على الأمواج أو بين

الرمال ، وركب توفيق بجواره فى صمت ، وهمّ زكى بأن يدير اتجاه العربة للعودة ولكن توفيق قال له :

— دعنا نسير قليلا . .

وسارت العربة فى اتجاه المنـــتزه . . وقال زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :

— حكاية عجيبة !! لست أدرى لها علة . . حتى الحقيبة التى كنا نظن من فرط حرصه عليها أن بها سراً . . اتضح أن لا بها . . ولا عليها . . نظارة شمس و « أشارب » .

— ولكن ترى لمن تكون ؟

— ظننتها فى أول الأمر لراجية كما ظننت أنت ، ولكنها قالت إنها لم يسبق لها أن رأتها .

— يبدو لى أن فى المسألة . . امرأة أخرى . . وإلا فمن أين له بالحقيبة ؟

— ربما وجدها على الشاطىء .

— ربمـــا ؟

واستغرق الاثنان فى صمت لم يلبث أن قطعه زكى بقوله :

— من ناحيتى أنا . . يخيل إلىّ فى كثير من الأحيان أن جد راجية . . قد يكون له دخل فى المسألة . . أنا أعرف إبراهيم جيداً . . أعرفه إنساناً فى منتهى الحساسية . . أتذكر

ما قلته لك عن ضميره الحى المرهف .. الذى يأبى دائماً إلا أن يثقل عليه ويظهره بمظهر المقصر الذى كان يمكنه أن يفعل خيراً مما فعل .. ويحمله وزر كل سيئة تصيب من حوله ويجعله دائم القلق خشية أن يكون قد تسبب فى شقاء أحد أو خذلان أحد .. أتذكر هذا ؟

ــ أجل أذكره .

ــ يخيل لى أنه يحتمل جداً أن يكون فى أحد أحاديثه مع جد راجية .. قد فهم منه أنه قد أضاع مستقبلها .. وأنه حرمها حياة أفضل .. ولذلك صمم أن يتركها .. ولم يحتمل التضحية فأصابته الصدمة التى أصابته .

ــ تعليل معقول .. ولكن مادخل الحقيبة ؟! وماسبب حرصه العجيب عليها ؟!

وهز زكى رأسه فى حيرة .. وعاد توفيق يتساءل :

ــ والمروحة .. ما سر هذا الخوف الفظيع منها ؟

ــ ألم تفسره أنت بحادث أخته ؟

ــ أجل .. ولكن هذه عقدة قديمة .. لابد أن يكون قد أثارها شئ جديد ... ماهو هذا الشئ .. الذى جعله ينهار تماماً .. والذى جدد خوفه القديم من المروحة ؟

وكانت العربة قد بلغت المندرة وأوشك زكى أن يدير

العربة للعودة عندما أمسك توفيق بيده فجأة وصاح به :

— قف .

وسأله زكى فى دهشة :

— لِمَ ؟

— أنظر ! ! ألا ترى ؟

— ماذا ؟

— هذه الطاحونة القديمة.

وعلى ربوة عالية كانت تستقر إحدى طواحين الهواء مواجهة الشاطىء وقد تعالى بناؤها الحجرى العتيق باسطاً ذراعيه ـ كما قال إبراهيم ـ إلى السماء . . كأنها مارد مخيف .

وهبط توفيق من العربة قائلا :

— تعال .

— إلى أين ؟

— نرى هذه الطاحونة . . . فقد يكون بها ما أزعج صاحبنا .

وهزّ زكى رأسه فى دهشة وهو يتبع توفيق وتمتم قائلا :

— لست أرى بها أى سبب للإزعاج .

وأخذا يخوضان فى الرمال التى تناثرت فيها الحشائش البرية والصبار . . متجهان نحو الطاحونة وقد بدت حولها هيا كل

مقابر قديمة . . أخنى الزمن على قوائمها فتهاوت وتآكلت .

وبدا المكان خرباً موحشاً والريح تنفذ خلال أذرع المروحة الخشبية التي بلى قماشها وتمزق . . فتصدر من خلاله صفيراً أشبه بالنواح . . حتى بدت الطاحونة العجوز أشبه بثكلى بين القبور .

ووصلا إلى بابها بعد أن دارا حولها دورة قصيرة . . ووقف زكي أمام الباب المغلق متسائلا :

ـ أترى يسكنها أحد ؟

ـ دعنا نرى .

وطرق الباب بقبضة يده . . وتجاوبت في الربوة الخالية صدى الطرقات . وبعد برهة صدر من وراء الباب صوت أجش يهتف متسائلا :

ـ من هناك ؟

ـ أنا . . افتح يا حاج .

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريد مشاهدة الطاحونة .

وفتح الباب . . وهو يصر صريراً مزعجاً . . . ووقف وراءه عجوز مغضن الوجه أبيض الرأس ، واهن العظم . . قد كسا جسده صديرياً وسروالا فضفاضاً . . ونظر إلى الرجلين

وقد بدت عليه الدهشة وأقرأه الزائران السلام . . فأجاب الرجل مرحباً بصوته الأجش:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . . أهلا وسهلا . . تفضلا .

ثم أفسح لهما الطريق وفتح الباب على مصراعيه .

– متأسفين يا حاج . .

وتوقف توفيق كأنه يستبين اسم الرجل ، فأجابه الحاج بقوله :

– محسوبك شلبي.

– متأسفين ياحاج شلبي . . لم نكن نقصد إزعاجك . . ولكن منظر الطاحونة أغرانا بمشاهدتها .

وبدت على الرجل علامات الفخر . وسرّه أن طاحونته مازال بها ما يغرى بالمشاهدة . . وقال فى تواضع :

– تفضلا . تفضلا . ليس هناك أى إزعاج . ولو أن الطاحونة . . قد أتلفها البلى . . وعفى عليها الزمن ، كما عفى على صاحبها .

– ربنا يعطيك الصحة .

– ولا صحة ولا عافية . . نحن نقول يا الله حسن الختام . . أنأخذ زمننا وزمن غيرنا !

— البركة فيك يا حاج .

— الله يحفظكم .. تفضلا .. عدم المؤاخذة .. الطاحونة مظلمـــة .. ولكن عينيكما ستتعوّدان ظلمتها بعد لحظة .. وعندما نصعد إلى أعلى سنجد نوراً أكثر .

وكان توفيق يدير دفة المجاملة بمهارة فقال للرجل :

— نورك يكفى .

— الله ينوّر عليك .

ووقف الثلاثة فى قاع الطاحونة وقد بدا أشبه بساحة صغيرة مستديرة وضع فيهـا كل مايملك الرجل من أثاث .. فراش خشبي ومشجب من المسامير وبعض صفائح وصرر ومواجير ، وألقى توفيق على ماحوله نظرة فاحصة ورفع رأسه إلى أعلى فوجد السلم الخشبي المتآكل يدور صاعداً إلى أعلى .

كان منظر الطاحونة عجيباً ، بعروقها الخشبية الغليظة المتقاطعة والتروس الكبيرة والرحى الضخمة .

وتساءل زكى فى دهشة :

— أهذه الطاحونة كانت تدور ؟

وابتسم العجوز :

— هذه الطاحونة التى تراها كالهيكل البالى .. كان لهـا ماض .. إنها لم تكن تبطل أبداً .. كنا نعمل بها ليل نهار .

— ومنذ متى وأنت هنا ؟

— منذ أن عرفت الحياة .. لقد ولدت بين جدرانها ، وقضيت عمرى فوق رحاها ، وسأموت فى باطنها .

— بعد عمر طويل إن شاء الله .

— طويل ؟ ! أبعد كل هذا يبقى لنا عمر طويل ؟ لقد أخذنا أكثر من كفايتنا .. يجب أن نتوقف عن الحياة .. كما توقفت الطاحونة .. لقد أصابنا من البلى ما أصابها .. ولكنها كانت أسبق منا إلى الموت .

— ولكن كيف كانت تدار ؟

— نضع القمح فى مكانه أعلى الطاحونة ... سأريكم إياه عندما نصعد .. فيهبط فى مجرى يصب فى وسط الرحى ، وعندما تفك السيور يدفع الهواء المروحة فتتحرك التروس التى تدير الرحى فيطحن القمح وينزل الدقيق فى أنابيب من القماش ، حيث نعبئه فى الصفائح .

— والآن .. ألا يمكن تشغيلها ؟ !

— لا أظن .. لقد بَلِيَتْ السيور وكسرت المراوح وتمزّق قماشها وتآكلت تروسها .. انتهت كما ينتهى كل شئ .. أبلاها الزمن الذى لا يرحم حتى الحجارة .. على أية حال لقد فعلت ما عليها .. أدت واجبها وأكثر من واجبها ..

لقد أطعمت جيلا بأكمله . . ويكفيها كبرياء وفخراً أن تقف مصلوبة رافعة الهامة . . منتصبة القامة . . غيرها قد رقد فى باطن الأرض ، لايستطيع أن يصلب عظمه أو يقيم عوده .

وكان توفيق ينصت إلى حديث العجوز وقد أخذت عيناه فى فحصه وفحص ماحوله . . وأخيراً قال متسائلا :

ـ أتبقى هنا دائماً ياحاج شلبى ؟

ـ وإلى أين أذهب إذا لم أبق هنا ؟ ! إن هنا مأواى .

ـ ألا تخرج لترى الدنيا ؟ !

ـ دنيـــا ! !

وضحك الرجل فى سخرية ثم أردف وقد أطرق برأسه :

ـ ماذا أرى فى الدنيا أكثر مما أرى هنا . . عجلة تدور كما تدور المروحة . . واحدة تديرها ريح الزمن والأخرى تديرها ريح البحر ، واحدة تطحن بأيامها أبناء آدم والأخرى تطحن بحجارتها حبات قمح . . وفى النهاية . . يصبح هذا تراب وهذا دقيق . . ومن التراب ينمو القمح . . ومن الدقيق ينمو ابن آدم . . والعجلة تدور ، لاتشعر بهذا ولا بذاك ، والذى يذهب هنا . . ينبت ذاك . . لافارق بين ابن آدم وحبة القمح إلا الغرور . . يظن نفسه شيئاً . . وهو حبة فى الرحى .

ونظر الرجلان إلى العجوز فى دهشة . . لشد ماصدق

فى كلمته . . حتى الطاحونة . . لها فلسفة .

وتقدم الرجل أمامهما صاعداً السلم الخشبى وهو يقول :

— تفضلا . . . إلى أعلى . . أريكما الرحى والتروس وموضع القمح . . احذرا جيداً وانتقيا موضع أقدامكما . . فالخشب يكاد يهوى .

وصعد الثلاثة الدرج المتآكل وهو يئن من كل قدم تطؤه .

وأخيراً توقف الرجل .

وتلفت توفيق حوله فوجد الطابق العلوى قد أحاطت به النوافذ الضيقة وتوسطه حجران مستديران ثقيلان نفض عنهما إطار من الحديد وبدا أنهما كانا يدوران بعمود ركب فى وسطهما يديره ترس كبير من أعلى . وبدأ الرجل يشرح كيف كانت تعمل الطاحونة ، وعندما أتم شرحه اتجه توفيق إلى النافذة المطلة على البحر فصدمت وجهه ريح رطبة شديدة وأبصر من خلال النافذة جزءاً من الرمال والأعشاب المحيطة بالطاحونة وتلاها جزء من الطريق . . ثم أخذ المنظر يتسع شيئاً فشيئاً كلما تباعد وبدت له رمال الشاطىء خالية تنبسط عليها الأمواج المتلاطمة حتى تنمحى .

واستطرد توفيق فى الحديث سائلا الرجل :

— أتبقى هنا دائماً ؟ ! ألا تغادر الطاحونة أبداً ؟

– لا يخلو الأمر من شوط هنا وهناك . . جرياً وراء القوت حتى لا نموت جوعاً . . والله لا ينسى عبده .

– ألا يزورك إنسان ؟

– أحياناً .

– ألم يزرك أحد قريباً ؟

– والله لا أتذكر .

ووجد الرجل أن وقفة الزائرين قد طالت فقال وهو يشير إلى أريكة خشبية :

– تفضلا . . اجلسا . . أم تفضلان الهبوط إلى الدور الأرضى حيث الجلسة أكثر راحة ، وحتى أستطيع أن أصنع لكما فنجاناً من الشاى ؟

– أكثر الله خيرك يا حاج . . لا داعى لأن تتعب نفسك . . إننا قد تناولنا الشاى قبل أن نأتى إليك .

وهبط الثلاثة السلم .

وعاد توفيق إلى استجواب الرجل :

– لم تقل لى ياحاج . . متى قدم إليك آخر زائر ؟

– والله يا ابنى . . لا أذكر . . أظن منذ شهرين .

– بعد هذا . . ألم يزرك أحد ؟ ! تذكر جيداً !

– الذاكرة قد وهنت . . لم تعد تعى من أمسها شيئاً .

ـ حاول أن تذكر . . ألم يزرك أحد منذ أسبوع فى الصباح المبكر ؟

ـ فى الصباح المبكر ! !

وصمت برهة ثم رفع حاجبيه وهتف :

ـ أجل . . أجل . . تذكرت . . ولكنه لم يكن زائراً ، إنه لم يحاول مشاهدة شئ . . إنه لم يكن مخلوقاً طبيعياً . . أو على الأقل . . لم يكن فى حالة طبيعية . . كأن به شيئاً .

ـ كيف ؟ . . وماذا دعاه إلى الدخول ؟

ـ لست أدرى . . لقد حدثت المسألة كلها فى دقائق معدودات . . طرق الباب طرقات عاجلة . . ولم ينتظر حتى أجيبه أو آذن له بالدخول بل اندفع بسرعة إلى الداخل وقد تلاحقت أنفاسه وتلفت حوله فى حيرة وعند ما وقع بصره على السلم سألنى قائلا : أأستطيع أن أصعد إلى أعلى بضع دقائق . . ثم اندفع صاعداً قبل أن أجيبه بشئ . وتوجست منه خيفة وظننته هارباً من أحد وتبعته إلى أعلى لأسأله عما به ، وعما إذا كنت أستطيع أن أساعده فى شئ . وعند ما وصلت إلى هنـا وجدته قد وقف وراء هذه النافذة وأخذ يحملق منها كأنه يرقب شيئاً على الشاطىء . وهممت بأن أستطلع منه ماذا يرقب . . وماذا يريد عند ما

انطلقت منه صرخة فزع مفاجئة كأنما قد أبصر ماروّعه ، ثم اندفع يعدو إلى أسفل كالصاروخ وأنا فى أعقابه محاولا اللحاق به .. لأعرف منه شيئاً أو لأعينه على شئ ، ولكنه انطلق يعدو من الباب .

وصمت الرجل فترة .. يتمالك خلالها أنفاسه ، ولكن توفيق سأله فى لهفة :

ـ وماذا أبصر من النافذة ؟

ـ وأنّى لى أن أعرف .. لقد انطلق يعدو بين الرمال وتركنى حائراً .. وعند ما صعدت إلى النافذة لأستطلع ما رأى لم أجد شيئاً البتة .. كان الشاطىء خالياً كما تراه .. ولم أشك أنه مخبول .. وقلت لله فى خلقه شئون .

ـ ألم تر شيئاً أبداً ؟

ـ أبداً .. أبداً .

وضغط توفيق على نواجذه غيظاً ودهشة وقال لزكى :

ـ عجباً !! ماكل هذه الطلاسم ؟! ما الذى دعاه إلى الدخول .. فى مثل هذه العجلة ؟! وماذا رأى ؟

وسأله زكى وهو يهز رأسه فى حيرة :

ـ ولكن أواثق أنت أنه هو ؟

ـ أعتقد هذا .

ثم التفت إلى العجوز متسائلا :

— ماشكله ياحاج ؟

— شاب فى مثل سنك أسود الشعر أميل إلى السمرة ، يرتدى قميصاً وبنطلوناً . . طويل القامة عريض المنكبين .

وقال توفيق مؤكداً :

— إنه هو . . لاجدال فى ذلك .

ثم وجه السؤال إلى العجوز :

— أكان يمسك فى يده شيئاً ؟

— شيئاً كماذا ؟

— حقيبة مثلا . . ؟

— لا . . لا أظن . . لقد كانت كلتا يداه خاليتين .

وبدت على العجوز نظرات الحيرة والتشكك :

— ماذا فعل ؟ ! ولماذا تبحثون عنه ؟

— لاشئ . . لاشئ مطلقاً .

— أنا على أية حال لم أر منه أكثر مما رويت . . لم أره قبل هذا ولا بعد هذا . . المسألة كلها — كما قلت لكم — لم تستغرق سوى بضع دقائق . . دخل مندفعاً وخرج مندفعاً دون أن أستطيع إبقاءه ولا مقاومته وأنا رجل عجوز أكاد أجر ساقى . . وليس لى به أى شأن .

وقال توفيق مطمئناً :

— لا تخش شيئاً ياحاج . . إننا فقط نحاول الاستقصاء عما فعله فى هذا الصباح . . ألا تذكر شيئاً غير ماقلت ؟

— مطلقاً .

وأطرق توفيق برأسه مفكراً ثم قال بعد فترة صمت :

— متشكرين جداً يا حاج . . لقد أتعبناك معنا .

— العفو . . أنا لم أتعب فى شئ . . كنت أود أن أقدم لكم فناجين من الشاى .

— شاكرين فضلك . . السلام عليكم .

ومدّ توفيق يده وسلم على العجوز واضعاً فى يده بضعة قروش .

وحاول الرجل التمنع ولكن توفيق ألح عليه :

— خذ يا حاج . . لقد أضعنا وقتك وأتعبناك .

وضحك الرجل :

— أما عن وقتى فهو ضائع ضائع . . وأما عن التعب فما أحسست منه شيئاً . . أكثر الله خيرك وزاد فضلك .

وغادر الرجلان الطاحونة وطافا حولها ثم عادا إلى الشاطىء مرة أخرى دون أن يجدا شيئاً يسترعى الالتفات . . وأخيراً اتخذ كل منهما مكانه فى العربة .

وقال زكى متسائلا وهو يدير العربة وقد وجد توفيقاً مغرقاً فى التفكير :

— فيم تفكر ؟ ! أتعتقد أن مارواه الرجل صحيحاً وأن الشخص الذى دخل عليه هو ابراهيم ؟

— أجل .. أرجح هذا .. لقد كنت واثقاً عندما وقع بصرى على الطاحونة أنها لابد ستوصلنا إلى شئ . . إنى أعتقد تمام الاعتقاد أن هذه الطاحونة أو شيئاً حولها . . هو الذى أثار الجذوة الكامنة فى نفسه منذ حادثة مروحة الهواء .. إن هذه الطاحونة بها حل العقدة الأخيرة . . إنها لابد أن توصلنا إلى شئ . . فلو أعرف ماذا وقع عليه بصره من النافذة . . ما هذا الذى أفزعه ، وجعله يعدو كالصاروخ .. إنه قطعاً لم يره بوجه المصادفة لأن صعوده إلى الطاحونة ، واتجاهه إلى النافذة يعنى .. إنه يعرف أن هناك مايرقبه .. ترى ماهو ؟! لابد أن نعرف .

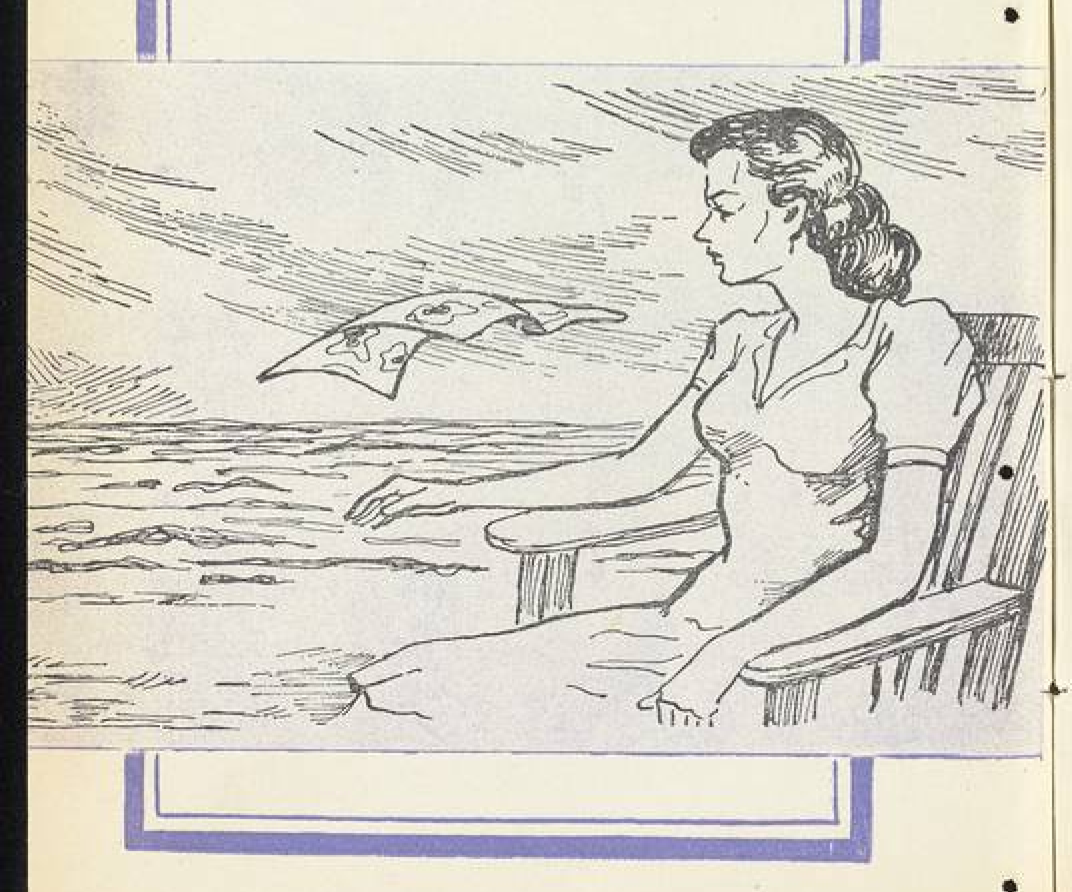
— ولكن كيف ؟

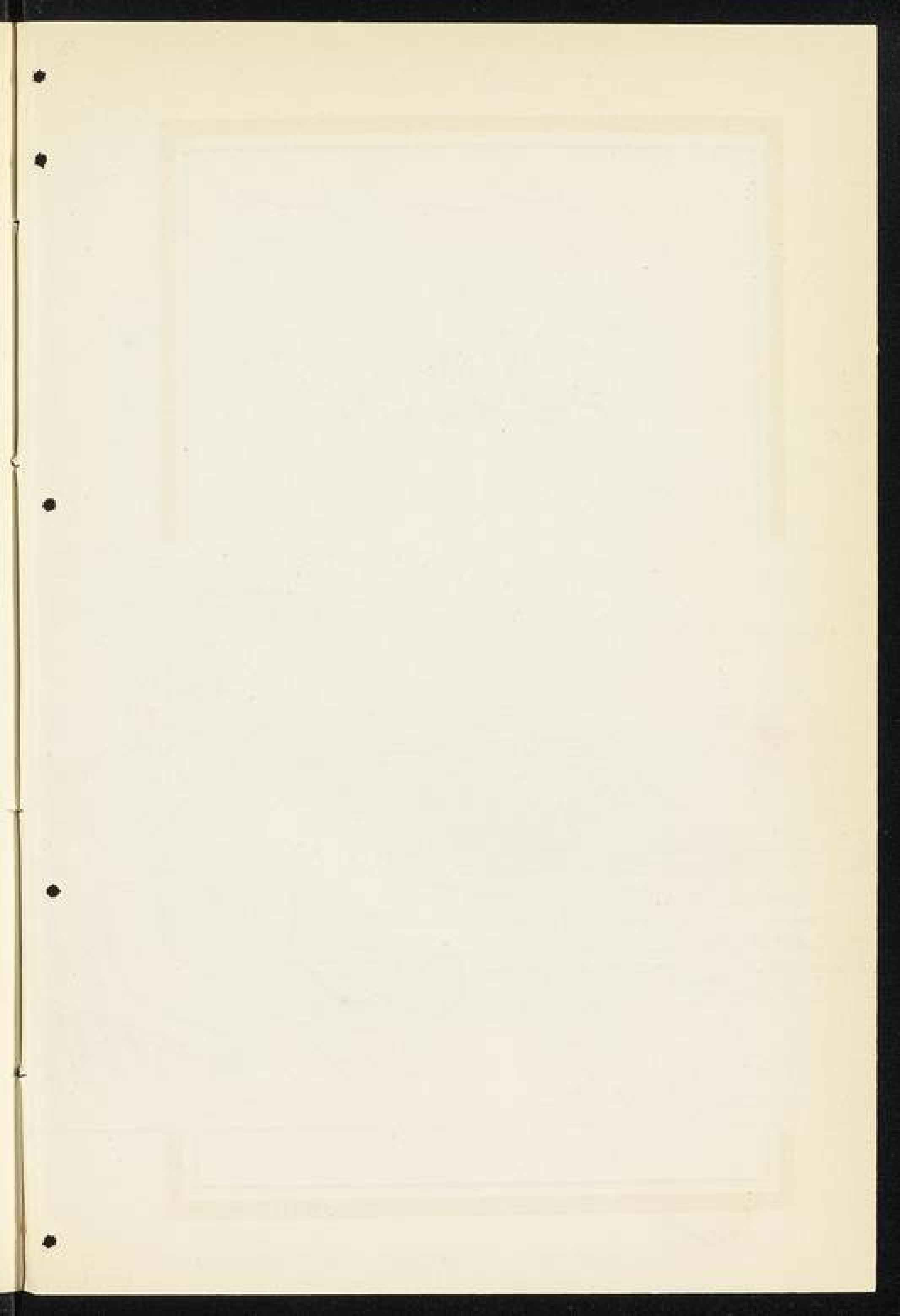
— كيف ! . . إنى سأغامر بالتجربة الأخيرة . . وإذا نجحت فسيكون فيها شفاؤه ، سأحاول أن أواجهه بالطاحونة .

وأخذت العربة تنساب فى الطريق مخلفة وراءها الشبح الطويل القائم على الربوة تصفر الريح فى أجنحته وتحيط به الشواهد . . كالطلل البالى ، أو كالنائحة بين القبور .

الفصل الثالث عشر

ليلى الثانية





في صبيحة اليوم التالى كانت العربة تعدو مرة أخرى منسابة فى طريق الكورنيش متجهة إلى المندرة .

كان زكى يجلس أمام عجلة القيادة وبجواره إبراهيم مطبقاً بذراعه على الحقيبة وفى المقعد الخلفى جلس توفيق يرقبه .

كان إبراهيم يجلس فى حذر وهو يتساءل أسئلته الحائرة التى لا تتجاوز شفتيه .

لماذا خرج به صاحبه فى هذه الساعة المبكرة ؟ .. لقد قال له إنه سيذهب به فى نزهة على الشاطىء .

ولكن من قال إنه يريد أن يتنزه !! لقد كان يفضل لو أنه تركه مستريحاً آمناً فى حجرته .. ولكنه مع ذلك لم يملك سوى الموافقة والاستسلام .

إن هذا أفضل كثيراً من الاستفسار أو المعارضة .

وكانت العربة تجتاز الشارع الموصل بين شارع أبوقير والكورنيش ، ولم تكد تعبر شريط الترام حتى أخذ الطريق فى الانحدار ، ورويداً رويداً ، بدا البحر بأمواجه المتكسرة وهديره الجياش .

وأحس إبراهيم برعدة سرت فى جسده . . وتلاحقت أنفاسه .

أف لهذه الزرقة المترامية .. والعباب المخيف ، لشدما يحس أنه يكرهها ويخشاها .

ماذا حدا بصاحبه أن يأتى به إلى هـذا المكان المروع ؟ !

ولفت العربة يمنـة . . وانسابت فى طريق الشاطىء . . وقد ثبت إبراهيم عينيه على الأمواج المتلاحقة .

وبعد ؟ ! ! أما لهذا البحر الزاخر من نهـاية ؟ ! إنه يحس منه بمـا يشبه الغثيان . . إنه يكرهه . . ويخشى هذه الرمال الناعمة التى تكاد تبتلع السائر عليها .

وأحس بأنه يكاد يغيب فى أحلامه المفزعة ، ويوشـك أن يعـدو هارباً من الأصوات المروعة التى تلاحقه ، أو التى تستغيث به .

ووقفت العربة .

حمـداً لله . . لقد انتهت الرحلة البغيضة .

ولـكن لِمَ يقفان هكذا على الشاطىء ؟ . . أيخبرهما أنه يكره البحر ويخشاه ! !

ولـكن إذا سألاه . . لِمَ ؟ فـاذا يقول ؟ .

أجل . . لماذا يخشاه ! ! إنه ليس طفلا .

وهبط صاحبه من العربة . . وبدا له أنه لابد له من الهبوط كذلك .

إلى أين ؟

وأتاه الجواب من صاحبه وهو يفتح له باب العربة ويسأله :

ـ أتحب أن تتنزه قليلا على الشاطىء ؟

وعادت الرعدة تسرى فى بدنه . . وكان بصره مثبتاً فى المياه الزرقاء الصاخبة الموج وكأنه لايستطيع انتزاعه منها .

نزهة على الشاطىء ؟ وفى هذا المكان ؟

لا . . لا . . هذه المرة . . لن يستسلم أبداً . . سيقاوم مقاومة عنيفة . . لن يتركهم يأخذوه إلى هذه الرمال الفظيعة والأمواج المخيفة . . لا . . لا .

ووجد نفسه يهتف بحدة وهو يهز رأسه :

ـ لا . . لا . . إنى أكره البحر . . أكرهه . . لاتأخذونى إليه .

وربت الرجل الآخر كتفه محاولا تهدئته . . وقال فى رفق :

– لاتخف . . لن يأخذك أحد إليه . . دعنا نهبط لنتنزه في الناحية الأخرى . . مادمت تكره البحر .

أجل . . هذا أفضل . . أفضـــل كثيراً . . ومدّ قدمه فأخرجها من باب العربة وأسندها على الرصيف ثم أحنى رأسه وغادر العربة وكنزه الثمين ما زال تحت إبطه .

ووقف على الرصيف وتنفس الصعداء وهو يدير ظهره للبحر وقد أحس بشيء من الهدوء والراحة . . ولكنه لم يكد يرفع بصره . . ويرى ما أمامه حتى بدت عليه أقصى آيات الرعب والذعر .

هذا المارد المخيف يوشك أن ينقض عليه . . أجل . . أجل .. إنه يبدو مروعا .. بضخامته وارتفاعه وفظاعة منظره ، وهذه المخالب المخيفة المرتفعة التي توشك أن تطبق على أنفاسه وتمزق جسده إرباً إرباً .

وهذا النواح المخيف . . الذي لاينفك يصـدر من جوفه كأنه نواح الضحايا الذين افترسهم .

لا . . لا . . ابعـــدوه . . إنه لايحتمل . . الغوث . . النجدة . . الرحمة .

وأمسك الرجلان به من ذراعيه وهو يوشك أن يتهاوى إلى الأرض ، وأخذا يسيران به تجاه الطاحونة وهو يحاول

التملص .. بكل ما يملك من قوى خائرة .. وجسد منهك وأعصاب محطمة .

ووصلوا إلى الباب فطرقه زكى بقبضته ، ولكن توفيق لم ينتظر حتى يفتح العجوز بل دفعه بقدمه فانفتح واندفع الثلاثة إلى الداخل ، وابراهيم قد تصبب منه العرق بغزارة وعلى وجهه شحوب مخيف .

وصاح توفيق بالرجل العجوز فى عجلة :

ـ يا حاج .. سنصعد بعد إذنك إلى أعلى .. لاتؤاخذنا فى هذا الإزعاج ، ولكن المسألة يتوقف عليها شفاء مريض .

وصعد الرجلان السلم الضيق المتآكل وهما يكادان يحملان إبراهيم .. الذى تثاقلت أقدامه وأحس كأنه يجر بهما أكياساً من الرمال .

هذا المكان مخيف .. مخيف جداً .. إنه يحس كأن به شبحاً يطبق على عنقه ويخمد أنفاسه .

أما من مغيث !! أما من منجد !

وأخيراً وصلا إلى الطابق العلوى .. ومدّ توفيق يده لجذب صندوقاً وضعه بجوار النافذة المطلة على الشاطىء . ثم تعاون مع زكى على وضع ابراهيم فوقه .

وأحس إبراهيم بريح رطبة تلفح وجهه واستنشق منها شهيقاً ملأ به صدره وشعر ببعض الانتعاش . . وخف عنه ذلك الحمل الذى كان يجثم فوق صدره ويطبق على أنفاسه وأخذت الأشباح التى تكاثرت عليه تتباعد رويداً رويداً .

وأدار وجهه إلى النافذة . . وألقى ببصره على ما وراءها .

وفجأة ندت عنه صرخة عنيفة تجاوبت صداها جدران الطاحونة ثم وثب من مكانه وثبة عنيفة وهمّ بالاندفاع هابطاً إلى أسفل . . ولكن توفيق كان أسرع منه حركة فحال بينه وبين الهبوط وتعاون مع زكى على إعادته إلى مكانه .

وحاول إبراهيم التخلص وهو يصيح :

— لابد لى من اللحاق بها . . لابد أن ألحقها قبل أن تذهب .

وأخذ ينظر حوله فى ذهول ودهشة .

أجل . . أجل . . لابد أن ينطلق فى إثرها قبل أن تتحرك العربة . . ولكن أين العربة ؟ ! وأين هى ؟ .

أما هى . . فليس لها من أثر . . لعلها ذهبت .

أم تراه فى أحد أحلامه المزعجة !

أجل . . لاشك فى هذا . . ولكن من هؤلاء ؟ ! ومن أحضرهم فى حلمه ! . . لعلهما صاحباه .

ولكن ماله بهما .. إنها هى التى يهمه أمرها .. يجب أن يعدو إليها . وهمّ مرة أخرى بالنهوض ، ولكن توفيق كان يمسك بذراعه جيداً .

وعاد يحدق من النافذة .. فى الأمواج المتلاطمة .. والرمال المنبسطة .. وأحس كأن رأسه يوشك أن ينفجر ، ووضع يده عليها وأخذ يضغط جبينه عله يوقف ذلك الانفجار ، الذى خلط كل شىء برأسه وجعل كل المرئيات تتشابك وتتداخل كأنه واقع فى دوامة .. أو كأن المروحة قد أطبقت عليه بذراعيها وأخذت تدور به .

وأخيراً بدأت الحركة تخف ، والدوامة تهدأ ، والمروحة تتوقف .. ورويداً .. رويداً .. بدأ ينجلى كل شئ .

إنه هنا .. فى نفس المكان الذى كان به آخر مرة .. هذه هى الطاحونة المشئومة بعروقها البالية ، وتروسها المتآكلة ورحاها المحطمة ، ومنظرها الكئيب الموحش .. وهذا هو نفس المنظر الذى أبصره من النافذة .. الأعشاب الشائكة ، والقبور المهدمة ، والطريق ، والرمال ، والأمواج المتلاطمة .

وهذا هو زكى .. ماذا أحضره إلى هنا ؟ ! بل ماذا جاء به هو نفسه إلى الطاحونة ثانية ؟ ! إنه لا يذكر كيف

أنى . . ولا يذكر أيضاً هذا الرجل الجالس بجواره ذى العوينات والذى يربت ساقه برفق ويقول له مترفقاً :

— كيف الحال الآن؟!

كيف الحال ؟ ! . . إنه يشعر بانهيار شديد . . أعصاب محطمة وأعضاء مهدمة ، وقوى خائرة ، ورأس مجهد متعب .

ولكنه لم يملك إلا أن يقول فى ضعف شديد :

— الحمد لله .

وسأله الرجل :

— ماذا أخافك من النافذة ؟ ! من الذى كنت تريد اللحاق بها ؟

وتذكر ما أخافه من النافذة . . وأصابته قشعريرة شديدة وأخفى عينيه براحته وقال :

— لا فائدة . . لا فائدة هناك . . لقد انتهى كل شىء . . لقد ذهبت بلا عودة .

— من هى ؟ !

وأجاب إبراهيم فى شبه همس :

— ليلى .

— من تكون ليلى ؟ ليلى أختك ؟

ورفع إبراهيم حاجبيه فى دهشة شديدة ثم قال فى حزن :

— من أدراك بليلى أختى ! إنها ذهبت منذ زمن طويل .

— إذن من تقصد بليلى ؟

— ليلى الثانية . . ليلى المسكينة .

ثم أطلق زفرة حارة وعاد يخفى وجهه بكفه ، وقال توفيق مهدئاً :

— لا داعى لهذا . . قص علىّ ماحدث . . أتذكره جيداً ؟

— أذكره بالطبع . . ولكن لماذا تريد أن تعرف ؟

وأجاب زكى :

— يريد أن يعرف من أجلك . . إنه الدكتور توفيق الذى يتولى علاجك بعد أن أصبت بالصدمة التى أصبت بها . . قص عليه يا إبراهيم كل شئ وثق به .

وتنهد إبراهيم . . وشرد ببصره من النافذة وأخذ يقص القصة فى صوت خفيض متهدج :

« كنت أسير على الشاطىء كعادتى كل صباح ، وطال بى السير وأنا أبصر المكان من حولى خالياً ، والشاطىء على طوله لا يكاد يطرقه أحد سواى ، وكنت أشعر أن هذه الزرقة الجياشة والصفرة المترامية قد باتت كلها ملكا لى وأننى أتنزه فى أملاكى الخاصة .

وبهذا الإحساس العجيب والنشاط الذى يملأ جسدى

والقوة التى تتدفق فيه . . أخذت أقطع الطريق فى نشوة والوقت ربيع ونسيم البحر يملأ جوانحى والشمس ما زالت مختفية وراء المشرق تحاول جاهدة البزوغ من وراء البيوت المتناثرة على الشاطىء .

وفجأة . . ووسط هذا الفراغ الطويل العريض وجدت من يشاركنى فى أملاكى الخاصة . . ووجدتنى أتوقف على حاجز الشاطىء لأرقب هذا المخلوق العجيب الجالس وحده فى هذا الخلاء .

وأخذت أحملق فى عجب شديد ، والسكون قد ران من حولى إلا من حفيف الموج المنبسط على الرمال ، الموجة تلو الموجة .

ووجدت بصرى قد لصق بها لا يبغى عنها حوَلا كأن بها شيئاً عجيباً . . ولست أدرى ما كنهه . . يشدّنى إليها .

قد تكون وحدتها فى ذلك الفراغ العريض والوقت المبكر . أو تكون رقتها البادية من هيكلها النحيل ووجهها الدقيق . . أو يكون . . أكثر من هذا وذاك . . ذلك الشبه العجيب الذى وجدته بينها وبين مخلوقة عزيزة علىّ فقدتها وهى طفلة منذ أمد بعيد .

ووقفت أتأملها دون أن تشعر وقد جلست على الشاطىء

تتشاغل بإبرتين طويلتين فى يدها ولفافة من الصوف على حجرها . . وقد ارتدت ثوباً بدا فضفاضاً حول جسدها النحيل ولفت حول رأسها « إيشارب » من الحرير .

وعلى حين غرّة . . أطارت هبة من ريح البحر « الإيشارب » الذى يلف رأسها . . وشعرها الذهبى ، وانطلق المنديل يعدو والريح تطارده فوق الرمال ، وبغير إرادة منى وجدتنى أقفز الحاجز وأعدو فى الرمال ، أسابق الريح وراء المنديل المنطلق .

وأخيراً أمسكت به واستدرت عائداً ليقع بصرى عليها تنظر فى ابتسامة . . دهشة من هذا المخلوق الذى انبعث من باطن الأرض ليحضر لها المنديل .

ووقفت أمامها أمد يدى بالمنديل فتناولته وهى تتمتم فى استحياء :

— متشكرة جداً .

— العفو .

وانعقد لسانى فلم يسعفنى بأكثر من هذا . . وحاولت أن أطيل الحديث فقد كانت بى رغبة خفية فى الحديث إليها ، ولكن حياءها الطبيعى . . وحيائى الطارىء ، جعل الموقف ينتهى عند هذا الحد . . ووجدتنى برغمى أشير إليها برأسى

ثم أنصرف عائداً إلى الطريق .

وفى تلك الليلة . . وجدت صورتها تعاودنى مرة أو مرتين . . برأسهـا الجميل المطرق فى استحياء . . ويديها متشاغلتين بالإبرتين الطويلتين . . وفى كل مرة تطوف صورتها فى ذهنى تلاحقهـا صورة أخرى ، باهتة حائلة ، كاد الزمن يطمس معالمها ويخفى قسماتهـا . . هى صورة ليلى الصغيرة .

وفى اليوم التالى . . كنت أقف وقفة الأمس . . وأنا أرنو إليهـا ببصرى . دون أن أجرؤ على التقدم إليهـا . . أو مبادأتها بالحديث .

ومرة ثانية . . وجدت الريح قد كفتنى مئونة التمنى والتطلع . . وبهبة منها . . منحتنى فرصة أخرى . . كان علىّ ألا أتركها تفلت .

لم يكن المنديل هذه المرة هو الذى أطارته الريح . . بل كانت ورقة من كتاب انهمكت فى قراءته . . وسواء أكان عندى المنـديل . . أم ورقة . . اندفعت مرة أخرى أسابق الريح فى مطاردة الصيد الثمين . . وسرعان ما أطبقت على الورقة الهاربة لأعيـدها إلى قواعدها المستقرة على حجر الساحرة .

ووقفت أمد يدى بالورقة . وابتسمت هى وقد تملكها استحياء أشد . . وأجابتنى بصوت هامس :

ـ متشكرة جداً .

وبرغم أنه كان يجب علىّ أن أحذر رد البارحة الذى يختم الحديث فقد وجدتنى أتورط فيه قائلا فى ارتباك :

ـ العفو يا افندم .

وكاد الحديث ينقطع والصمت يخيم بحيث لا أجد لى مفراً من الانصراف . ولكنها . . كانت أسرع منى وأقدر على وصل ما انقطع فقالت متمتمة :

ـ متأسفة جداً . . إنى أتعبتك مرة أخرى . . واضطررتك إلى الجرى .

ثم أردفت قائلة وقد علت وجهها ابتسامة حلوة :

ـ ولكن ما حيلتى ؟ ! تأبى الرياح إلا المعاكسة عند مجيئك .

ووجدت باب الحديث قد فتح ، والكلفة قد أزيلت ، والمزاح مستطاع ، فقلت ضاحكا :

ـ ليس لى إلا أن أشكر فضلها . . لأنها منحتنى فرصة طيبة .

— إذاً فأنتما على اتفاق ؟

— أنا والرياح ؟! ياليت .

— يا ليت ماذا ؟ ! أيهمك أن تتفق مع الرياح ؟

— ومن الذى لا يهمه هذا ؟ ! ألا يكون الإنسان مع الرياح أفضل من أن يكون ضدها .. على الأقل يضمن ألا تأتى بما لا تشتهى السفن !

وزادت ابتسامتها وقالت فى جذل :

— وماذا تشتهى السفن ؟

— أمنيات كثيرة .

— مثل ؟

— أظن أول ماتشتهيه ، هو أن تجلس قليلا ، أعنى ترسو على الشاطىء برهة .

— وماذا يمنعها ؟

— تخشى أن تعصف بها الرياح وتطردها شر طردة .

— لو كانت عاقلة . . لرست برهة ثم سارت قبل أن تعصف بها الرياح .

وضحكت . . واعتبرت قولها إذناً بالجلوس برهة . . وهبطت إلى الرمال بجوارها . . وأخذت أتحدث معها متطلعاً إليها فى نوع من الشغف .

وتحدثنا حديثاً عابراً . . عن البحر والهواء ، وأشياء أخرى تافهة لا أذكرها حتى بدأت أحس منها قلقاً . . وتذكرت نصيحتها . . فنهضت واقفاً ومددت يدى أصافحها قائلا :

— لقد آن للسفن أن تسير . . فإن الريح توشك أن تهب .

وعلت ضحكتها وهى تشد على يدى قائلة :

— إنها سفن مطيعة طيبة . . مع السلامة .

وعدت إلى الدار وبى نشوة . . ولكنها نشوة غير خالصة . . بل يشوبها كثير من قلق وخشية . . قلق مبعثه وخزات متتابعة من الضمير . . وخشية منشؤها الإحساس بأن التوازن يكاد أن يضيع والاستقرار يوشك أن يذهب .

وألحت صورتها علىّ أكثر من الليلة السابقة ، وكانت هذه المرة تلاحق صورتها صورة ليلى الصغيرة ، وصورة ثالثة تلاحق الصورتين . . هى صورة راجية .

لقد بدأ النضال . . وبدأت الموازنة . . وكان علىّ أن أستوضح النفس ما خفى من أمرها ، وأسائلها ما مرادها ؟

ورحت أؤكد لنفسى أنى أحب راجية . . أحبها أكثر مما أحب أى شىء فى هذه الحياة . . بل أكثر من الحياة نفسها

وأن أرض حبنا أثبت من أن تهزها هزة يسيرة طارئة وأن شجرته أصلب من أن تعصف بها نسمة خفيفة عابرة .

ورحت أوقف وخز الضمير بجزمى أن المسألة لا تستدعى كل هذا القلق . . وأن من الغباء أن أخشى على راجية من لقاء عابر لفتاة لا أعرف شيئاً عنها . . حتى اسمها .

وذهبت إلى راجية . . لأؤكد لنفسى وفائى لهـا . . وتناجينا تلك الليلة بأعذب المناجاة وأرق الحديث .

وفى الصباح التـالى . . وبغير إرادة ولا تفكير ، كنت أجلس على الرمال أمام الساحرة الرقيقة الشقراء . . بلا انتظار معونة من الريح ، أو إذن منها .

وفى هذه المرة . . لم أشعر بجهد فى خلق الحديث . . لقد زالت الـكلفة . . وأقبل كل منا على صاحبه إقبال صديق حميم .

ولم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى أوصالى عندما علمت منها أن اسمهـا ليلى . . ولم أستطع أن أمنع نفسى كذلك من استعادة صورة ليـلى الصغيرة . . هاوية من عل . . مسجاة على الرمال .

وسرعان ما طردت الشبح البائد والصورة الغابرة وأقبلت على ليلى أقول مازحاً :

ـ أتستطيع السفن أن ترسوا على الشاطىء كل صباح ؟

ـ الشاطىء ممتد ، وحرية الرسو مكفولة .

ـ أقصد . . أن ترسو على هذه الميناء ذاتها ؟

ـ هذه الميناء ذاتها ؟ ولمه ؟

ـ لأنها أكثر ملاءمة .

ـ إذا كان الأمر كذلك فلا بأس من رسوها . . ولكن لفترة قصيرة .

ـ وإذا أطالت ؟

ـ تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . . وتطردها شر طردة .

ـ لا . . لا . . لا داعى لذلك . . إنها سترحل بمجرد أن تحس من الرياح أول هبة .

ـ اتفقنا إذاً ؟

ـ أجل .

وهكذا اتفقنا على لقاء دائم . . يستمر حتى أرى منها قلقاً فأرحل .

ووجدت فى يدها كتاباً سميكا فسألتها :

ـ أهذا هو كتاب الأمس الذى أطارته الريح ؟

— أجل إن الكتاب كبير والغلاف رقيق ولذلك يتفكك ورقه بسهولة .

— أأستعد إذاً للعدو ؟

— لا . . اطمئن . . إنى أمسك به جيداً .

— ما موضوعه ؟

— إنه قصة طويلة .

— أعجبتك ؟

— لم أتمها بعد . . ولكنى كنت منذ لحظة أقرأ فى قطعة لطيفة أعجبتنى .

— عن أى شئ ؟

— إنها حديث على لسان بطلة القصة . . تصف أول شعور لها بالحب .

— أأستطيع سماعها ؟

ومدت يدها إلىّ بالكتاب وقد فتحته على صفحة معينة وأشارت بأصبعها قائلة :

— هنا . . أول هذه الصفحة . . خذ اقرأ .

— ولِمَ لاتقرئين أنت ؟ ! إنى أحب أن أسمعها منك .

وعلا وجهها احمرار وأصابها ارتباك وقالت متلعثمة :

— أنا . . أقرؤها . . أنا ؟

ـ أجل . . ولِمَ لا ؟ ! ألا تعرفين القراءة ؟

ـ أعرفها . . ولكن لا أظننى أجيد المطالعة . . إنى أخطىء دائماً فى التشكيل .

ـ وأنا لا أفهم فيه .

ـ إذا كان الأمر كذلك . . فسأقرأ لك .

وأمسكت بالكتاب . . وما زال بوجهها حمرة الخجل ، ووجدتها تبلل شفتيها بطرف لسانها ثم تبدأ القراءة :

« وأحسست وأنا أحدق فى الأفق بحنين إلى شئ مجهول ، وبدا لى كأنى شئ ناقص . . مازال له بقية . . هنا أو هناك ، وأنى أتلهف على بقيتى . . وخيل إلىّ أنها تحوم حولى . . أو أحوم حولها . . وأنها تتوق إلىّ كما أتوق إليها . . وأن كلا منا سيظل يلهث فى الحياة ويخبط حتى نلتقى فنصبح شيئاً تاماً كاملا . . قائماً بذاته » .

وصمتت فترة . . وخيل إلىّ أنى أسمع صوت أنفاسها المتلاحقة .

ورفعت عينيها عن الكتاب فالتقت بعينى وسألت قائلة :

ـ ما رأيك ؟

ـ مدهش .

ـ أتود أن أكمل ؟

- بالطبع .

وعادت تتم القراءة فى صوتها الرقيق المتهدج :

« ولم أحاول أن أحدد لنفسى أى شكل خلقت بقيتى ، وعلى أية صورة كوّنت ، ولا حاولت أن أقترب بها من الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلوق بالذات فقد كنت أجبن عن ذلك . كنت أفضل أن أبقى هائمة وأن أقول لنفسى إن هذه أوهام وأحلام ، على أن أعترف لها بأنى - ببساطة - أسعى إلى الحب . . وأن هذه البقية التى أتوق إليها . . إنسان حى كائن . . أشعر به يقترب من محيط حياتى ويطرق باب قلبى » .

وصمتت مرة أخرى . . وسقط الكتاب على حجرها وهى تشرد ببصرها بعيداً فيما وراء الأفق والبحر الرجراج .

وبدأت أتأملها وقد رق منى الحس وأرهف الشعور وأخذت أرقب طاقتى أنفها الدقيقتين تنفرجان برقة والهواء يندفع إليهما وصدرها يعلو ويهبط . . وأحسست برغبة جارفة فى أن أضمها إلىّ .

وتمالكت نفسى . . وقلت أخرجها من صمتها وأوقظها من سباتها :

- وبعد ؟

وانتفضت انتفاضة خفيفة وقالت لى متسائلة :

ـ وبعد ماذا ؟

ـ وبعد ما خشيت أن تعترفى بأنك تشعرين به يقترب من محيط حياتك ويطرق باب قلبك ؟

ـ من هو ؟

ـ المجهول المنتظر .

ـ يطرق قلبى أنا؟

ـ قلب من إذاً ؟

ـ بطلة القصة . . إنها هى التى تقول . . ولست أنا .

ـ بطلة القصة ؟ . . أجل . . أجل .

وصمت برهة وعدت أقول وأنا أبتسم معتذراً :

ـ لست أدرى ماالذى جعلنى أتوهم أنك تتحدثين عن نفسك . . وأنك أنت بطلة القصة . . على أية حال . . إن الحديث يمكن أن ينطبق على أكثر من واحدة .. ألم تشعرى أحياناً وأنت تقرئين بعض الكتب أن الكاتب يكاد يعبر عن إحساسك أنت وكأنه يعبر عن كل ما فى قلبك ؟

ـ قد يحدث ذلك . . ولكن فى هذه الحالة ذاتها . . لا أظن .

ـ ولِمَ؟ . . أترين السبب لأن المجهول المنتظر قد طرق

الباب ودخل ؟ . . أعنى أنه لم يعد منتظراً ولا مجهولا ؟

— أيضاً . . لا .

— غير معقول .

— ولماذا ؟

— لأن القلب المرهف العامر بالإحساسات كالحديقة الغناء العامرة بالأزهار والرياحين لا يمكن أن تظل مغلقة دون أن يطرق بابها أحد ليمتع بما فيها .

— وإذا كان الباب مغلقاً فمن أين للطارق أن يعرف أنها عامرة بالأزهار ؟

— هبات النسيم تحمل إليه العبير .

— وإذا كانت الحديقة بعيدة . . ونائية . . لا يقربها طارق ولا يغشاها عابر . . والنسيم الذى يمر بها لا يمر بغيرها . . أو هو يفقد العبير على بعد الشقة وطول الرحيل . . إذا كانت الحديقة برية تعوّدت الوحشة والوحدة والعزلة ، واكتفت بصادح الطير . . وهاتف الورق الذى يهتف فى جوانحها . . ويصدح بين أغصانها . . أليس من الخير أن تكفى نفسها مئونة التمنى والانتظار ؟ !

وبدا لى من حديثها مرارة كثيرة . . وأحسست أن جوانحها تنطوى على شىء .

وأطرقت فى حيرة لا أدرى ماذا أقول . . وما لبثت أن رفعت إليها بصرى قائلا :

ــ ولكن الحديقة لا تبدو أنها كما تقولين .

وتساءلت فى لهفة :

ــ كيف ؟

ــ أعنى أنى أكاد أبصر أزهارها المتفتحة وأشم عبيرها العطر الفواح .

وقالت فى صوت ذائب :

ــ من هى ؟

وتملكنى الاضطراب وقالت فى لهجة متلعثمة :

ــ هى . . أقصد . . أقصد . . الحديقة البرية .

وضحكت فى جذل وقالت :

ــ إنها خيالات وأوهام . . أنت لا تدرى عنها شيئاً . . إنها ما زالت عنك بعيدة نائية .

ــ بل أعرف عنها الكثير .

ــ ماذا تعرف عنها ؟

ــ أعرف عنها . . بريتها واستيحاشها . . وعزلتها . . وأحس فى باطنها اكتئاباً وحزناً وظلمة لست أدرى كنهها ولا مبعثها . . وإن كانت بنفسى لهفة على إزالتها . . وعلى

إضاءة تلك الظلمات التي تكتنف أرجاءها ، وتبديد السحب المعتمة التي تخيم في أنحائها .

— وما ذنبك أنت تجهد نفسك في المستوحش النائي ؟

— ليس أقرب إلى قلبي من نائيها . . ولا أعمر من مستوحشها . . ولا أينع وأزهر من بريتها . . إني أحس بشئ يشدّني إليها .

وهمست في لهجة تكاد من الوجد تذوب :

— أحقاً تقول ؟

— والذي نفسي بيده . . ما أقول إلا أقل الحق .

ومددت يدي فأمسكت يدها . ووقع نظرها على الساعة في يدها الممتدة فسحبتها بسرعة وقالت في قلق شديد :

— لقد سرقنا الوقت . . أرجوك أن تتفضل . . لقد تحدثنا أكثر من اللازم .

وأصابني من قولها عجب شديد ، ولم أدر هناك ما يوجب هذا القلق المفاجيء . . ولا التعجل في صرفي عنها وهي في ذروة شعورها .

وقلت لها أتساءل في دهشة :

— ولكن . . ماذا يدعو إلى مثل هذه العجلة ؟

وقالت وقد ازداد بها القلق :

ـ أرجوك . . لقد اتفقنا من أول الأمر على أن تنصرف عند ما أطلب منك ذلك .

وبرغم لهفتى إلى مزيد من صحبتها لم أرغب أن أسبب لها ضيقاً أو قلقاً . . ونهضت تواً ومددت يدى مصافحاً وانصرفت قائلا :

ـ هنا . . غداً ؟ !

وهزّت رأسها قائلة :

ـ أجل .

وعدت إلى البيت وبنفسى خشية أكثر وقلق أشد . . كنت برغم كل ماحدث لا أكاد أعود إلى البيت حتى أشعر بمدى حبي لراجية . . وكانت كلما ازدادت نشوتى من الناحية الأخرى ازداد بى القلق وازدادت الخشية وازداد التصميم على إنهاء العلاقة الطارئة . . وأن أقى من شرّها . . علاقتى الأصيلة الباقية براجية . . حبيبة الروح . . ومنية النفس . . ولكنى كنت أشبه بمتعاطى المخدر الذى لا يكاد يفيق حتى يقرع ضميره الندم ، ويحس بمدى تورطه وخطئه وانحرافه عن الطريق السوى . . ووجوب إقلاعه عن عادته الشائنة فإذا ما حان موعد تعاطيه . . أقبل عليه بلا تفكير ولا إرادة .

وكان ما بيننا قد أضحى موعداً . . لا لقاء عابراً ولا وليد صدفة .

وكنت إذا ما حان الموعد أسير إلى الشاطىء . . كمدمن الخمر . . يقصد الحان . . تحركه قدماه . . بلا وعى ولا حول ولا قوة .

وهكذا أضحى لقاء الشاطىء من ضروريات حياتى . . وأحس كل منا أنه يندفع نحو الآخر بسرعة الصاروخ .

كان يشدّنى إليها حزن يفيض بنفسها من ينبوع لا أدرك كنهه ولا علته . . وكانت بنفسى لهفة على أن أمسح بيدى جبينها وأتحسس شعرها وأزيل أكداس الحزن الراسبة فى أعماق نفسها . . وكان أكثر ما يمتعنى . . أنى أصبحت على ذلك قديراً . . وأنى بت أحمل إليها بلقائى فرحة ومتعة . . وأن سحب الحزن أخذت تتبدد . . وبريق عينيها قد لمع بعد خبو . . وأضاء بعد ظلمة .

لقد تغير ما بنفسها عدا شئ واحد . . كان يملأنى ضيقاً وقلقاً وحيرة . . وهو إصرارها العجيب على أن أنصرف فى الموعد المحدد . . وعلى ألا أعرف عنها شيئاً .

وبدأ الشك يساورنى ، والريب تلح على نفسى . . وأحسست بنوع من الغيرة الغامضة . . من مجهول يقطع علىّ

لقائى . . ويجعل منى مسلاة تتسلى بها إلى حين عودته .

وذات صباح أقبلت عليها وقد حملت فى جيبى جهاز إذاعة صغير فى مثل حجم الكف . . وجلست أمازحها متسائلا وأنا أمسك الصندوق الصغير بين كفىّ :

ــ ماذا تظنين هذا ؟

ــ علبة سجائر ؟

ــ لا .

ــ علبة شيكولاتة ؟

ــ لا . . ليس شيئاً يؤكل ولا يشرب .

وفكرت برهة ثم قالت ضاحكة :

ــ علبة زينة ؟

ــ ولا هذا أيضاً .

ــ قل أنت . . لقد غلب حمارى .

ــ اغمضى عينيك .

ــ وكيف أراها إذاً ؟

ــ قلت لك اغمضى عينيك .

ــ ها قد أغمضت .

وعند ما أغمضت عينيها بدأت أدير الجهاز . . وكنت أعلم أن بعض ألحانى تذاع فى هذا الصباح . . وعند ما علا

اللحن فتحت عينيها وتساءلت فى دهشة :

— ما هذا ؟

— راديو .

— راديو بهذا الحجم ؟

— ما رأيك فيه ؟

وتناولت الجهاز وأخذت تفحصه قائلة :

— مدهش ؟

ثم أدارت المفتاح مغلقة الجهاز .

وقلت متسائلا :

— لماذا أقفلته ؟

— دعنا نتحدث . . الوقت أضيق من أن يشغلنا فيه عن نفسينا ثالث . . حدثنى عن نفسك .

— نفسى أنا . . لست أجد فيها ما يستحق الحديث . . حدثينى أنت عن نفسك . . اكشفى الغطاء عن شخصيتك المغلقة المحاطة بالأسوار .. النائية فى عزلتها الموحشة .. دعينا نتشارك فى الوحدة والظلمة .

وأطرقت برأسها وخيمت على وجهها سحابة هم وأجابت فى صوت خفيض :

— لا داعى لهذا . . دع الصدر مطبقاً على ما فيه . . .

والنفس منطوية على خباياها . . دع عنك نفسى . . وقل لى عن نفسك . . من أنت ؟ ! وماذا تعمل ؟ ! وكيف تعيش ؟

— من أنا ؟ أنا . . أنا . . .

وعبث أصبعى بمفتاح الراديو فعاد ينبعث منه اللحن وقلت وأنا أنصت إليه :

— أنا . . أنا . . هذا .

— لست أفهم .

— أنا اللحن . . واللحن أنا . . هذا قطعة منى .

— أتعنى أنك موسيقار ؟

— أجل !

— عجباً ! لم تكن لدىّ أقل فكرة . . وهل هذا لحنك ؟

وأخذت تنصت مرهفة سمعها .

وأشرت برأسى : . . نعم .

وانفرجت أساريرها وبدا عليها طرب شديد . وعندما انتهى اللحن سألتها :

— أأعجبك ؟ !

— جداً .

— ولكنه لم يعجبك فى أول الأمر .

— أجل . . إنى لم آبه له . . كلحن مجهول . . وفضلت

عليه الحديث إليك . . لأنه أحب إلى نفسى من أى لحن . . فلما علمت أنه لحنك . . أطربنى كشئ صادر عنك ، أو كما قلت أنت « كقطعة منك » . أعلمت السبب فى تغيير رأيى ؟! إنه أنت .

وأحسست بنشوة . . . وأنا أشعر أول مرة . . أن شخصى المجرد قد بات صاحب فضل على شخصى العبقرى .

وعادت الشقراء الرقيقة تتساءل :

ــ وماذا تفعل الآن ؟

ــ أضع مجموعة ألحان لأوبرا جديدة . . . لا أكاد أفرغ منها لحظة واحدة . . . وعندما أتعب من التلحين . . ألجأ إلى القراءة .

ــ أتقرأ كثيراً ؟

ــ قدر ما أستطيع .

ــ وماذا تقرأ الآن ؟

ــ آخر ما قرأت . . رواية لكاتب نمسوى . . اسمه ستيفن زفيج .

ــ لا أذكر أنى قرأت له من قبل . . ما اسمها ؟

ــ حذار من الشفقة .

ــ أأعجبتك ؟

ـ جداً .

ـ ما موضوعها ؟

ـ إنها مأساة عاطفية تتلخص فى أن أحد الأثرياء يعيش فى قصره الريفى مع ابنته المقعدة المصابة بشلل الأطفال والتى يئس الأطباء من علاجها ، وفى نفس البلدة تهبط كتيبة من الفرسان ويتعرّف أحد ضباطها بالفتاة المقعدة فى إحدى الحفلات ، ويتردد الضابط على القصر بعد ذلك لتمضية وقت طيب فى البلدة التى يسودها الملل ويشجعه الأب الثرى الذى أحس من وجوده سعادة لابنته فتتعلق به الفتاة ، وتزداد العلاقة بينهما حتى يجد نفسه قد تورط فى خطبتها بدافع الشفقة ، ثم يتبين أنه لا يكن لها أية عاطفة من الحب ، وأنه سيدمر حياته بأن يقيد نفسه إلى الفتاة المشلولة مدى عمره . . وينتهى به الأمر بأن يغادر البلدة هاجراً الفتاة . . ويوخزه الندم بعد هذا فيصمم على العودة إليها . . ولكن عند عودته يجد الفتاة قد ألقت بنفسها من فوق هاوية تطل عليها إحدى شرفات القصر بالزحف بعربتها ذات العجل ، منتهزة فرصة وحدتها وقضت على نفسها .

وكنت أقص القصة فى غير اكتراث وأنا أعبث بسلسلة المفاتيح تارة وبالراديو تارة أخرى . وعند ما انتهيت منها

ورفعت بصرى إليها فراعنى شحوب شديد فى وجهها ووجدتها قد أغمضت عينيها كأنها تعانى ألماً شديداً . . ولم أملك نفسى من الصياح مرتاعاً ، وأمسكت بيدها أجسها ضاغطاً وقلت لها فى فزع :

ــ ليلى . . ماذا بك ؟

وحاولت جهدها أن تتماسك ، وضغطت على يدى بكل ما استطاعت من قوى خائرة . . كأنما تخشى أن تتهاوى . . وباليد الأخرى أسندت رأسها ومسحت جبينها . وبدا لى أنها على وشك الإغماء .

وعدت أسألها مضطرباً :

ــ ماذا بك ؟! بم تشعرين ! ؟

وأجابت فى صوت خافت :

ــ لاشئ . لقد أصابنى غثيان ، ولكنى الآن أحسن .

ــ أسبق لك أن أصبت به من قبل ؟

ــ أجل . . أحياناً .

ــ ولكن يجب أن تعالجى نفسك جيداً ! !

وأجابت وهى تحاول جاهدة أن تستعيد حالتها وتسترجع قواها :

— إنها مسألة عارضة هينة .. سرعان ماتزول ..
لا تقلق نفسك من أجلى .

وعلت شفتيها ابتسامة باهتة ورفعت عينيها إلى الأفق البعيد حيث تلاصقت السحب بالأمواج .. وأخذت شهيقاً طويلا .. ورويداً رويداً بدأت تستعيد قواها .. أو هكذا خيل إلىّ .. وكنت أنظر إليها فى إشفاق صامت .. وقد شرد ذهنها بعيداً .

وحاولت أن أقطع الصمت لأستعيدها من شرودها .. فقلت معلقاً على حديثى الأول :

— قصة لطيفة .. وإن كانت خاتمتها قاسية .. ألا ترين ذلك ؟

— أجل .

وكان ردّها مقتضباً .. وأوشكت سحب الصمت أن تخيم مرة أخرى .. ولكنى عدت أدفع الحديث دفعاً :

— ولكن مارأيك فى البطلة ؟

— من حيث ؟

— إقدامها على الحب أولا ، ثم إقدامها على الانتحار ثانياً ؟

وكنت أقول الحديث لمجرد الحديث .. وكانت تجيب لمجرد الإجابة .. وبدا الجو حولنا فاتراً راكداً .. أنا

لا أكاد أجد ما أقول . . وهى لا تجيب أكثر من إجابة مقتضبة لا تتفق سبيلا للحديث . . ثم تعود إلى شرودها وذهولها .

وعادت تجيب إجابتها المقتضبة بقولها متسائلة :

— ما رأيك أنت ؟

ووجدت أنها زاهدة فى الحديث وأنها تلق علىّ عبئه . . فاسترسلت فيه مبدياً رأيى . . مجرد ثرثرة لا أكثر ولا أقل فلا أخالنى كنت مهتما بالبطلة إلى هذا الحد . . حد انتقاد حالتها وتحليل نفسيتها . . وماذا فعلت . . وماذا كان يجب أن تفعل .

قلت مثرثراً :

— كل خطأ يرتكبه الإنسان فى هذه الحياة . . لابد أن يتحمل عواقبه . . وكل متعة يحاول أن يأخذها الإنسان أكثر من حقه . . لابد أن يردها عذاباً وألماً . . ولقد أخطأت الفتاة فى أول الأمر . . بأنها تطلعت إلى أكثر من حقها . . فكان عليها أن تحتمل بعد ذلك نتيجة خطئها . . إما عاجلا . . أو آجلا . . إما بصدمة سريعة . . أو بعذاب بطىء . ولقد اختارت الطريق الأقصر والأسهل . . فقضت على نفسها وتخلصت من كل ما أصابها . . وما يمكن أن يصيبها

من آلام . . ولو لم تختر هذه النهاية العاجلة . . لكان عليها أن تواجه مصيراً مريراً وحياة مضنية . . مليئة بالحرمان واليأس والآلام . . حتى على أفضل الفروض . . لو أن صاحبها قد أقدم على زواجها . . فلا أظن حياتها يمكن أن تكون أسعد من حياة الحرمان . . إن دافع الشفقة لا يستمر طويلا . . وستجد نفسها عبئاً ثقيلا على زوجها . . وهو إنسان له حق الحياة . . وحق المتعة . . فإما أن يكون وفياً لها فتفسد عليه حياته . . وإما أن يهجرها فتفسد حياتها هى . . إن لآمال الإنسان ومطامعه فى هذه الحياة حدوداً يجب ألا تتجاوزها . . حتى تكون محتملة التحقيق . . ولا يكون اليأس المحتم مصيرها ومنتهاها .

لست أدرى إلى متى كنت أنوى الاسترسال فى ثرثرتى محاولا أن أبعث فى نفسها بعض التسلية وأنتشلها من هذا الصمت الثقيل والشرود البغيض . . حتى وجدتها قد نظرت إلى الساعة وانتفضت فجأة كأنما قد أيقظتها من سباتها هزة عنيفة وقالت لى فى عجلة وقلق :

— أرجوك . . تفضل . . بسرعة . . أرجوك .

وكرهت طريقتها فى صرفى . . وعادت الشكوك تلح على نفسى . . والغيرة تنهش قلبى . . ولكننى لم أملك سوى

النهوض والانصراف . . بسرعة . . كما أرادت .

ولكنى . . فى الواقع لم أنصرف . . فقد بيت فى نفسى أمراً . . صممت به أن أكشف خبيئة أمرها . . وأعرف الحقيقة ، وأقضى على الوساوس والشكوك .

تظاهرت بالانصراف واندفعت أحث الخطا فى طريق العودة ، ولكنى بدل أن أستمر فى طريق عبرت الطريق إلى الرصيف الآخر . . ثم دلفت إلى الداخل متوارياً بين البيوت المتناثرة أخوض بين الرمال والأعشاب والحجارة . . محاولا أن أنتقى لى موضعاً للمراقبة أتوارى فيه وأرقب منه .

وبدت أمامى الطاحونة . . بهيكلها الضخم ونوافذها العالية فاندفعت إليها وطرقت الباب ثم دفعته فى عجلة وعدوت إلى أعلى فوق السلم الخشبى .

وفى لحظات قصار كنت أجلس وراء النافذة وقد بدا الشاطىء أمام عينى بوضوح . . وأبصرتها من بعيد جالسة فى مكانها تتلفت حولها فى قلق .

وأخذت أرقب . . وقد تلاحقت أنفاسى . . وأرهفت حواسى . . فلم أكد أشعر بشىء أو أرى شيئاً . . سوى شبحها الجالس على الشاطىء .

ولم يطل بى الأمر حتى وجدت سيارة تنساب فى الطريق ثم تهدىء من سرعتها وتقف قبالتها .

وعصفت بى الغيرة . . وملأنى الغضب . . وقد توقعت أن يهبط منها الغريم المجهول الذى كنت مسلاتها فى غيبته ، والتى كانت تأبى إلا أن تصرفنى بسرعة كلما أزف ميعاده .

ولكنى رأيت السائق قد هبط من العربة . . ومعه رجل أسود يرتدى جلباباً أبيض . . كأنه خادم . . وتقدم الاثنان نحوها . . وأخذا يقتربان حتى وصلا إليها .

وكنت أرقبهما فى شئ من الدهشة وقد بدا الغضب يهدأ والغيرة تتلاشى .

وفجأة حدث ماوقف له شعر رأسى . . حدث آخر ما كنت أتوقعه . . لقد مدّ الاثنان ذراعيهما وحملا الفتاة بمقعدها فى صمت واتجها إلى العربة ، وهنا فقط أدركت أن الفتاة مقعدة ، وأن بها شلل أطفال ، وأدركت كل ماقصدته بالروضة البرية الموحشة المهجورة ، وعرفت مبعث سحب الظلمات التى تحيط بها واليأس الجاثم عليها ، وتبينت سبب إصرارها على أن أنصرف فى كل مرة حتى لا أكتشف مصابها فأهجرها ، وأحرمها ذلك الإحساس الفياض الذى أغرقتها به .

وتذكرت قصة الفتاة المشلولة التى قصصتها عليهـــا . .
وتذكرت ثرثرتى البغيضة التى علقت بها على الفتاة وأحسست
أن مطارق تهوى على رأسى . . وخناجر تمزق أحشائى ،
واندفعت فى جنون أهبط السلم أربعاً فى أربع . . ومرقت
من الباب كالسهم المـارق ، وعدوت أتخبط بين الرمال
والحجارة وشواهد القبور .

وعندما وصلت إلى الطريق وجدت العربة تتحرك . .
وصحت أستوقفها صارخاً . . والتفتت هى فى دهشة من وراء
الزجاج الخلفى للعربة وندت عنها صرخة مكبوتة وبدا عليها
الارتياع .

ولـكنها لم توقف العربة . . بل أخذت سرعتها تتزايد ،
وهيكلها يتبـاعد ، وعدوت ألهث وراءها لأنبئها أنى أحبها
أكثر مما أحب أى إنسان فى هذه الحياة . . وأن أسألها
الزواج .. أسألها عن رغبة ولهفة وحب عميق .. لا عن عطف
طارىء أو شفقة عابرة .

عدوت لأؤكد أن لها الحق فى أن تأمل فى كل شئ ،
وأمحو من ذهنها السخافات التى صدمتها بها بثرثرتى الحمقاء . .
عن الأمل المحدود . وعن الطريق السهل للتخلص من الآلام .

ولـكنى توقفت أخيراً وقفة اليـأس . . والعربة تنهب

الأرض مسابقة الريح وأنا ألهث مبهور الأنفاس .

ونظرت حولى فى يأس . . فلم أبصر غير الأمواج الصاخبة والبحر الهادر المتلاطم ، والطاحونة الخربة تقف كالشبح المخيف باسطة ذراعيها إلى السماء والريح تصفر من حولها وتئن وتعول وترن .

وعدت إلى البيت ذاهلا مرتاعاً . . لا تفارق ذهنى صورة الوجه الأشقر الدقيق تكسوه لمحة الحزن واليأس ، وقد حملته الأيدى إلى العربة كالطائر المهيض .

كنت أشعر بمدى الطعنة القاتلة التى وجهتها إلى الطائر الحزين البائس المقصوص الجناح . . وأنا الذى كنت أتلهف إلى أن أرأب صدعه وأجبر كسره وأشفى قرحه وألم جرحه .

وعاودتنى صورة طير آخر صغير . . هوى من حالق بعد أن أصابته رميتى . . وخيل إلىّ أنى أوشك أن أصيب الآخر بمثل رميته . . وأحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر وبأنى لو لم أفعل شيئاً . . لأنقذ به الضحية . . فإنى سأجن لا محالة .

وكنت على استعداد لأن أفعل من أجل ليلى المسكينة كل شئ . . كنت على استعداد لأن أفتديها بروحى ، وبأعز ما أملك . . ولكن التضحية بروحى لم تكن تغنى عنها شيئاً

ولذلك لم يبق أمامى . . إلا أعز ماأملك . . أعنى راجية .

كان ذلك هو السبيل الوحيد . . والعلاج الحاسم الناجع السريع . . كان علىّ أن أفتديها بأى ثمن . . ولو كان ذلك الثمن راجية . . بكل مابيننا من مواثيق وعهود ، وكل مايجمعنا من سعادة وهناء .

كل ذلك هان على نفسى فى سبيل شئ واحد . . هو افتداء ليلى وإنقاذها . . ولم تكن المسألة بالعمل السهل ، ولا كان الإقدام على تنفيذها بالأمر الهين . . كنت أعلم أى صدمة سأصدم بها راجية وأى فجيعة وخذلان أليم سأسببه لها . . ولكنى كنت أعلم أيضاً أن كل ذلك الثمن الضخم . . يرخص إذا ما قيس بالحياة التى سأفتديها به .

وفى نفس اليوم أقدمت على تنفيذ ما عقدت العزم عليه . . وبذهن شارد وخطا متثاقلة . . ذهبت إلى راجية . . وأنهيت الأمر . . وقد صممت الأذن عن كل رجاء . . . ووأدت فى قلبى كل إحساس بالحنين وقتلت فى نفسى كل شعور بالتخاذل أو التراجع .

وعدت إلى الدار وأنا أشعر — برغم ماسببته من فجيعة لراجية ولنفسى — أنى قد أزحت عنى جزءاً من العبء الذى يثقل كاهلى وينقض ظهرى . . . وكان علىّ أن أزيح

الجزء الثانى بأن أذهب إلى ليلى وأنبئها . . أنى مصمم على زواجها . . وأنى لا أحس لها بأى رثاء ولا شفقة ، بل أحبها . . بكل ما فيها . . أحبها كما هى . . ولا أريد عنها بديلا .

ولم أكن أعرف كيف أصل إليها . . وكان علىّ أن أنتظر ليلتى . . حتى يصبح الإصباح فأذهب إليها حيث تعوّدت أن ألقاها . . وأنبئها بكل ما أريد .

ولا أظننى فى حاجة لأن أقول أن النوم قد استعصى علىّ ولم يقرب جفنى . . وأنى ظللت طول الليل أتقلب على الفراش مفتح العينين . . وأن الصور الثلاثة كانت تتواتر على ناظرى الواحدة بعد الأخرى . . صورة ليلى المشلولة البائسة ، وصورة راجية الباكية المستعطفة ، وصورة ليلى الصغيرة الهاوية من عل . . تهتف بى . . إياك أن تفعل بليلى العزيزة ما فعلت بى .

وقبيل الفجر . . أثقل الجهد جفنى فرحت فى غفوة . ورأيت فيما يرى النائم أنى أسير وراجية على ربوة عالية تشرف على البحر ، وعلى حافة الربوة أبصرت فتاة تحمل طفلة تشبهها وقد أخذت تدللها وتقبلها ثم أحسست كأن ريحاً عاتية تهب من الشاطىء والتفت ورائى فإذا بمروحة ضخمة تدور بسرعة هائلة وقد اندفع منها الهواء بشدة مروعة . .

ورأيت كل ما حولى يتطاير وقد أخذت الريح المنبعثة من المروحة تقذف بالحجارة والرمال كأنها الحمم تخرج من فوهة بركان .

وسمعت صرخات استغاثة صادرة من حافة الربوة ونظرت فإذا بالفتاة والطفلة توشكان أن تقعا فى الهاوية وقد تعلقتا ببعض الأعشاب تهتز تحت أيديهما .

واندفعت لإنقاذهما عندما أبصرت بصخرة كبيرة توشك أن تهوى على راجية ورأيتها تتعلق بى متوسلة ألا أتركها . . وأخذت الصخور تتهاوى والرياح تشتد والموج يعلو وأحسست أن يدى راجية قد أفلتت منى وأنى اندفعت أعدو وسط ضباب كثيف لا أسمع فيه سوى الصرخات التى تتصاعد من كل فج . . وأنى أصيح بصوت مبحوح لا يكاد يسمع : « ليلى . . ليلى » .

وفتحت عينىّ . . وأنا أصيح بليلى . . ورأيت ضوء الصبح قد تسلل من النافذة . . فنهضت فى عجلة وارتديت ثيابى واندفعت إلى الطريق .

حثثت الخطا تارة وانطلقت أعدو تارة . . حتى وصلت مكروب الصدر مبهور الأنفاس وأشرفت على الشاطىء . . دون أن يلوح هيكلها لناظرى وأخذت أقترب . . أقترب . .

وكلما ازددت اقتراباً . . زاد بى الخوف واليأس . . ولكن الأمل لم ينقطع . . كان بنفسى خيط واه من رجاء . . كنت أقول . . ربما وجدتها . . وراء هذه الصخرة ، أو تلك . . أو ربما لم تأت بعد .

ووقفت أخيراً فى الطريق قبالة المكان الذى تعوّدت أن تجلس فيه ثم قفزت السور المنخفض واندفعت أخوض فى الرمال وما زال بى بعض الأمل .

وبغـــأة وجدتنى توقفت . . وأحسست بعينىّ تثبتان على الرمال وتكادان من فرط الحملقة تخرجان من محجريهما .

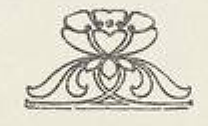
فقد أبصرت مالا أجرؤ على ذكره .

أبصرت حقيبتها وقد بدا منها طرف « الإيشارب » والنظارة السوداء . . وبجوارها استقر على الرمال . . كتاب كتب على ظاهره « حذار من الشفقة » .

ثم أبصرت آثار زحف على الرمال تمتـــد حتى حافة البحر . . وبعينى المأخوذ المبهوت عدت أدقق البصر فى الكتاب وتذكرت الطريقة التى انتحرت بها الفتاة المقعدة الزاحفة بعربتها على الصخرة إلى الهاوية .

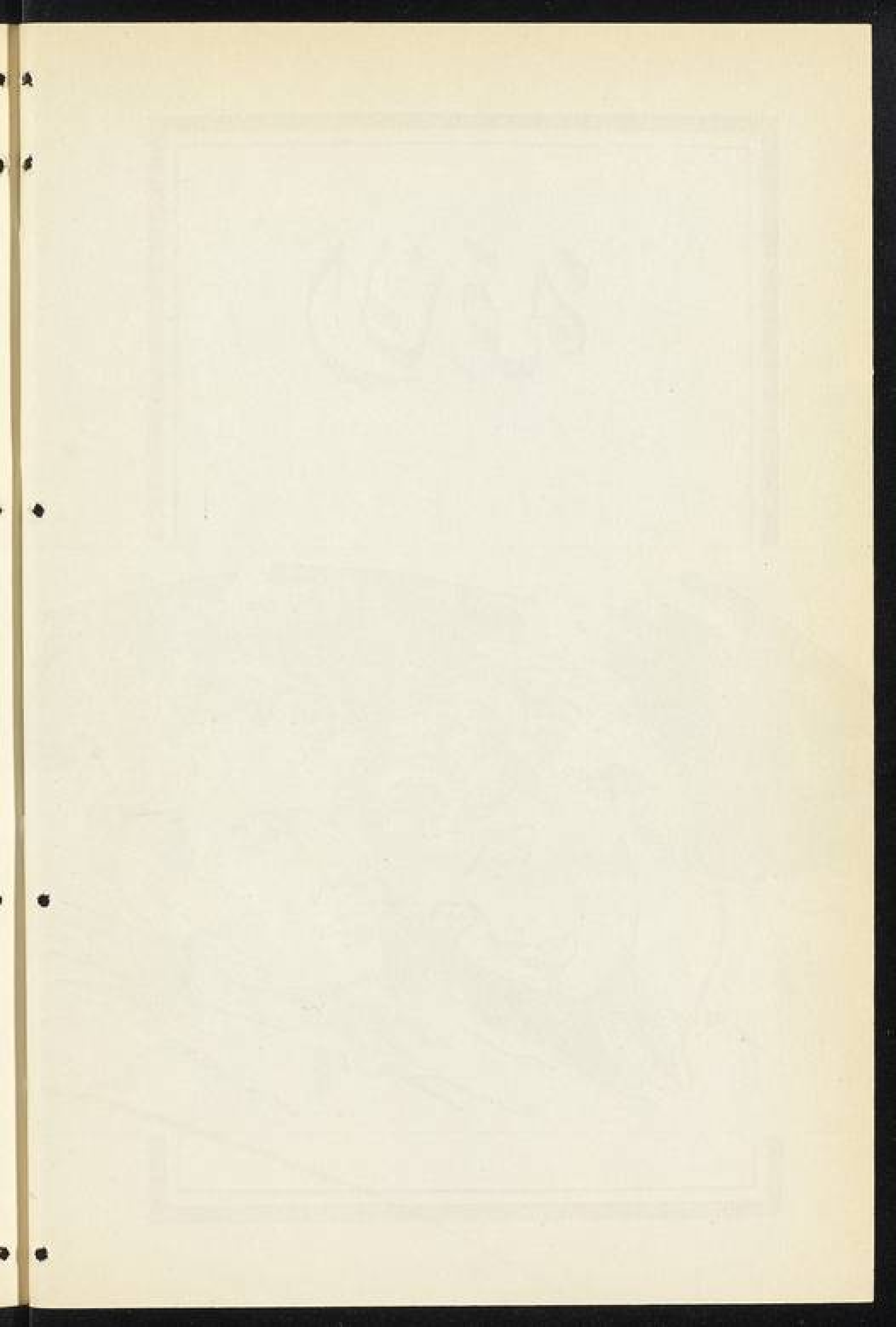
وخيل إلىّ أن ليلى المسكينة تهمس بى قائلة وهى تزحف على الرمال إلى البحر : « حذار من الشفقة » .

وانطلقت منى صرخة مجنون .. وتشنجت يداى وأنا أود أن أطبق بهما على شئ ، وعدوت نحو البحر أصيح بها والريح تبدد صرخاتى « ليس ما بى شفقة .. إنه حب .. حب .. حب » .



الخاتمة





وعاد إبراهيم يكرر كلمة « إنه حب . . حب . . » . . وشرد ببصره من النافذة وبدا عليه الإعياء التام .

وران الصمت برهة . . ثم مد توفيق يده وأخذ يربت ساق إبراهيم برفق وقال له فى صوت هادىء النبرات ملىء بالثقة والإيمان وهو يهز رأسه هزات خفيفة :

— لا . . يا إبراهيم . . لا . . إنه لم يكن حباً فى أية لحظة من اللحظات . . لقد كان شفقة . . ولا شئ أكثر من شفقة . . ألم تقل أنت نفسك أن أول ما جذبك إليها إحساس بالشبه بينها وبين أختك الصغرى ! ! لقد كان هذا هو ما دفع بك إليها أول الأمر . . . ثم أخذت اللهفة عليها تتزايد لإحساسك بحزنها . . ويأسها ، ولرغبتك الجارفة فى مساعدتها وتبديد ظلمات اليأس من حولها . . يدفعك إلى ذلك شعور خفى بالرغبة فى التفكير عن جرم قديم ما زالت بقاياه راكدة فى ذهنك . . كامنة فى باطنك . . وكنت كلما زاد إحساسك بحزنها وميلها نحوك وحاجتها إليك . . زدت تعلقاً بها . . ورغبة فى مساعدتها .

كنت ترى فيها أختك ليلى . . وكان من العسير عليك أن تتخلى عنها بعد أن اطمأنت إليك ووجدت فيك ملجأها وملاذها .

وبلا قصد منك . . وعلى غير إرادة . . تورطت فى الحديث عن الفتاة المشلولة وأبديت رأيك فى انتحارها . . ووجدت أنك قد رميت بسهمك الطائش عزيزاً آخر . . كان بودك لو كفرت بغوثه ونجدته عن إصابتك للعزيز الأول . . واندفعت فى جنون تبحث عن وسيلة للإنقاذ وصممت على أن تفتديها بكل شئ . . بنفسك وسعادتك وحبك ومستقبلك . . فأقدمت على فسخ خطبتك براجية . . حتى تستعيد حريتك . . وتكرس حياتك لإسعاد ليلى . . مكفراً بذلك عن جرميك . . نحو الاثنتين .

هذا هو ما أردته أنت . . ولكن القدر أراد شيئاً آخر . . ونحن يا أخى لا نستطيع فى حياتنا أن نسيطر على إرادة القدر . . ولا نملك إلا أن نؤدى واجبنا فى حدود قدرتنا . . ثم نخضع لما يفرضه علينا القدر صاغرين .

وأنت مخلوق شديد الحساسية . . مفرط يقظة الضمير . . يثقل عليك كل إحساس بشقاء غيرك . . وتتوهم أنك قادر على إزالة هذا الشقاء وأن تركه تقصير .

إنك فى كل ما فعلت . . لا لوم عليك ولا تثريب . . لقد فعلت أقصى ما تستطيع . . لإزالة شقاء غيرك . . ولكن كما قلت لك لا نملك التصرف فى مصائر البشر . . فليس هناك

ما يدعو لأن تشق نفسك بأخطاء القدر . . إن واجبك الأول هو إزالة شقاء نفسك . . والتماسك والتجلد والمقاومة . . وأن تزيل بذلك شقاء مخلوقة أخرى . . هى راجية التى كانت الضحية الحقة فى كل ما حدث . . راجية التى قلت عنها إن حبك لها هو الأصيل الدائم الباقى . . إنها تستحق أن تكافح من أجلها مرضك وأن تستعيد قواك . . لكى تسعد حياتها .

وصمت توفيق . . وهمس إبراهيم وقد أسند رأسه بكفه وبدأ كأنما يوشك أن يتهاوى إلى الأرض :

— راجية . . راجية . . أين راجية ؟

وكان هذا آخر مافاه به . . فقد انهارت قواه . . وراح فى إغماءة ، وأسنده زكى على صدره وهو يمس جبينه قائلا :

— إن حرارته مرتفعة . . يبدو أنه محموم .

ونقل إبراهيم إلى داره ورقد على الفراش يرزح تحت عبء الحمى .

وكان أول ما فعله توفيق بعد عودتهم أن أنبأ راجية بما حدث . وتملكتها الدهشة وهى تنصت للقصة يقصها عليها توفيق . . ثم أخبرها فى النهاية بأنه قد أصيب بحمى وأن زكى سيتولى علاجه وأنهم قد أرسلوا فى طلب ممرضة للسهر عليه .

وهمست راجية وهى تكفكف عبرات انسابت من عينيها :

ــ لا داعى للممرضة . . سأتولى أنا السهر عليه .

وكانت سيدة تقف إلى جوارها فقالت معترضة :

ــ ولكن . . ماذا يقول جدك . . عندما يعود ؟

وأجابت راجية :

ــ لن يقول شيئاً . . لقد سبق أن قلت له أنه ليس هناك من يستطيع أن يمنعنى من أداء واجبى . . إنى لن أترك إبراهيم لحظة واحدة . . إن جدى يعرف أنى لا أذهب إليه للهزل أو للعبث بل لأؤدى واجبى فى إنقاذه . . وهو لا شك يكره أن أتخلى عنه فى شدته وأتركه فى محنته .

ومرت الليالى ثقيلة بطيئة . . وإبراهيم مغرق فى غيبوبته وراجية ترقبه بمقلة أرّقها الحزن وأضناها البكاء والسهر .

ولم تكن تكف عن التمتمة بالفاتحة وبما تحفظه من الآيات وعن دعوة الله فى توسل أن يبله من مرضه . . فى رجاء وأمل . . وقد أخذت تسائل نفسها :

ترى ماذا سيقول عندما يعود إلى وعيه ؟

أتراه سيعرفها أم سينكرها ؟

ولكن بأى حق تبق إلى جانبه . . وقد قطع هو كل

ما بينهما ؟ ولكن ألم يكن ذلك لسبب ؟ ألم يكن معذوراً ؟

أجل . . ولكن ذلك لا يمنع أن القطيعة مازالت قائمة . . وأنها بوجودها ستفرض عليه نفسها .

إن خير ما تفعله هو أن تتركه بمجرد أن يدنو من الشفاء .

ولكن هبه لم يسأل عنها ! !

أبعد كل هذا . . تفقده مرة أخرى ؟ !

ولكنها لن تفقده . . إنها ستعود إلى سابق أحلامها به وأوهامها فيه . . ستعود إلى القناعة بمشاركة الآلاف فى ألحانه . . وبسماعه من بعيد .

أجل . . إن هذا هو خير عزاء لها .

ليت الله ينعم عليه بالشفاء . . وليفعل بها ما يفعل .

وقبيل الفجر . . أفاقت راجية من غفوة ألمت بها . . وفتحت عينيها فى خشية وهى تنفض عنها النوم . . وتطرد من ذهنها بقايا حلم بغيض طاف بها فى غفوتها .

ثم نهضت متسللة على أطراف أصابعها . . واقتربت من إبراهيم تطمئن عليه وتنصت إلى أنفاسه وترقب صدره يعلو ويهبط فى هدوء وتطلب من الله اللطف والرحمة .

وفجأة أبصرت جفنيه يرتجفان ثم يفتحان ببطء

وبعينيه تحملقان فى سقف الحجرة بلا وعى ولا إدراك .

وكتمت أنفاسها وهى ترقبه فى خوف شديد .

أتراه سيعود إلى سابق حالته من الذهول والشرود والتجاهل والإنكار ؟

اللهم لطفك ورحمتك .

وتحركت مقلتاه يمنة ويسرة .. لتقع على محياها المتلهف المشدوه . وشع منهما بريق معرفة وإدراك وانفرجت أساريره وارتسمت على شفتيه بسمة خفيفة وانحنت عليه برفق وهمست به فى صوت ذائب : — إبراهيم !

وأجابها هامساً : — راجية .

ولم تستطع أن تمنع عبراتها الصامتة من الانسياب .

وأمسك إبراهيم يدها وضغط عليها ويقربها من فمه :

— لا تبكى يا راجية .. إنى بخير .

— أجل بخير .. وستكون دائماً بخير .

وأخذ يتحسس يدها فى حنو وشغف .. وأحس بأن الخاتم قد نزع من أصبعها فسألها فى شئ من الدهشه :

— أين الخاتم يارجية ؟ ! أين خاتم الخطبة ؟ !

وأجابت راجية فى لهجة متلهفة : — أتريدنى أن ألبسه ؟

— طبعاً . أعيديه إلى أصبعك ، ولا تنزعيه أبداً . سيبقى

فى يدك ، ما بقيت لى أنفاس تتردد ، أنت الروح . وأنت . .

ـــ صه . . لا تتعب نفسك بالحديث .

ـــ دعينى أنبئك بكل شىء . . دعينى أعتذر .

ـــ لا تقل شيئاً ولا تعتذر عن شىء .. ليس هناك أبداً مايدعو إلى الاعتذار ، ولو كان ، لكنت أسبق إلى الغفران .

ـــ ولكن أريد أن أقول . . .

ـــ أنا أعرف ما ستقول . . إنى أسمعه . . دون أن تقوله . انتظر لحظة حتى أريك .

وغابت راجية عن الحجرة برهة ثم عادت إليه . . وبعد لحظة . . علا صوت المسجل من الخارج يهتف : ـــ أين أنا ؟

ـــ بين ذراعى .

واستمرت المناجاة . . عذبة حنوناً . . وقد أخذ الاثنان ينصتان إليها فى نشوة . . والشمس ترسل أشعتها من خلال النافذة . . والنسيم الرطب يحمل إليهما عطر الورود .

وأشرفت المناجاة على النهاية . . والصوت يقول :

ـــ لم يعد لى غنىً عنك لحظة واحدة . . أشعر كأنى لا أستطيع تنفس الهواء إلا إذا كان ممزوجاً بأنفاسك .

ومد إبراهيم ذراعيه وقرّب من أنفها أنفه وأحس من أنفاسها نشوة عجيبة وعاد الصوت يهتف فى رقة :

ـ إن حياتى مستمدة منك . . أنت أحد عناصر الحياة لدىّ بل أنت عنصرها الأول . . بغيرك لاأستطيع الحياة . . لا أستطيعها أبداً . . أبداً .

وصمت الصوت وهمست راجية :

ـ أتريد أن تقول أكثر من هذا ؟

وأطبق إبراهيم على شفتيها وهو يهمس : لنبدأ من جديد

وهمست راجية : ـ أين أنا ؟

ـ بين ذراعىّ .

ـ ليتنى أبقى بين ذراعيك دائماً . . ليتنى لا أفتح العين حتى يبقى الحلم إلى آخر العمر .

ـ أنت لست حلماً ، إنك الواقع . إنك الأصل ، وغيرك ظلال وأوهام وأضغاث أحلام .

ـ لا يا إبراهيم . غيرى باق فى قرارة نفسك . إنك تحبه وأنا أيضاً أحبه . . إنك لن تنسى ليلى أختك ولا ليلى الثانية، ولن أنساهما أنا . . فهما انعكاس لنفسك المرهفة الطيبة . . وصدى لضميرك الحى الخير . . لن ننساهما أبداً . . وعندما ننجب أبنتنا الأولى سنسميها « ليلى » . . حتى تكون أمنيتنا الدائمة وهدفنا المشترك وحتى نقول لها كلانا « فديتك ياليلى » .



فهرس

تطلب جميع مطبوعاتنا

من وكلائنا

بغــــداد مكتبه المثنى ت ٣٥٨٨

دار المعارف . . . . اسكندرية ت ٢٣٥٨٨

المكتب التجارى . . . . بيروت ت ٢٤٥٠٣

دار اليقظة العربية . . . . دمشق ت ١٢٢٦٤

دار الكتاب بالدار البيضاء . . . مراكش ت ٧٧-٩٠٠

مكتبة النهضة . . . . الجزائر ت ٩٩-٣٩٨

« السودانية . . . . . الخرطوم ت

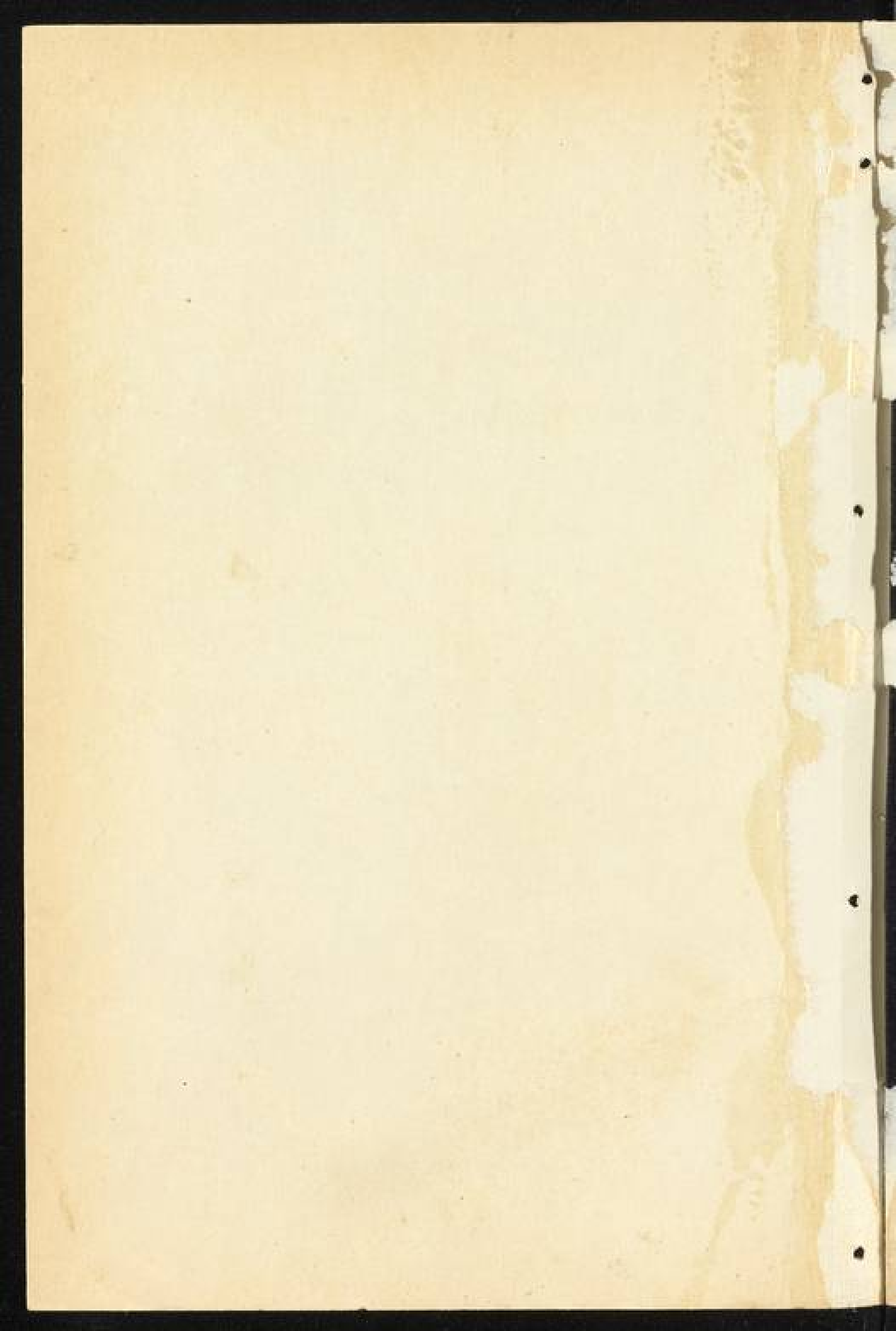
دار كردفان . . . . الأبيض ت ٢٨٤

المكتبة الأدبية . . . . تونس

مكتبة الثقافة . . . . جــدة

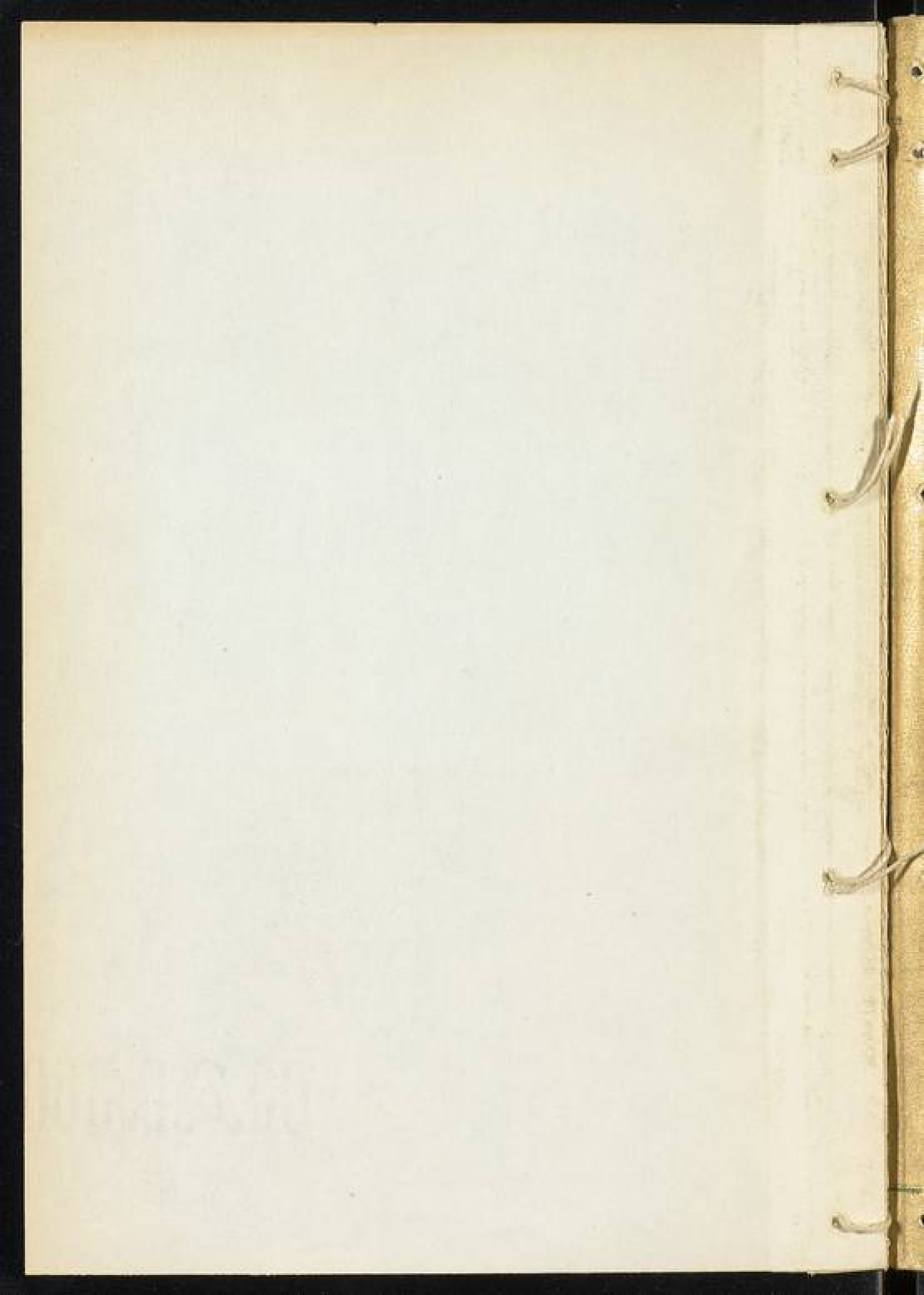
مكتبة عرابى . . . . الحجاز

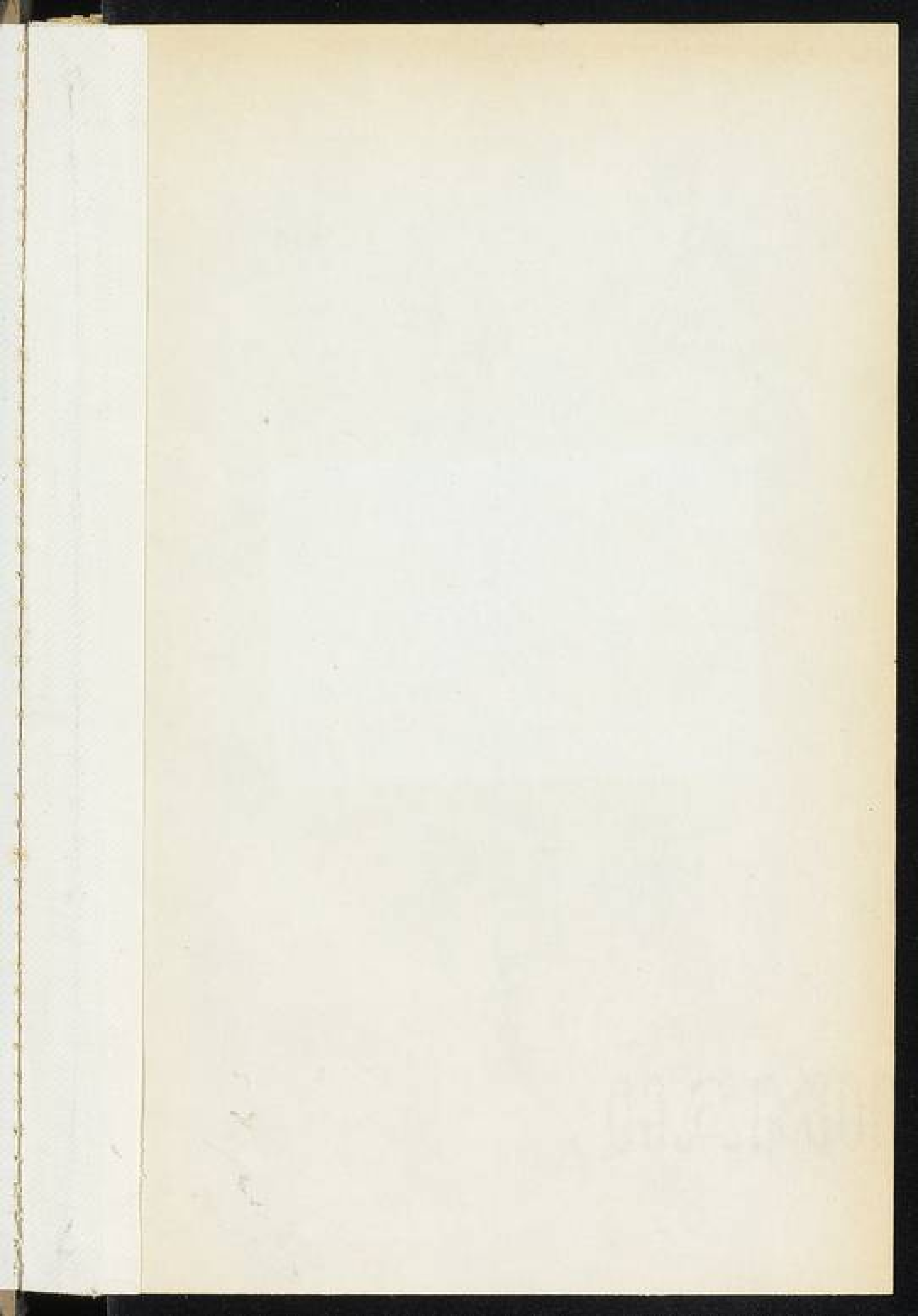
شركة فن الطباعة



الناشر مكتبة الخانجي

شركة فن الطباعة






Princeton University Library
32101 072235888